دكتور قاسم عبده قاسم
دكتور أحمد إبراهيم الهوارى

الرواية التاريخية

فى الأدب العربى الحديث



دار المعارف

الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث

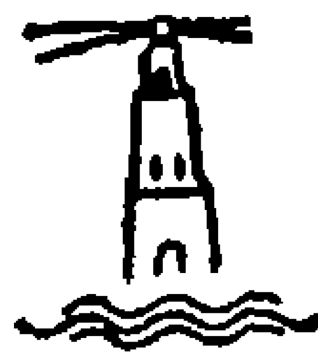
نصوص تاريخية ونماذج تطبيقية من الرواية المصرية

تأليف

دكتور قاسم عبده قاسم
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة الزقازيق

دكتور أحمد إبراهيم الهواري
مدرس الأدب الحديث والنقد
كلية الآداب – جامعة الزقازيق

١٩٧٩



محتويات الكتاب

الإهـداء

إلى الذين يبحـثون فى المـاضى
عن تفسير الحاضر ورؤية للمستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ثمة علاقة جدلية بين الفن والتاريخ . فالفن مادة من مواد التدوين التاريخى . والتاريخ بدوره يشترك مع الفن فى دعاماته الثلاث : الإنسان ، والزمان ، والمكان .

وهكذا ، فإن مادة المؤرخ ومصادره تشمل فيما تشمل الفن بكافة أجناسه ، فن القول : الفنون الذاتية ، الشعر الغنائى ، والفنون الموضوعية : الملحمة ، القصة ، الرواية ، المسرحية ، وفنون النحت ، والتصوير ، والحفر ، والزخرفة .

فى هذه الأشكال من الإبداع الفنى ، يجد المؤرخ مصدراً من مصادر التاريخ يعكس روح العصر الذى يصوره ، ويكشف عن وجدان الإنسان الذى يحيا فيه . كما يصور هذا الإنسان بمشاكله : همومه وآماله ، نجاحاته ، وإحباطاته ، قيمه ومثله . وفوق هذا ، فهو يبحث عن نظامه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى . وموقعه الاجتماعى من هذا النظام ، وموقفه كذلك .

كما تسهم أشكال الإبداع الفنى ، بأدواتها أو طاقاتها التعبيرية الخاصة — وهى فى هذا تكون مواكبة للمنهج التاريخى الذى يسترد الحدث من الماضى — فى إعادة بناء صورة الماضى ، وبعث روحه من مرقدها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الفن يجد لنفسه الوحى والإلهام فى أحداث التاريخ ، وهنا نجد أن الفنان الذى يستلهم التاريخ فى إبداعه الفنى يتخذ من الأحداث (أو الحقائق) التاريخية المجردة نواة ينطلق منها خياله الخلاق ، ينسج خيوطها من رؤيته ، ورؤاه الإبداعية .

والخيال الخالق للفنان يكون هنا مقيداً بالحدث التاريخى إذ أنه يبدأ بالمحسوس ، بالحدث المادى (الماثل) لينطلق إلى الرمز المعنوى (المثال) .

وهنا يجدر بنا أن نتريث قليلا لنتأمل الفروق بين مهمة المؤرخ ومهمة الفنان ، فالمؤرخ ينشد الحقيقة ، ومن ثم فهو يتسلح بمنهج التاريخ ذى الصفة الاسترداية ، مسترشداً بمصادره — ومن بينها الفن — فى محاولة إعادة تصوير الماضى — بقدر ما يستطيع من الدقة . ثم هو يحاول تفسير هذا الماضى من خلال الكشف عن العلاقة السببية بين الظواهر التاريخية .

وينبغى على الفنان ألا يلوى عنق الحقيقة التاريخية فى سبيل الإبداع الفنى ، فإن ذلك يعد تزييفاً للتاريخ ؛ وينأى بالأثر الفنى عن خاصية أولية تميزه وهى « الصدق » . فالصدق الفنى ينبغى ألا يجور على الصدق التاريخى . دع عنك الآثار السلبية التى قد تؤثر فى وجدان الإنسان .

إن المؤرخ ينظر بباصرته نحو الماضى بهدف كشف الحقيقة . أما الروائى فهو ينظر بباصرته نحو الماضى بهدف تحقيق **التواصل الانسانى أو وحدة التجربة الإنسانية** . ثم هو — ببصيرته — يحاول أن ينبئ عن رؤيته لغد يظهر الغيب .

وهما معا يحتفلان **بدوافع الفعل الإنسانى** » واستجابات الإنسان — من خلال التجربة الإنسانية — للمواقف التى يحياها .

وثمة مسألة نقف أمامها وهى دور الخيال بالنسبة للمؤرخ والروائى فى صياغة المادة التاريخية بصورة معينة وفق منطق معين . وهذه المسألة تهمنا هنا لأنها ترتبط بعملية التشكيل فى البناء الروائى . إنها تمثل قدرة الروائى المؤرخ على التخييل الإبداعى العقلى الذى يصوغ المادة التاريخية ، إذ تبقى الصورة التى يرسمها المؤرخ عن الماضى مشتقة من نسج خياله . كل تفصيل من تفاصيلها

لمنطق عمليه أو يتحكم فيه هذا الخيال الابداعى الذى يصوره الإستدلال العقلى البحت (١) .

وعند هذه النقطة — الصورة المُتَخيلة — يكمن وجه الشبه بين مهمة الروائى ومهمة المؤرخ . فكل منهما يهدف إلى رسم صورة تتألف من عدة عناصر بحيث تنطوى على حكاية أو قص الأحداث ، ووصف للمواقف ، وعرض للدوافع أو البواعث ، وتحليل السلوك أو فعل الشخصيات فى البيئة وانفعالها بالأشياء . كما أن كليهما يهدف إلى تقديم صورة كاملة من حيث التماسك والتناسق ، حيث تبدو كل شخصية ، وكل موقف ، عبارة عن حلقة متصلة ببقية الشخصيات والمواقف لكى تسهم بتضافرها فى تكامل أبعاد الصورة . فتشعر من خلال تصوير كليهما للشخصية ، أنها ما كان لها أن تتصرف فى هذا الموقف إلا بإسلوب معين ينبع من طبيعة الموقف الذى تحيا فيه وادراكها العقلى لهذا الموقف . كما يجب أن تنطوى الرواية ، كما ينطوى التاريخ على مغزى ، بحيث لا يقحم فى أحدهما تفصيل لا يفرضه منطق الأحداث . والذى يقرر هذه الضرورة المنطقية ، هو الخيال من جانب ، ورؤية المؤرخ أو الروائى وموقفهما من التاريخ من جانب آخر .

وزاوية الرؤية هذه تحدد موقفهما سواء المؤرخ أو الروائى من أحداث التاريخ ودور القادة والحكام وتأثير العلاقات الاجتماعية والصراعات الطبقية ، والمؤثرات الباطنة التى قد لا تظهر على السطح ، ويكون لها — مع ذلك — تأثيرات بعيدة فى مجرى التاريخ (٢) .

ولنتفق على أننا حصيلة التراث الانسانى — الذى هو التاريخ فى أحد معانيه — وأننا حين نتعامل مع التاريخ أو التراث ، فإنما ننظر إليه بعيون

---

(١) انظر كولنجوود ، فكرة التاريخ ، (ترجمة محمد بكر خليل . القاهرة . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨) ص ٤٢٤ .

(٢) انظر يوجين ، نوفمبر ١٩٧٥ ، ص ٣ .

معاصرة ، لاتنسلخ عن عصرها ، وعن اهتمامات الإنسان بكل مايدور حوله من أحداث ، وما يطرحه الواقع من تحديات :

فى ضوء هذا المدلول ، يتقدم الإنسان ، صانع التاريخ ، يحمل كتابه بين يديه ، ليكشف من خلال منحنى تاريخه ، عن مصير الإنسان والإنسانية ، حسبما شئت من تخصيص إنسانى ، أو تجريد فلسفى . هنا تصبح الحدود بين الفن والتاريخ حدوداً وهمية ، إذ أن القاسم المشترك الأعظم هو « الإنسان» .

ولاضير - وفق ما سبق - أن ننظر إلى الرواية التاريخية بوصفها عملا أدبياً بحتاً لايختلف عن الأعمال الروائية التى استهلت موضوعاتها من الأحداث الحاضرة أوالواقع المعاصر . إذ أن المطلب المشترك هو البحث عن الانسان وتحليل موقعه الاجتماعى من خلال الوعى بأن مهمة الرواية هى تحليل المجتمع ونقده .

وما سبق لايعدو أن يكون إضاءة لابد منها قبل أن نطرح موضوع هذه الدراسة ، والهدف منها . لكن ينبغى التنويه إلى أن علاقة الفن بالتاريخ قضية متشعبة . ولم تهدف هذه المقدمة أن تُلِمّ بأطرافها . ونأمل أن تتاح الفرصة لمناقشة القضية بأبعادها فى دراسة لاحقة .

(٢)

هذه الدراسة ثمرة إيمان من المؤلفين * أننا ورثة حضارة إنسانية عظيمة، أثرت الفكر والوجـدان الإنسانى، وأحيت الإنسان فى الانسان: ومن أسف أن كثرة من مثقفى اليوم لا يعون تراثهم، وإنما هم عالة تراث غيرهم - فأصبحوا كشجرة أجتثت من أرضها فما لها من قرار . وأصبحنا - على حد تعبير أستاذنا أمين الخولى - كالوريث السفيه، يبدد ثروته لأنه يفتقد الوعى بقيمة ما يملك . ومن الطريف أن الحس الشعبى قد أدرك بنقاء فطرته الآثار المدمرة لانقطاع الإنسان عن ماضيه فأكد أن « من فات قديمه تاه » .

لذا، تأتى هذه الدراسة، محاولة إثارة الوعى أو قل « عودة الوعى » بتراثنا الحضارى . وهى تصدر عن رؤية تلتمس فى الماضى حلولا لتساؤلات يطرحها الواقع المعاصر، مستشرفة رؤية للمستقبل :

والمتأمل فى موضوعات الكتاب يلمس خيطاً أو عقداً فريداً يربط فصوله . فهذه الدراسة تعالج فكرة محددة، وهى فكرة « الجهاد والبطولة » فى سبيل نشر العقيدة الأسلامية . ومن ثمار هذه الدراسة أنها كشفت من خلال الدراسات النقدية للروايات المختارة . كيف صورت البطولة ؟ .

(*) قام المؤلفان باختيار فترة العصور الوسطى لمصر الإسلامية، وما أوحت به من مادة راويته لروائيين المعاصرين فى مصر، ودار البحث حول فكرة محددة وهى فكرة « الجهاد والبطولة » ونهض د. قاسم عبده قاسم باختيار النصوص التاريخية التى استمد منها الروائى أحداث روايته، ومهد لها بدراسة تاريخية اجتماعية للعصر . ونهض د . أحمد ابراهيم الهوارى بالدراسة النقدية للنصوص الروائية المستوحاة من هذه الفترة التاريخية . وحرص على أن يضع بين يدى الباحثين والنقاد نماذج من المقالات النقدية المتناثرة فى الدوريات ولم تجمع فى كتاب، والتى تعالج قضايا نقدية أثيرت خلال التناول النقدى للروايات التاريخية مثل دور الشخصية التاريخية أو البطل التاريخى فى الرواية . ومهمة الرواية التاريخية وطبيعتها . ومشاهد من كتاب ابن زنبل . تكشف عن الروح القصصية للمؤلف وكيف جسد بخياله الصورة المأساوية للبطل « طومانباى » . وقد حاول الانتفاع بثمار المهاد التاريخى الذى قدمه د . قاسم والذى ألقى أضواء على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعصر واجتهد أن يخرج من كل بنظرة شاملة للوجود الفردى والاجتماعى للانسان فى إطار معطيات فن الرواية .

ففهوم البطولة والجهاد فى الإسلام — وهو مفهوم نجد بذوره النظرية فى النصوص التاريخية ذاتها — لايقف عند « الذات » مؤكد لدورها بقدر ما يرى هذه « الذات » وقد تجردت من مطامعها ، وشهرت سيوفها ذودا عن عقيدتها فالبطل الإسلامى يخرج من شرنقة « الذات» منطلقاً لإعلاء كلمة الحق . إنه « جندى الله » أو « المجاهد فى الله » يحمل سيفه ويمضى إلى المعركة ، وهو يردد قول الشاعر « عبد الله بن رواحه » :

ولست أبالى حين أُقْتَل مُسْلِماً   على أى جَنْبٍ كان فى الله مصرعى

وهذا المفهوم الإسلامى للبطولة يطرح التطور الرومانسى المريض للبطل البيرونى Byronic hero فى الآداب الحديثة ، والذى يعكس صورة الإنسان فى المجتمع الحديث ، وقد انفصل عن واقعه ، وسقط فريسة للإغتراب .

(٣)

والكتاب على هذا النحو يهدف إلى تحقيق مطلبين :

الأول : أن يقدم للناقد الخلفية التاريخية للعصر والإنسان وموقعه فى البناء الاجتماعى ، معتمداً على أركان العملية التاريخية (**الانسان ، الزمان ، المكان**) فى رسم صورة للملامح العامة لإنسان ذلك العصر ، وللملابسات الاجتماعية والسياسة والاقتصادية التى تحكمت فى عصره .

الثانى : محاولة الانتفاع بثمار هذه الإضاءة التاريخية فى الدراسات النقدية للروايات المستوحاة من تلك الشرائح الزمنية المتوالية .

وقد أخذنا « مصر » بوصفها نموذجا طيباً يمثل العنصر الثابت — نسبياً — فى أركان العملية التاريخية (**المكان**) فضلا عن أنها قلب العالم الإسلامى والعربى ، وكانت دوما هدفاً لسهام المعتدين . كما أكدت الدراسة على أن يكون (**الانسان**) هو مطلبنا فى رحلته مع (**الزمان**) .

والله الموفق

المؤلفـــان

القسم الأول

مصر تحت راية الإسلام

« . . . إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله وأتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة دنيا ولا طلبا للاستكثار منها . . . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء إنما النعيم والرخاء فى الآخـــرة ، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا بـــه نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه وجهاد عدوه . . . » .

« عبادة بن الصامت للمقوقس »

فتح مصر بين الحقيقة التاريخية والخيال الفنى

أولا : الخلفية التاريخية لرواية أرما نوسة المصرية

مدخل – مقدمات الفتح الاسلامى لمصر وأهميته – أحداث ومعارك الفتح – دورالمقوقس فى فتح مصر – سقوط بابليون موقف عمرو بن العاص من أهل مصر – عبد الرحمن بن عبد الحكم وروايته عن الفتح – النص التاريخى .

تتسم الفترة السابقة على الفتح الإسلامى لمصر ، والتى تمتد فى الزمان حوالى ثلاثين عاما ، بالغموض الشديد . وتحتجب هذه الفترة التاريخية الهامة خلف الضبابية الناجمة من قلة المصادر والمعلومات التاريخية . بيد أننا نستطيع أن نقرر ، بشكل عام ، أن الاضطهادات الدينية والنزاعات المذهبية بين الأقباط والبيزنطيين ، كانت بمثابة الايقاع الدال فى شتى نواحى الحياة المصرية أنذاك ، سياسيا ، واجتماعيا واقتصاديا ، وثقافيا. ويرى بعض الباحثين المحدثين أن الخلاف المذهبى ، بين مصر – التى كانت ولاية بيزنطية – وبين الأمبراطورية البيزنطية يمكن أن يفسر لنا السهولة التى تم بها الفتح العربى لمصر . فهل كان الفتح الاسلامى لمصر سهلا حقـــا ؟ .

الواقع أن السلام الداخلى فى مصر قبل الفتح الاسلامى تعرض لهزات عنيفة بعد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ، وهو المجمع الذى أدان مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى) الذى أخذ به الأقباط . وتعلقت بسماء البلاد سحابة قاتمة من الاضطهادات الوحشية التى شنها الأباطرة البيزنطيون وولاتهم على مصر ضد الأقباط . وأطلق المصريون على تلك الفترة الكئيبة اسم «الرعب الكاثوليكى» . وكان المصريون يعتبرون قيرس Cyrus (المقوقس) الذى عينه الإمبراطور هرقل حاكما على مصر عشية

الفتح الإسلامى ، عدوا للمسيح ، لأنه أراد أن يرغم الشعب على قبول الحل التوفيقى الذى اقترحه هرقل للخلاص من المنازعات بين المذاهب الدينية المختلفة . وإزاء هذه السياسة الظالمة التى انتهجتها بيزنطة ضد المصريين ، كان من الطبيعى أن يجد المسلمون ترحيباً وتعاوناً من جانب الأقباط ، لاسيما وأن المسلمين قد عرفوا باحترامهم لحرية العقيدة .

إلا أن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة للعرب ، ولم تكن المسألة نزهة عسكرية كما يحلو للبعض أن يصورها ، ولنبدأ بتتبع أحداث الفتح العربى الإسلامى لمصر حتى تمكننا الإجابة على السؤال الذى طرحناه فى السطور السابقة

تذكر المصادر التاريخية أن « عمراً بن العاص » أخذ يلح على « عمر ابن الخطاب » لكى يسمح له بفتح مصر ، وأنه قال للخليفة : « أنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا ، وأعجزها عن القتال والحرب » . فأذن له الخليفة بالمسير على رأس قوة قوامها أربعة آلاف رجل ، أو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل . ويبدو من رواية عبد الرحمن بن عبد الحكم أن الشك أخذ يساور الخليفة عمر بن الخطاب ، وأنتابه الخوف على المسلمين ، فأرسل كتاباً إلى عمرو بن العاص يأمره بالعودة إذا كان لم يدخل مصر ، ولكن الأخير لم يفتح الكتاب إلا بعد أن أجتاز الحدود المصرية فسار فى طريقة لغزو مصر .

بيد أن الروايات التى أوردها ابن جرير الطبرى فى هذا الشأن تشير إلى أن الخليفة هو الذى أرسل ابن العاص ، بعد أن تسلم بيت المقدس من أسقفها ، لكى يفتح مصر ، وعاد عمر بن الخطاب إلى المدينة بينما واصل عمرو بن العاص مسيرة إلى مصر فى سنة ١٨هـ . (٦٣٩ م) .

فى رأينا أن فتح مصر كان ضرورة إستراتيجية أملتها ظروف حركة الفتح الإسلامية ، فثمة حقيقة مؤكدة على مر التاريخ مؤداها أنه لابد من

تأمين مصر عن طريق الشام ، والعكس صحيح تماماً . وحين أتمت الجيوش الإسلامية مهمتها بالاستيلاء على بلاد الشام ، صار من الضروري تأمين الوجود الإسلامي بها بالاستيلاء على مصر . ذلك أن بقاء مصر بأيدي البيزنطيين (الروم) كان يشكل تهديداً خطيراً للحدود الجنوبية لبلاد الشام وسواحلها على البحر المتوسط .

وسار الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص من الشام إلى مصر ، سالكاً الطريق التقليدي الذي سلكه جميع الغزاة الذين هاجموا مصر عبر التاريخ من بابها الشمالي الشرقي في سيناء . واستولى المسلمون ، بقواتهم القليلة وحميتهم الدينية الدافقة ، على العريش دون مقاومة تذكر ، ثم الفرما (قرب بورسعيد الحالية) ، ثم بلبيس بعد أن استسلمت حاميتها البيزنطية ... وعند قرية أم دنين (بالقرب من كنيسة مارجرجس الحالية بمصر القديمة) اشتبك المسلمون والبيزنطيون في قتال عنيف دون نتيجة حاسمة لصالح أحد الطرفين . وتوقف المسلمون وأرسل «عمرو بن العاص» يطلب المدد من الخليفة الذي أرسل إليه أربعة آلاف مقاتل جديد ، ثم استطاع المسلمون هزيمة الروم الذين تراجعوا للتحصن في حصن بابليون .

ولما لم يكن العرب ، حتى ذلك الحين ، أهل دراية بفنون الحصار وقتال الحصون ، فقد ظلوا يحاصرون الحصن بطريقة بدائية ، وذلك بأن رابطوا حوله ، وحل موسم الفيضان سنة ١٩ هـ . (٦٤٠) ليزيد من متاعب المسلمين. وفي تلك الأثناء طلبت الحامية البيزنطية الموجودة في بابليون مفاوضة المسلمين، وفي أثناء المفاوضات حاول المقوقس إرهاب القوات الإسلامية في حواره مع «عبادة بن الصامت» الذي قاد وفد المفاوضات الإسلامي ، وفشلت محاولة المقوقس . وعاد القتال ليشتعل بين الفريقين من جديد ، وأبدى المسلمون بسالة نادرة في القتال وعلى رأسهم «الزبير بن العوام» الذي قاد الهجوم الإسلامي على الحصن الذي سقط أخيراً . ولم يجد المقوقس ومن

معه بدأ فى الاستسلام وعقد العرب والبيزنطيون معاهدة عرفت باسم معاهدة بابليون الأولى سنة ١٩ هجرية .

وهنا ينبغى أن نتوقف قليلا أمام دور المقوقس فى فتح مصر(١) ، فقد سبق أن أشرنا إلى أن هرقل الأول كان قد عينه حاكماً على مصر البيزنطية ليجمع بين يديه السلطة الدينية والسلطة السياسية . ويشير بعض الباحثين المعاصرين إلى أن كلمة « مقوقس » هى فى الغالب تحريف لكلمة يونانية معناها « عظيم الفخامة » . وعلى أية حال ، فإنه يبدو من رواية المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبد الحكم أن هذا الرجل قد نجح فى إقناع الحامية البيزنطية بالتسليم مقابل الأمان الذى أعطاه لهم العرب . وحين علم هرقل بذلك اعتبر المقوقس خائناً ورفض الصلح ، فى الوقت الذى كان فيه الجيش الإسلامى يتقدم باتجاه الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية .

ويرى أحد الباحثين أن المقوقس ، على الرغم من أنه حاكم بيزنطى ، فإنه بصفته الحاكم الإدارى والسياسى ، وبصفته البطريرك الذى عينه الإمبراطور ، كان يعتبر « عظيم القبط » من الناحية السياسية ، وهو الوصف الذى عرفته به المصادر التاريخية العربية . ويرى هذا الباحث أن المقوقس لعب دوراً كبيراً فى مساعدة العرب على غزو مصر . بيد أن المصادر التاريخية التى أشارت إلى المقوقس باعتباره « عظيم القبط » هى نفسها التى أشارت إلى أن هناك زعيما حقيقيا للأقباط هو « الأنبا بنيامين » بطريرك الأقباط الذى كان مختفيـــا فى كهوف ومغاور الصحراء هربا من الاضطهاد البيزنطى ،

---

(١) أشار « جورجى زيدان » إلى دور « المقوقس » فى فتح مصر وذلك خلال حديثه عن الديانة المسيحية فى مصر . راجع الرواية ص ٧٣ » . ويشف الحوار الذى يديره المؤلف على لسان بعض الشخصيات الثانوية عن تواطؤ « المقوقس » أو قل انحيازه لنصرة العرب . يقول الروانى على لسان « مرقس » : « إن مولانا المقوقس مصمم على ما ذكرت ، فاذا رأى الغلبة للعرب إنحاز إليهم وهو سيدنا ووالينا : ولولا الحامية الرومية المراقبة لأعماله ، لفتح للعرب بلاده ولم يرم عليهم نبلا : « الرواية ، ص ٧٤ » . د . أحمد الهوارى .

ثم استقدمه عمرو بن العاص وأمّنه ، وهو ما يؤكد أن المقوقس لم يكن من الأقباط .

ويذكر المؤرخ ابن البطريق أن المقوقس كان هو العامل على خراج مصر من قبل هرقل ملك الروم وأنه « . . . كان يعقوبيا مبغضا للروم ، إلا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالة اليعقوبية لئلا يقتلوه ، وكان أيضا قد اقتطع أموال مصر فى وقت حصار كسرى القسطنطينية ، فكان يخاف أن يقع فى يد هرقل الملك فيقتله ، واحتال على الروم وقال لهم أن العرب قد جاءهم نجدة وليس لنا بهم طاقة ولا نأمن ثم خرج إلى الجزيرة وطلب مفاوضة العرب . . . »

ولعل كلام ابن البطريق يفسر لنا السر فى أن معاهدة بابليون الأولى قد حددت مركز المصريين ولكنها لم تحدد مركز البيزنطيين ، ويذكر المؤرخ نفسه أن المقوقس قد طلب أن تطبق عليه شروط القبط .

هذا عن موقف المقوقس ودوره فى إحداث الفتح ، فإذا كان موقف الأقباط أنفسهم ؟

تذكر المصادر التاريخية — الإسلامية منها والمسيحية — أن الأقباط قد ساعدوا الجيش الإسلامى « . . . وخرج رؤساء الأقباط فأصلحوا لهم الطريق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق والأنزال ، وصار لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم . . . » . ويمكن تفسير موقف الأقباط فى ضوء الحقيقة القائلة بأن كنيستهم كانت قد تدهورت إلى أدنى درك ، كما هرب البطريرك إلى الصعيد . أما اليهود الذين كان عددهم حوالى أربعين ألف يهودى بالإسكندرية وحدها آنذاك ، فقد بذلوا المساعدات للفاتحين إنتقاما من الاضطهادات التى قاسوها تحت الحكم البيزنطى .

وبعد سقوط بابليون تقدم العرب صوب الشمال الغربى نحو الإسكندرية التى كانت عاصمة مصر آنذاك . ولكن هذه المهمة لم تكن مهمة سهلة ،

فقد كان البحر المتوسط حتى ذلك الحين ما يزال بحيرة بيزنطية تسيطر عليها أساطيل الإمبراطورية ، كما كان البحر هو الطريق الآمن لوصول الإمدادات إلى هذه المدينة . فضلا عن أن حصون الإسكندرية كانت على درجة كبيرة من القوة والمنعة ، كما كانت المستنقعات وخليج تراجان (خليج الإسكندرية) تحميها من ناحية البحر .

وعلى الرغم من البسالة التي أبداها المقاتلون العرب الذين كانت تتأجج في صدورهم مشاعر الحماسة الدينية ، فإن عدم خبرتهم في حرب الحصون جعلتهم يتأخرون في الاستيلاء عليها ، فأرسل الخليفة رسالة تقول كلماتها :

« أما بعد ، فقد عجبت لأبطائكم عن فتح مصر ، أنكم تقاتلون منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وأن الله وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم ، وكنت قد وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ألا يكون غيرهم ما غير غيرهم فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة ، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوه .

ولما وصل الخطاب إلى « عمرو بن العاص » تشاور مع أصحابه فعقدوا لواء الحرب لعبادة بن الصامت ، وتمكن هو وقواته من فتح الإسكندرية ، وعقدت معاهدة ثانية كانت أهم شروطها عقد هدنة مدتها أحد عشر شهراً تنتهي أواخر سنة ٢١ هـ . (٦٤١ م) يخرج الروم أثناءها بمتاعهم وأموالهم بشرط ألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في شئونهم .

وهكذا تمكن المسلمون من فتح مصر ، ولسنا نغالي إذا قلنا إن توطيد

السيادة العربية مكان السيادة البيزنطية فى مصر قد ادخل بارقة أمل فى نفوس مسيحى الشرق ، فقد كتب ميخائيل السورى بطريرك اليعاقبة فى أنطاكية يقول : « أن رب الانتقام قد استقدم أبناء اسماعيل من الجنوب لكى ينقذونا من اليونانيين (الروم) ، وإذا كنا قد تكبدنا بعض الحسائر لأن الكنائس التى انتزعت منا وأعطيت للخلقدونيين بقيت لهم ، فإننا قد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الروم وشرورهم ومن غضبهم وحفيظتهم علينا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الطمأنينة قد سكنت قلوبنا . . . » .

وعلى الرغم من إختلاف الآراء حول فتح مصر ، أكان صلحا أم عنوة — مما أثار مشكلة وجدلا بين المؤرخين المسلمين ملأ الحديث عنها صفحات المصادر التاريخية — فالواقع أن المصريين قد عوملوا على أساس أن بلادهم قد فتحت صلحا ، وهو ما يعنى أن تترك الأرض لهم فى مقابل ضريبة الخراج ، وكان ذلك بتوجيه من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب كما يقول البلاذرى صاحب كتاب « فتوح البلدان » .

وتحفل صفحات المصادر التاريخية العربية بأحاديث كثيرة منسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم توصى بقبط مصر خيراً عند فتحها « لأن لهم ذمة ورحما » ، ولأن « منهم أخوال العرب » وأنهم سوف يعينون المسلمين عند فتحهم البلاد . » وإلى غير ذلك .

وعلى مستوى الواقع التزم الفاتحون بروح التسامح الإسلامية تجاه الأقباط ، وقد أورد الطبرى نص الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص للأقباط وتقول سطوره :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وكنائسهم ، وصلبهم ، وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب . وعلى

أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا ما اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة . وأن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم . ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا د عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، و ذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة ، شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب محمد وحضر » .

والتزم عمرو بن العاص بمبدأ حرية العقيدة بدقة ، كما كانت العدالة تميز سلوكه تجاه الأقباط . وقد أشار بعض الباحثين إلى أن أحوال القبط تحت الحكم العربى الإسلامى كانت خيرا منها تحت الحكم البيزنطى ، وقد احترم المسلمون الحرية الدينية كما راعوا إحترام الملكية الفردية فى زمن اشتهرت الأمم بالقسوة والوحشية فى معاملة الشعوب المقهورة . وأعطى عمرو مساحة من بركة الحبش لتكون جبانة للقبط ، وسمح لهم ببناء الكنائس ، وبنيت كنيسة مار مرقص فيما بين سنة ٣٩ هـ وسنة ٥٠ هجرية ، كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى ولاية مسلمة بن مخلد (سنة ٤٧ — ٦٨ هـ) .

والجدير بالذكر أن البيزنطيين قد حاولوا فى عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى أن يستردوا مصر من العرب ، فوصل إلى الإسكندرية سنة ٢٥ هجرية (٦٤٥ م) أسطول بيزنطى استطاع استرداد المدينة ، وتوغلت الجيوش البيزنطية فى الوجه البحرى . وحين لم يستطع عبد الله بن سعد بن أبى السرح — الذى عينه عثمان بن عفان واليا على مصر بدلا من

عمرو بن العاص — أن يوقف تقدم البيزنطيين ، أرسل الخليفة بعمرو مرة أخرى . وأسرع عمرو ليلتقى بالبيزنطيين عند بلدة نقيوس القديمة (قرب مدينة منوف الحالية) ، ودارت معركة رهيبة كانت الهزيمة فيها من نصيب البيزنطيين .

وبهذه المعركة دخلت مصر مرحلة جديدة من تاريخها الطويل ، فقد تخلت عن تبعيتها للدولة البيزنطية إلى الأبد وانضوت تحت راية الإسلام . وبدأت التفاعلات الحضارية تجرى فى مسارها الطبيعى على أرض الكنانة حتى عبرت مصر عن نفسها كقوة أساسية فى العالم الإسلامى ، ولم تلبث أن تزعمت العالم الإسلامى فى مواجهة قوى الصليبيين والمغول ، وأخذت على عاتقها مهمة الدفاع عنه طوال فترة كبيرة من تاريخه .

والواقع أن الفتح الإسلامى لمصر كان مجال كثير من البحوث والدراسات الأثرية والتاريخية من جهة ، كما كان إلهاما لبعض الأعمال الفنية من جهة أخرى . ويهمنا فى هذا المجال أن نشير إلى أن جورجى زيدان قد نسج مادة روايته « أرمانوسة المصرية » من خيوط أحداث الفتح ، والفترة التى أعقبته بأسلوبه الروائى المعروف ، وليس أدل على ذلك من أنه فى رواية « عذراء قريش » اخترع قصة حب أقحم فيها شخصية جليلة هى شخصية محمد بن أبى بكر المجاهد الذى استشهد فيما بعد وهو يدافع عن الحق ضد بنى أمية . ومن الطبيعى أن تكون للفنان حريته فى أن يحلق بخياله فى رحاب الحدث التاريخى ، بيد أن هذه الحرية ليست حرية مطلقة بأى حال من الأحوال ، فليس للفنان أن يشوه الحادث التاريخى أو يزوره ، كما أنه لا ينبغى أن يمسخ الشخوص التاريخية . والأهم من ذلك أنه يجب أن يكون على دراية كافية بالعصر الذى اختاره مسرحا زمنيا لعمله الفنى بحيث يقدم لقارئه صورة تنبض بالحياة عن ذلك العصر . وفى تصورنا أن رواية « أرمانوسة المصرية » تفتقر إلى أهم مقوماتها كرواية تاريخية ، وهى السمة التاريخية . فقد تخلى

زيدان كثيراً عن الحقيقة التاريخية التي وضع نفسه رهن أغلالها حين اختار لنفسه مجال الرواية التاريخية .

وليست هذه محاولة نقدية ، بأى معيار ، لرواية جورجي زيدان — فلست أدعي لنفسي في هذا المجال مكانة أو فضلا — وإنما هي محاولة لتنبيه القارىء إلى الحدث التاريخي كما صورته المصادر التاريخية تاركين للدراسة النقدية في الصفحات التالية مهمة التحليل النقدى للرواية . وهى أيضاً محاولة لرسم صورة تاريخية حقيقية بقدر الإمكان لأحداث فتح مصر .

ولكى تكون الصورة أقرب إلى الكمال ، فإننا نسوق فيما يلى نصا مقتبسا من كتاب « فتوح مصر وأخبارها » للمؤرخ المصرى « عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم » — (١٨٧ — ٢٥٧ هـ) الذى يمثل الثقافة المصرية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . والحقيقة أن القرن الثالث الهجرى يمثل فترة هامة فى تاريخ الحضارة الإسلامية بوجه عام ، وتاريخ الثقافة المصرية الإسلامية على نحو خاص : إذ أن حركة الترجمة الواسعة النطاق لأمهات الكتب والمصادر فى التراث اليونانى — اللاتينى والعبرى والسوريانى والفارسى وغيره كانت قد بدأت تؤتى ثمارها . وبدأ المسلمون مرحلة التأليف والتصنيف فى شتى مجالات العلم والمعرفة . وظهرت المدارس الفكرية فى أنحاء العالم الإسلامى ، حيث أخذ المسلمون من غير العرب يحاولون التوفيق بين موروثاتهم الحضارية وما جاء به الإسلام .

وكان طبيعياً أن يكون للتدوين التاريخى نصيبه من هذا التقدم والإزدهار فقد شهد القرن الثالث مولد كثير من المدونات والحوليات التاريخية الكبرى فضلا عن هذا الكم الهائل من المعلومات التاريخية التى كان الرواة ما يزالون يتداولونها بالرواية الشفوية .

وبالنسبة لتاريخ الثقافة المصرية الإسلامية يمثل القرن الثالث الهجرى نقطة تحول هامة نظراً لنضج الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية

لمصر الإسلامية . فقد كان المسلمون قد صاروا أغلبية بين سكان البلاد . وأخذت مصر تعبر عن شخصيتها المستقلة فى الإطار الإسلامى . وكان المؤرخ عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر أهم الملامح المعبرة عن هذه الحقيقة . فكتاب ابن عبد الحكم هو أول تاريخ محلى مكتوب لبلد من البلدان الإسلامية ، على ما نعلم . كما أنه من ناحية أخرى أقدم المصادر التى وصلتنا عن هذه الفترة .

وهذا هو السبب الذى جعلنا نقتبس النص التاريخى التالى من « فتوح مصر » .

يتناول هذا النص جانبا من أحداث الفتح الإسلامى لمصر ، فهو يروى قصة القتال والحصار الذى فرضه المسلمون على حصن بابليون حيث كانت الحامية البيزنطية تحت قيادة المقوقس — حاكم مصر من قبل بيزنطة والزعيم الديني للمسيحيين الملكانيين — معتصمة بهذا الحصن ثم يوضح النص كيف كان المسلمون على إصرارهم رغم الظروف الصعبة المحيطة بهم : من قلة العدد وحصار مياه الفيضان لهم ، وهروب المقوقس وكبار القادة البيزنطيين ومن لاذ بهم من القبط ، ثم يتناول النص المفاوضات التى دارت بين المسلمين والمقوقس وأسباب تعثرها ثم دوافع استئنافها حتى تم تسليم حصن بابليون وفقا لمعاهدة أوجز لنا ابن عبد الحكم أهم شروطها (١) .

وإذ كانت أحداث الفتح الإسلامى لمصر هى محور هذا النص : فيجب أن نلاحظ أن المؤرخ استخدم أسلوب الحوار بين أبطال الحادثة التاريخية فى عرضه لوقائع الفتح وسقوط حصن بابليون وهو ما يعكس فى وضوح تأثير ذلك النوع من القصص التاريخى الذى كان شائعا بمصر آنذاك على

---

(١) أنظر تفاصيل المفاوضات والاتفاق فى : البلاذرى ، فتوح البلدان (ص ١١٤ ، ص ٢٥٥) وانظر النص الكامل للمعاهدات بين القبط وعمرو بن العاص فى الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

أيدى الأخباريين والرواة الذين كانوا يعقدون مجالسهم فى المساجد والمحافل ، ولمـا كانت الرواية شفوية كان لابد من عنصر الإثارة والتشويق لجذب انتباه السامعين ، ومن الواضح أن ابن عبد الحكم قد اعتمد على جانب كبير من هذه الروايات الشفوية التى تروى وقائع الفتح وأحداثه ومن ثم كان طبيعيا أن يتأثر كتابه – لاسيما فى القسم الذى يعالج أحداث الفتح – بأسلوب القصص التاريخى الذى تغلب عليه سمة الأدب أكثر من خاصية التاريخ .

النص (١) :

« ... حدثنـا عثمان بن صالح ، أخبرنا خالد بن نجيح عن يحيى ابن أيوب وخالد بن حميد قالا : حدثنا خالد بن يزيد عن جماعة من التابعين ، بعضهم يزيد على بعض ، أن المسلمين لمـا حاصروا بابليون وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤساؤهم وعليهم المقوقس (٢) فقاتلوهم بها شهرا » .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٥ ، ص ١٠٤ . (لجنة البيان العربى – ١٩٦١) .

(٢) اسمه سيرس وهو رجل بيزنطى الأصل عينه الإمبراطور هرقل لحكم مصر ، وكان المقوقس يجمع بين السلطة السياسية وزعامة الطائفة الملكانية – أى المسيحيين من غير الأقباط اليعاقبة . ، وكانت ولاية المقوقس على مصر قمة التطورات التى شهدتها مصر بسبب السياسة الدينية للاباطرة البيزنطيين ، والتى عانت منها الولايات الشرقية التى آمنت بمذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتين) . القائل بأن السيد المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية . وبسبب الاضطهادات التى وقعت على أنصار هذا المذهب فى مصر وسوريا تحولت جماهير المصريين والسوريين عن القسطنطينية ، ولم يهتموا بمقاومة المسلمين الذين تسامحوا تجاه معتقداتهم الدينية . أنظر :

Norman F. Cantor, Medieval History. 2nd ed. New York 1969) pp : 144 – 142

ومن الثابت أن المسلمين بقيادة عمرو بن العاص لم يتعرضوا بشىء من القيود على الحرية الدينية للمصريين ، بل أن عمرا بن العاص لقى مساعدة من الأقباط الذى أقاموا الجسور والأسواق للفاتحين ، وبعد انتصار المسلمين استقدم عمرو بن العاص بنيامين بطريرك الاقباط الذى كان هاربا فى مغاور وكهوف الصحراء من الإضطهاد البيزنطى وأمنه ، فأخذ ذلك البطريرك فى العمل=

« فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص ، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم ، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ، وخرجوا من باب القصر القبلى ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة ، موضع الصناعة اليوم (١) ، وأمروا بقطع الجسر ، وذلك فى جرى النيل » .

« وزعم بعض مشائخ أهل مصر أن الاعيرج كان تخلف فى الحصن بعد المقوقس ، فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف ، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة » .

« ثم رجع إلى حديث يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال : فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص ، أنتم قوم قد ولجتم فى بلادنا والححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلباتكم ورجائكم ، فابعث إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى به نحن وهم من شئ » .

ـدون كلل على تدعيم الكنيسة القبطية ، وإعادة بناء ما هدم من كنائس الأقباط التى هدمها البيزنطيون ، كما أرسل مطرانا جديدا إلى الحبشة ، وكانت آخر أعماله بناء كنيسة جديدة كرست للقديس مكاريوس فى وادى النطرون .

انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ص ٥٨ ، ص ٥٩ ، ص ٧٣ ، ٧٤ (طبعة ليدن) ، تاريخ ابن البطريق : ص ٢١ .

Butcher, The story of the church of Egypt. p. 383.

(١) هى جزيرة الروضة ، ويقصد بهذه العبارة أنها كانت فى أيام ابن عبد الحكم مكان ترسانة صناعة السفن .

« فلما أتت عمر بن العاص رسل المقوقس حبسهم منذ يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل . ويحبسونهم ، ويستحلون ذلك في دينهم ؟ » .

« وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين » .

« فرد عليهم عمرو مع رسله ، أنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، أما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وأما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

« فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال لهم : كيف رأيتموهم » ؟

« قالوا : رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليه من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم وأجيرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم » .

« فقال عند ذلك المقوقس : والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض ، وقووا على الخروج من موضعهم » .

« فرد إليهم المقوقس رسله ، وأن أبعثوا إلينا رسلا منكم ، نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم » .

« فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر ، أحدهم عبادة بن الصامت »(١) .

(١) هو عبادة بن الصامت بن قيس . . . الأنصاري الخزرجي وكنيته أبو الوليد (٣٨ ق هـ - ٣٤ هـ) شهد غزوة بدر وجميع ما تلاها من غزوات وكان من النقباء الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين وكان من سادات الصحابة (انظر : ابن حجر الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ٤ ، ص ٢٧ مطبعة الشرفية ١٩٠٨) .

« حدثنا سعيد بن عفير قال : أدرك الإسلام من العرب عشرة نفر ، طول كل منهم عشرة أشبار ، عبادة بن الصامت أحدهم » .

« ثم رجع إلى حديث عثمان قال : وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث خصال ، فإن أمير المؤمنين قد تقدم إلى فى ذلك ، وأمرنى ألا أقبل شيئا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال . وكان عبادة بن الصامت أسود » .

« فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ، ودخلوا عليه تقدم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده ، فقال ، نحوا عنى هـذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى » .

« فقالوا جميعا : أن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه . وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا بألا نخالف رأيه وقوله » .

« قال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم » .

« قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا » .

« فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود ، وكلمنى برفق ، فإنى أهاب سوادك وأن اشتد كلامك على أزددت لذلك هيبة » .

« فتقدم إليه عبادة فقال : سمعت مقالتك ، وأن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى ، وأنا قد وليت وأدبر شبابى ، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، وذلك أنا إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا

عدونا ممن حارب الله لرغبة دنيا ولا طلبا للاستكثار منها ، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعته لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله ، واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا : وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا ألا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه وجهاد عدوه » .

« فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وأن قوله لأهيب عندى من منظره ، ان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها » .

« ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم فى الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم ، وقلة ما بأيديكم ، ونحن نطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به » .

« فقال عبادة بن الصامت : ياهذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وإنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ما قلتم حقا ، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم ، وأشد لحرصنا عليه ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه ، إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وأنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين ، أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا أن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة أن ظفرتم بنا ، وأنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا . والله عز وجل قال لنا فى كتابه «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين»(١) وما منا إلا و يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أهله وولده ، و ليس لأحد منا هم فيما خلفه . وقد أستودع كل وأحد منا ربه أهله وولده ، وأنما همنا ما أمامنا » .

« وأما قولك أنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن فى أوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا أكثر مما نحن عليه ، فانظر الذى تريد ، فبينه لنا ، فليس بيننا و بينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها الا خصلة من ثلاث ، فأختر أيها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا ، أما اجبتم إلى الاسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره وهو دين انبيائه ورسله وملائكته ، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ؛ فإن فعل كان له مالنا وعليه ما علينا ، أخانا فى دين الله . فإن قابلت ذلك أنت واصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم ، فإن أبيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون ، نعاملكم على شيء نرضى به نحن

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم ، وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم ، هذا ديننا الذى ندين الله به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظر لأنفسكم» .

« فقال له المقوقس : هذا مالا يكون أبدا . ما تريدون إلا أن تتخذونا لكم عبيدا ما كانت الدنيا ، فقال له عباده بن الصامت : هو ذلك فاختر ما شئت . فقال له المقوقس : أفلا تجيبوننا الى خصلة غير هذه الثلاث خصال ؟ ، فرفع عبادة يديه فقال : لاورب هذه السماء ورب هذه الأرض ، ورب كل شىء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، اختاروا لأنفسكم » .

« فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه فقال : قد فرغ القوم فما ترون ؟ فقالوا : أو يرضى أحد بهذا الذل ، أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا مالا يكون أبدا ، أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين غيره لانعرفه ، وأما أرادوا أن يسبونا ويجعلون عبيداً فالموت أيسر من ذلك ، لو رضوا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا . فقال المقوقس لعبادة : قد أبى القوم فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه وانصرفوا » .

« فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم طاقة ، ولئن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين . فقالوا : وأى خصلة نجيبهم إليها ؟ فقال : إذا أخبركم ، أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابد من الثالثة » .

« قالوا أفنكون لهم عبيداً أبداً ؟ قال : نعم ، تكونون عبيداً مسلطين فى بلادكم ، آمنين على انفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن

تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا ، انتم وأهلوكم وذراريكم . قالوا : فالموت أهون علينا » .

« وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط . وبالجزيرة والقصر من جمع القبط والروم جمع كثير . فألح عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من فى القصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم ، فقتل منهم خلق كثير ، وأسر من أسر ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة ، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى . والمقوقس يقول لأصحابه : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ؟ وما ينتظرون ؟ فوالله لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرها ، فأطيعونى من قبل أن تندموا » .

« فلما رأوا منهم ما رأوا ، وقال لهم المقوقس ما قال أذعنوا بالجزية ، ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه ، وأرسل المقوقس إلى عمرو ابن العاص : إنى لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت بها إلى ؛ فأبى ذلك على من حضرنى من الروم والقبط ، فلم يكن لى أن إفتأت عليهم فى أموالهم . وقد عرفوا نصحى لهم وحبى صلاحهم ورجعوا إلى قولى فأعطنى أمانا اجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ، وأنت فى نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعا ، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه » .

« فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك فقالوا : لا نجيبهم إلى شىء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئا وغنيمة ، كما صار لنا القصر وما فيه . فقال عمرو : قد علمتم ما عهد إلى أمير المؤمنين فى عهده ، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد إلى فيها أجبتم إليها ، وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » .

« فأجتمعوا على عهد بينهم ، واصطلحوا على أن يفرض من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا النساء شيء ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم . وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم فى شيء منها (١) » .

(١) رغم اختلاف الآراء حول فتح مصر أكان صلحاً أم عنوة (ابن عبد الحكم : فتوح مصر :-ص ١٢٣ ، ص ١٣٢ » . فالواقع أن المصريين عوملوا على أساس أن بلادهم فتحت صلحا بما فى ذلك الإسكندرية التى استردها البيزنطيون بحملة بحرية فنقضوا الصلح الذى تم الفتح الأول لها بمقتضاه ، وكان ذاك بتوجيه من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب (البلاذرى : فتوح البلدان : ص ٢١٦ ، ص ٢٢٠ ، ورغم أن رواية ابن عبد الحكم هنا تجمل شروط الصلح فقد أوردها الطبرى (تاريخ الأمم والملوك : ج ٤ ص ٢٢٩) بنصها الكامل .

ثانيا : آرمانوسة المصرية

جورجى زيدان

الرؤية . . والبناء الفنى

١ ـ الرؤية :

فى تناولنا للآثار الروائية التى استلهمت أحداث الفتح الإسلامى لمصر ، نجد كاتباً رائداً قدم عطاء روائياً صور من خلاله تاريخ الإسلام . هذا الكاتب هو « جورجى زيدان » . ويهمنا هنا فى هذا المقام أن نقف أمام عمل واحد من آثاره الروائية إستمد مادته من وقائع الفتح الإسلامى لمصر . وهذا العمل الروائى هو رواية « أرمانوسة المصرية » وقد أشار فى مقدمة روايته « الحجاج بن يوسف » إلى تصوره لمهمة الرواية التاريخية بقوله : « . . . وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته ، والإستزادة منه ، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لاهى عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج ، ومنهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة . فجره ذلك التساهل فى سرد الحوادث ـ التاريخية بما يضل القراء . وأما نحن فالعمدة فى روايتنا على التاريخ ، وإنما نأتى بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين فنبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج فى خلالها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها ، فيصبح الاعتماد على ما يجىء فى هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص إلا ما تقتضيه من التوسع فى الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة بل هو يزيدها بيانا ووضوحا بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق (١) .

---

(١) الرواية (المقدمة) ، الهلال ١٩٠٢ « ملحقة بالهلال » .

وتكشف هذه المقدمة عن رؤية «جورجي زيدان» للرواية بوصفها فناً وللتاريخ بوصفه علما . بقول آخر إنها تشير إلى موقع الرواية بين الفن والتاريخ. والمقدمة تشف عن وضع «جورجي زيدان» التاريخ فى المرتبة الأولى ثم يأتى دور الرواية لكنها تثير تساؤلات : هل يتعامل الروائى مع أحداث التاريخ بوصفها مادة روائية وبالتالى تكون الرواية عملاً فنياً أدبياً يقاس بمعايير فنية سواء بالنسبة للأشخاص أم الحوادث خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن التاريخ ما هو — بدرجة ما — إلا «حاضر» مضى . ويترتب على هذه الفكرة أن المادة الروائية من أشخاص لهم وجود تاريخى ، وأحداث تاريخية — وهى التى يستمد منها تشكيله للرواية — لا تختلف جوهريا عن المادة المعاصرة . مع الوعى بدلالة اختلاف الموقف الخاص وراء تغير الزمن ، والأشخاص والأحداث .

يبقى بعد هذا رؤية الروائى للشخصيات وفعلها فى الأحداث وانفعالها بها ، وتفاعلها معها . ومن أى زاوية ينظر فى «تكييفه» لها ؟ وما دور عنصر «الاختيار» الذى يكمن وراء إختيار الروائى لأخبار بذاتها لتصويرها وإلى أى مدى يتأثر تصويره للشخصيات التاريخية بتقويمه لدورهم وانعكاس ذلك على بناء الرواية ؟ هذه كلها قضايا تتصل فى صلب موضوعها بالأداة كما هو آت . لكن نشير هنا إلى أن رؤية الروائى للتاريخ و«وعيه بالتاريخ» إنما يحددان طريقة تصويره لأحداث التاريخ وموقفه من الشخصيات التاريخية . خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن انتهاء تلك العصور يتيح له إمكانية تصوير الشخصيات والأحداث وبث موقفه خلال نسيجه الروائى وهو بمأمن من بطش السلطة هذا مع القيام بإسقاطات تاريخية تشى بإضفاء مضمون معاصر . والروائى بهذا يصور موقفه ببعدين : بعد ينسحب على

= • ظهرت مسلسلة فى الهلال ابتداء من أول سبتمبر ١٨٩٥ ، ثم جمعها فى صدر عن مجلة الهلال ١٨٩٦ • والطبعة التى اعتمدت عليها صدرت عن دار الهلال بدون تاريخ .

موقفه من أحداث التاريخ ثم موقفه من أحـــداث الحاضر . فما هي رؤية « زيدان » للتاريخ ؟ وكيف امتدت هذه الرؤية لتؤثر في الأداة أو البناء الفني ؟ .

إن استقراء الآراء النقدية المعاصرة لجورجي زيدان تساعد على التعرف على رؤية « جورجي زيدان » للتاريخ وتأثير هذه الرؤية في البناء الفني للرواية . فقد تحفظ « رفيق العظم » على منهج « جورجي زيدان » في اتخاذه الرواية قالبا يبث فيه المعرفة أو الحقائق التاريخية (١) . وقد رد عليه « جورجي زيدان » معتمداً على أن المهمة التي انتدب « الهلال » نفسه للقيام بها ، هي تعميم العلم بين الناس على إختلاف مداركهم وتفاوت معارفهم ، على نحو ما سبق أن أشار في فاتحة كلمة الهلال (٢) .

و « جورجي زيدان » يصدر في رؤيته للتاريخ عن حس تعليمي . فهو يرى أن الناس قلما يميلون إلى مطالعة التاريخ مجردا عن الفكاهة (٣) وإن كان هذا « الرأي يشي باهتزاز رؤية « جورجي زيدان » وتذبذبها فمن المسلم به أن الهدف التعليمي الذي يصدر عنه يطالبه بأن يقوم بتبسيط الأحداث ، وتصوير الشخصيات الإسلامية في إطار عصرها . والفارق كبير بين « التبسيط » و « التلفيق » .

على أنه وإن اعترف إن هذا الأسلوب يحدث التباسا لدى القراء لعدم قدرة معظمهم على التمييز بين الحقيقة والمجاز إلا أنه أكد على ضرورة هذه

---

(١) أنظر الهلال ، ١٥ مايو ١٨٩٩ ، ص ٤٨٩ . والنص الكامل لرسالة « رفيق العظم » منشور بملحق هذا الكتاب .

(٢) الهلال ، أول سبتمبر ١٨٩٢ ، ص ١ .

(٣) الهلال ، ١٥ مايو ١٨٩٩ ، ص ٤٩٢ .

* والفكاهة هنا لا يقصد بها الضحك ، وإنما هي تعبير عن وظيفة جمالية تربط العمل الفني بالمتعة أو اللذة .

الطريقة في كتابة التاريخ – أو بتعبير أدق – في تعليم التاريخ . ومع ذلك فقد كان لوليا في أسلوبه . ففي الوقت الذي يؤكد على الجانب التعليمي نراه يقول : « . . . إننا لا نريد بالرواية التاريخية أن تكون حجة ثقـة يرجع إليها في تحقيق الحوادث وتمحيص الحقائق ولكننا نريد أنها تمثل التاريخ تمثيلا إجماليا بما بتخلله من أحوال الهيئة الاجتماعية على أسلوب لا يستطيعه التاريخ المجرد إذا صبر الناس على مطالعته . . فإذا جـردت روايتنا من عبارات الحب ونحوه كانت تاريخا مدققا يصح الاعتماد عليه والوثوق به والرجوع إليه وإن كنا لانتطلب الثقة بها إلى هذا الحد(١) » . ولعلنا قد لمسنا ما في موقفه من زئبقية لا تستقيم مع نظرته إلى رواياته بوصفها مصـدراً تاريخيا بدليل ما نشر عن تاريخ « المماليك » في مجلته « الهـلال » إذ ختم المقال بالحديث عن مذبحة القلعة جاء فيه « . . وكان ذلك آخر عهد الناس بالمماليك وهكذا كان انقضاء أمرهم وإذا أردت زيادة التفصيل راجع روايتنا « المملوك الشارد » .

والقارىء للمقدمات النقدية لروايات « جورجي زيدان » يقف أمام رؤية « جورجي زيدان » للشخصية التاريخية . ولقد كانت المادة التاريخية التي استخلصها في تشكيله الروائي: الشخصيات والأحداث والزمان والمكان هدفا لسهام النقد التي وجهت إليه . إذ خامر هؤلاء النقاد الشك حول موقف « زيدان » من التاريخ الإسلامي خاصة وأن المادة التاريخية التي أعتمد عليها في رواياته كانت مستمدة من تاريخ الإسلام .

ولعل هذا العامل الديني كان الدافع الرئيسي وراء سهام النقد التي وجهت إلى مضمون رواياته . وقد أثمر ذلك عن لون متميز من النقد الأدبي التاريخي إنصب أساسا على النص ، بمعنى أن التقويم النقدي تناول المادة التاريخية ، ولم يمس الرواية من حيث عناصرها الفنية اللهم إلا ما دار حول « الشخصية

---

(١) الهلال ، ١٥ مايو ١٨٩٩ ، ص ٤٩٢

التاريخية » وما أثارت من قضايا تتصل بالبطل التاريخي في الأعمال الأدبية ومن جانب آخر فإن هذا النقد يثير تساؤلات ترتبط بالمادة الروائية وهل كان « جورجي زيدان » يستمد مصادرها من التاريخ أم الأسطورة ؟! فذلك يساعد في تصحيح المسار النقدي لرؤية هؤلاء النقاد .

وقد حرص الناقد المعاصر لجورجي زيدان على أن يتحقق من التزامه بأمانة التاريخ . ولم يحفل كثيرا بالعناصر الفنية للعمل الروائي . ومعلوم لدى مؤرخي الرواية ونقادها أن الرواية التاريخية عندما تعرض في نسيج تشكيلها خبراً لأحداث وقعت بالفعل ، فإن هذا الخبر يكتسب بوجوده في البناء الروائي بعداً فنيا يختلف عن المعنى الذي يشير إليه هو ذاته بين سياق كتاب في التاريخ. فالشخصية في العمل الروائي عبارة عن لبنات من العبارات التي تصور أبعادها أو تنقل وجهة نظر المؤلف على لسانها . ومن هنا فالشخصية في الرواية تغاير مدلول الشخصية التاريخية أو الشخصية التي تسعى في الحياة (٢) . وقد تحكم في موقف « زيدان » من التاريخ نظرة مسطحة ، ضحلة ، فرضت — من ثم — تأثيراتها على البناء الروائي من حيث تصوير الشخصية ومدى تفاعلها مع الأحداث ، واللغة الروائية. على نحو ما سنرى عندما نقف أمام « الأداة » أو « البناء الروائي » لرواية « أرمانوسة المصرية » بعبارة أخرى تعرضت الصنعة القصصية إلى آفة التلفيق .

والنقاد المعاصرون في مراجعتهم النقدية لآثاره الروائية يرون أن الهدف التعليمي تحكم في نظرته للموضوع الروائي وللعناصر الفنية . فثمة خط مواز

---

(١) حول أبعاد المعركة النقدية التي أثارها (أحمد حافظ عوض) وردود (جورجي زيدان) أنظر عذراء قريش ، المؤيد ، ١٣ أبريل ١٨٩٩ ، ص ١ عمود ٤ والموسوعات وعذراء قريش ، الهلال ١٠ مايو ١٨٩٩ ص ٤٦٣ و(الهلال والتاريخ والموسوعات ، ١١ مايو ١٨٩٩ ، ص ٢٠

(٢) see , wellek, René , warren, Austin, The theory of Literature (Great Britian: Rissued in penguin University Books (1973) , p 25 .

بين الحدث التاريخى والعلاقة الغرامية . فما ينتهى « زيدان » من عـرض الأحداث التاريخية حتى يضع نهاية للحكاية الغرامية . أضف إلى ذلك أن نزعته نحو التعليم كانت من العوامل التى حددت من رؤيته وحالت دون تدفق الحدث وتسلسله ، فكثيراً ما كان يستطرد إلى بث معلوماته ونصائحه مما يشوه العمل الفنى لانحرافه نحو الهدف التعليمى المباشر .

والمتأمل فى الخلفية التاريخية(١) لملامح العصر ، وللدور الشخصيات التاريخية يدرك مدى افتئات (جورجى زيدان) على الحقيقة التاريخية من جانب وطمسه للجوانب المضيئة فى الشخصية التاريخية من جانب آخر ، كما هو آت عندما ننظر فى تأثير امتدادات رؤيته للتاريخ وتحكمها فى الأداة أو البناء الفنى .

٢ ـ البناء الفنى :

فى محاولة للتعرف على التقاليد الفنية التى كان (جورجى زيدان) يصدر عنها فى بناء رواياته ، ومنها (أرمانوسة المصرية) أقف أمام دعامة رئيسية من دعامات البناء الروائى ، أعنى كيف كان يصور بقلمه ، ومن خـلال الكلمات (الشخصية الروائية) . ولنتفق على أن الشخصية الروائية (تاريخية كانت أم معاصرة) ليست هى الشخصية التى تسعى فى الحياة . كما أنها ليست الشخصية ذات الوجود التاريخى بلحمها ودمها . وإنما هى خلق جديد يضيف إليها الفنان من ذاته ، ورؤيته لها ، مايبرر مواقفها وسلوكها . وتتيح لنا أن نتعرف على أنفسنا من خلالها .

وطبيعى أن الوقوف بالتحليل النقدى أمام الشخصية التاريخية فى العمل الروائى يثير قضايا نقدية تكشف عن أصالة الروائى وموقفه من هذه

---

(١) انظر الخلفية التاريخية لرواية « أرمانوسة المصرية » للدكتور قاسم عبده قاسم ص٣٥ من هذا الكتاب .

الشخصية ، ووعيه بأحداث العصر السياسية والاجتماعية . وبتعبير مكثف ، بمدى وعيه بإيقاع العصر ونبضه أو ماندعوه (الوعى التاريخى) .

وهذه الزواية من الرؤية ، أعنى التى تستلهم مادتها من أحداث التاريخ وشخصياته ، تتطلب من الروائى قدرة على التخيل ، والانفعال بالموضوع والإحساس العميق بعصر مضى إتسم بذوق مغاير لذوقنا .

وسأقف أمام شخصيتين تاريخيتين فى رواية (أرمانوسة المصرية) وهما شخصية (عمرو بن العاص –وعبادة بن الصامت) . هاتان الشخصيتان تمثلان الدعوة الإسلامية فى قمة مدها وعنفوانها . وترمزان إلى فكرة نبيلة حرص الإسلام أن يبثها فى أفئدة معتنقيه ، أعنى فكرة الجهاد . والواقع أن هذه الفكرة هى التى تعطى للعمل الروائى (أرمانوسة المصرية) معنى . وإن كنت فى ريب من وعى (جورجى زيدان)بها وإلا لحرص على تجسيدها . لكن القراءة الباطنة للعمل الروائى (أرمانوسة المصرية) تسمح للناقد – إستنادا إلى وقائع أو أحداث الرواية المستمدة من أخبار الفتح . وفى ضوء الإضاءة التاريخية لظروف العصر – بالتنبؤ بما يكمن وراء ظاهر الحوار . فالنص الروائى يشف عن فكرة الجهاد ولا يجسدها فى مواقف حية على نحو مانرى فى التراث الروائى اللاحق فى (وأسلاماه) لعلى أحمد باكثير ، و (اليوم الموعود) لنجيب كيلانى ، و (شجر الدر) و (على باب زويله) لمحمد سعيد العريان . فهذه الآثار الروائية حرصت – على تفاوت بينهما – أن تربط الحدث التاريخى(١)بقيمة لصيقة بالإسلام . وما هكذا فعل (زيدان) .

إن استقراء النص التاريخى عن الفتح الإسلامى لمصر ، يثير فى ذهن القارئ المتذوق للرواية تداعيات تكشف عما اعتور خيال الروائى من ضيق إذ ينقل عن المقريزى وصفه لشخصية (عمرو بن العاص) مكتفيا بهذه الشذرة

---

(١) راجع تحليل د. قاسم عبده قاسم للنص التاريخى المقتبس من ابن عبد الحكم ، ص١٥ من هذا الكتاب .

من المعلومات . فيقول عنه « قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقبان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة » (١) ويفعل الشيء ذاته فى تصويره لشخصية « عبادة ابن الصامت » إذ ينقل ما جاء به المقريزى فى وصفه لشخصية ابن الصامت مغفلا ابن عبد الحكم »(٢) .

وضمور الحس التاريخي عند « زيدان » جعله يغفل عن « استحضار » أحداث العصر بكل ما تمور به من ملابسات اجتماعية واقتصادية وسياسية وتطعيمها فى نسيج البناء الروائى وتوظيفها لخدمة هذا البناء وإغفال ما يكمن وراء الأحداث من مغزى إنسانى يعد تجاهلا لواقع هذه الأحداث كما يكشف عن قصور فى تصور « جورجى زيدان » عن طبيعة العمل الروائى الذى

---

(١) رواية أرمانوسة المصرية ، ص ١٣٥ .

وعسير على القارىء أن يخرج بانطباع واضح عن هوية تلك الشخصية التاريخية كما بدت فى الرواية على العكس فقد ظهرت صورته باهتة ، شاحبة . تأمل ملامح تلك الصورة الروائية التى رسمها « جورجى زيدان » لعمرو بن العاص فى الصفحات ١٥٤ ، ١٥٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ — ٢٠٥ ، ٣٦٠ ، ٣٨٦ وقس عليها صورة عبادة بن الصامت .

(٢) لم يكن «جورجى زيدان) يجيد التعامل مع المصادر التاريخية بما يتفق والموضوعات التى يتناولها بالتصوير الروائى . فهو فى رواية « أرمانوسة المصرية » يغفل مؤرخاً أقرب – زمنياً – إلى المرحلة التى تصور الرواية أحداثها . فهو يعتمد فى مكونات الصورة الروائية الأحداث القصصية episodes على « ابن خلدون »؛ فى مواضع ينبغى الاعتماد »على سواه من المؤرخين فى هذا الموضع بالذات . ليس طعناً فى مكانة ابن خلدون ولكن استثماراً لخاصية كل مؤرخ ومنهجه وطريقته فى تصوير الأحداث ونظرته للرجال ، كما يغض الطرف عما يتميز به مؤرخ من قدرة على العرض القصصى والوصف . على نحو ما تجاهل ابن عبد الحكم وقد أشار د. قاسم فى تحليله للنص التاريخى إلى أنه – ابن عبد الحكم – عالج أحداث الفتح بأسلوب القصص التاريخى « ولم يستثمر « زيدان » منهج ابن عبد الحكم هذا فى إطلاق خياله الخالق من خلال اعتماده على المادة التاريخية ، التى جاء بها « ابن عبد الحكم » ليضيف رؤاه إلى الواقع التاريخى الماثل . بمعنى أنه يتخذ من الواقع « الماثل » نقطة انطلاق يتسع فيها خياله ليستوعب « المثال » الذى يستلهم مادته من هذا الواقع . وقد أكد النقاد المعاصرون لجورجى زيدان هذه الملاحظة .

« راجع ما كتبه أترب أبو العز » فى مجلة « الموسوعات » الملحق .

يقوم فيه الوصف بتجسيد الإحساس بمشاكله الواقع من جانب ، وطبيعة الشخصية الروائية (التاريخية) من خلال الموقف الذى تعيشه من جانب آخر. والنقاد يلحون على ضرورة تصوير « الشخصية » وإبرازها من خلال مواقف حية تساعد على تألقها وتميزها عن غيرها . وقد أبدى « النقاد » ملاحظات — نقدية نافذة لآثار « شوقى » الروائية المسرحية . وتكمن أهمية هذه الملاحظات فضلا عن قيمتها بالنسبة للتراث النقدى — فى هذا الموضع أنها تكاد تنطبق على شخصيات « جورجى زيدان » . فقد أخذ « العقاد » على شوقى أن رواياته « قد خلت من الشخصيات » والتبست فيها ملامح الأبطال أيما التباس . مع أنها كلها أو بعضها تاريخية ليس فى تحضيرها وتصويرها فضل كبير بالقياس إلى فضل الإنشاء والإبداع . فإن الشاعر ليخلق الأشخاص خلقا فإذا هى كائنات حية تصدر عنها الأعمال والأقوال كما تصدر عن الأحياء الذين نعاشرهم ونعهد أعمالهم وأقوالهم بالتجربة والألفة الطويلة ، وقد سقطت من أجل هذا جميع شخصياته التمثيلية إلا ما أقامه منها التاريخ والغرام ، ونعنى بها المجنون وليلى وأنطونيو وكليو باترا ولو كان تصويره للشخوص مستمدة من خياله وحسه لا من السمعة التاريخية والغرامية لما أنفرد هؤلاء بالظهور والإقبال . وما كان لخفاء « الشخصيات » فى رواياته ومدائحه ومراثيه من علة غير خفاء الشخصية فى نفسه ، فهو لا يمتاز بحس حتى يدرك مزايا الحس وخوارقه فى غيره ، وأول ما ينجم عن ذلك أن يتماثل الناس عنده كما تتماثل الصور المنسوخة . لأنه لا ينفذ من العلم بنفوسها وملامح ضمائرها إلى ما وراء الظواهر والعناوين . وإذ كان الشاعر لا يحس « النفوس » إلا على شيوع وتشابه ومجاراة وهى تحيا وتوحى الحياة إلى من يقاربها فهل يبلغ به شأن أن يحس الأشياء التى لا حياة فيها إحساسا يدل على « ذوق » خالق وطبيعة مبتكرة واستحسان أو استهجان ينذان عن العرف الشائع بنوع أو بمقدار ؟ (١) والنقاد عندما يؤكدون أن الشخصية الروائية هى دعامة

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى القرن الماضى ، (الطبعة الثالثة ، القاهرة النهضة المصرية) ، ١٩٦٥ ، ص٦٦ الكاتب هنا يحاول أن يستثمر الأفكار النقدية للعقاد حول طبيعة الشخصية الروائية =

العمل الروائى فإنهم يؤكدون على أن مصادر الروائى فى تشكيله لها تتمثل فى دقة الملاحظة ، وحسن الترتيب وصدق الوصف لمراحل تطور الشخصية والإيحاء . وهذا ما افتقده « جورجى زيدان » فى رسمه للشخصية الروائية (التاريخية) . فالقارىء لرواية « أرمانوسة المصرية » ونكاد لانبالغ إذا قلنا لآثاره الروائية لا يتعاطف مع أى شخصية من شخصياتها لسبب واضح ، وهو أنها شخصيات غير محددة الملامح والسلوك أو وجهة النظر . ومعلوم أن الروائى « يرغب فى أن يجعل القارىء يتعرف فى ود على شخصياته ، وهى المخلوقات التى جادت بها قريحته فينبغى أن تتكلم وتتحرك وتحيا ، بوصفها مخلوقات إنسانية : ولا يتأتى لها ذلك إلا إذا توافرت له القدرة على تخيل وتصور أبعاد الشخصية ذاتها • وهو لا يستطيع أن يعرفهم إذا لم يكن بوسعه أن يحيا معهم ، فى واقعية كاملة مستندة إلى الألفة فيجب أن يكونوا معه عندما يرقد فى نومه ، وعندما يستيقظ من أحلامه ، ويجب عليه أن يعلم أن يكرههم وأن يحبهم ، وعليه أن يناقشهم ويعفو عنهم إلى درجة أن يرضخ لهم • ويجب أن يسبر غورهم سواء كانوا فاترين أم عاطفيين ، مزيفين أم أصلاء ، ومدى أصالتهم ، ومدى زيفهم • وينبغى أن يكون واضحا لديه عمق شخصياته وأبعادها وضحالتها وعندنا فى عالمنا الخارجى ، نعلم أن الرجال والنساء يتغيرون ، إما أن يصبحوا فضلاء أو أشرارا بفعل الإغراء أو الضمير الذى قد يرشدهم وينبغى أن يعى كل تغير يطرأ على شخصيته •

وفى نهاية آخر يوم من كل شهر يسجله يكبر كل شخص فى رواياته شهراً عما مضى . وإذا وهب الروائى هذه المقدرة فى هذا المجال فسيكون بين يديه دون كبير عناء شخصيات ذات أبعاد . أما إذا لم تأت فليس بوسعه أن يكتب سوى رواية جافة لا حياة فيها » (١) .

= وهو — من ثم — يوسع من نظرته لتشمل — ولو من بعيد — الرواية المسرحية . خاصة وأن الرواية تستوعب المواقف الإنسانية (الغنائية والملحمية) والدرامية) .

(1) Trollope, Anthony, views on the art of the novel, By Angale B. Samaan, The Anglo – Egyptian Bookshop, p. 98,99.

وبهذا المعيار لم نلمح لدى «جورجي زيدان» التعاطف مع شخصياته. وهو نفسه يكاد يبوح بتصوراته عن كيفية رسمه الشخصيات. وكيف أنه كان يقيم بناء رواياته دون تصميم يسبق تنفيذ العمل الفني. وإجاباته عن استفسارات القراء بشأن رواياته تكشف عن تصوره لطبيعة الصنعة الروائية كما فهمها. فقد ذكر أن ما ننشره من رواياتنا في الهلال إنما هو ابن يومه فلا نكتب من الرواية عند كل هلال إلا ما نحتاج إلى نشره في ذلك الهلال. لانفعل ذلك إلا اضطرارا لما تحتاج إليه الروايات التاريخية من المراجعة والتنقيب لتمحيص الحوادث التاريخية ومن غريب ما يتفق لنا من هذا القبيل أننا ننشر الفصل من الرواية ونحن على غير بينة من الفصل الثاني. أي أننا نصطنع حوادث كل فصل أو بضعة فصول في حينها ويبقى سائر القصة في عالم الغيب. فلو سئلنا أن نقص ما بقي منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، إلا إذا سئلنا عن غرض الرواية بوجه الإجمال. فلا نظن القارىء أكثر تشوقا إلى مطالعة الرواية منا إلى كتابتها فإننا نفرغ من كتابة الفصل ونحن نتشوق إلى كتابة ما يليه تطلعا إلى ما سيكون بعده. فنحن والقارىء في ذلك سواء» (١) ويؤكد «. . . فإننا نكتب الرواية ونحن نتتبعها بعواطفنا فنحزن تارة ونفرح أخرى ونغضب آونة ونرضى أخرى فلا نصف مجلسا أو واقعة إلا توهمنا أنفسنا شهوداً نرى ونسمع ونتأثر. وكنا نصف مرة نوعا شديداً منعنا من الكتابة(٢) هنا يكشف «جورجي زيدان» عن أسلوبه في التشكيل الجمالي لبناء الرواية. فهو لا يضع تصميماً أو إطاراً للرواية قبل أن يشرع في التفاصيل وإنما تتواكب أحداث الرواية مع «المساحة» المحددة لها في مجلته «الهلال» وهذه نقطة هامة لأنها تتفق مع مرحلة من مراحل تطور الرواية الإنجليزية

(١) عذراء قريش في عالم الغيب، الهلال، أول فبراير (شباط) ١٨٩٩ ص ٢٧٧

(٢) عذراء قريش وآراء القراء فيها، الهلال، أول أكتوبر ١٨٩٩، ص ١٨

كما لاحظ النقاد ذلك عند تشارلز ديكنز مثلا (١) .

وإذا كان تصور « جورجي زيدان » لعملية الخلق الروائي على هذا النحو فلنا أن نتوقع ميلاد شخصيات شائهة ، متهافتة . فهو لم يستبطن ما وراء حديث « عبادة بن الصامت » (٢) من حرارة الحوار ؛ وعمق اليقين ، وشفافية الرجل وتفانيه ، هو ومن معه ، إلى درجة التسامي على الواقع المادى الفانى ، إستشرافا لأمل يلوح فى الأفق تهفو الأفئدة أن تدنو منه لتحقق فكرة الجهاد فى سبيل الله ونشر الدين الإسلامى أو الاستشهاد .

والبناء الروائى فى رواية « أرمانوسة المصرية » لم يكشف عن تجسيد هذا هذا المعنى. وإنما أكتفى الروائى بشذرات لا رابط بينها إلا لمجرد كونها متصلة بالشخصية التاريخية دون محاولة التعرف على دورها فى مواقف حية ، وتخيل ما يمكن أن يقوم به الروائى فى تصويره للشخصية وبثها فى نسج البناء الروائى من خلال شخصيات الرواية . والنقاد يوضحون خطورة الدور الذى يقوم به الروائى فى تصويره للشخصية الروائية ويقول « العقاد » « إن كثيرا من قراء الأدب عندنا لا يفهمون وجه المعجزة فى جعل أناس كثيرين يتكلمون كما ينبغى لهم ويعملون كما ينبغى لهم أن يعملوا ويعرضون لنا فى المعرض الذى يلائمهم من الفكر والخليقة والسن والحالة النفسية والمقام ، فهؤلاء ، عليهم أن يذكروا المشقة التى يعالجونها حين يعن لهم أن يصفوا إنسانا يعرفونه ويعاشرونه ويسمعون كلامه فى كل موقف ويشهدون عمله فى كل مجال . إنهم يعالجون مشقة عظيمة فى استجماع المشارب والطباع . ثم فى نقل تلك المشارب والطباع إلى أوصاف فى اللغة تطابق الحقيقة وتدل على صاحبها أصدق دلالة . فإذا كان هذا مبلغ المشقة فى وصف من نشاهد ونعاشر فأشق منه جداً أن نصف من نتخيله أو نقرأ عنه أو نخلقه على غير مثال نراه ،

---

(١) See, Allot, Miriam, novclist on the novel, (London ; Routledge and Kegan paul 1958) p. 121.

(٢) راجع النص التاريخى ص ٢٦ من هذا الكتاب .

وأصعب من هذا وذاك أن نترقى من الوصف إلى « تركيب الشخص » وإرساله مرسل الأحياء حين يشعرون ويتكلمون ويعملون ، نعم ذلك أصعب جدا من مجرد تسمية الصفات وسرد عناوين الأخلاق والكفايات . فإنك قد تنظر إلى الرجل فتعرف مكره واحتياله ولكن المسافة لا تزال بعيدة بين هذه المعرفة وبين أن تبين لنا كيف يعمل الماكر المحتال فى كل حادث يتفق له وكل موقف يجمعه بسواه ، والمسافة لاتزال بعيدة أيضا بين تبين عمله فى الحوادث والمواقف وبين خلق تلك الحوادث والمواقف خلقا يناسب مجمل أحواله ومجمل أحوال المشتركين معه فى الرواية الواحدة»(١) . و « العقاد » فى حديثه هذا إنما يضع أيدينا على أبعاد عملية الإبداع الروائى . ذلك أن أن الروائى حين يبتدع الشخصية الروائية يستمد من خيـــاله الخالق Creative imagination ما يعنيه على لم هذا الشتات المبعثر من الأوصاف التى لا رابط بينها ، والأحداث المتباينة ، والمواقف التى قد تبدو للنظرة السريعة غير المدققة إنفصالها عن بقية الظواهر الاجتماعية ، يستمد الروائى من خياله الخالق ما يعطى هذه المادة الراوائية « معنى » ووحدة فنية تكسبها مضمونا يتغيا الروائى توصيله . وإذا كان استرجاع صورة لمن رأينا من وجوه تصافحنا صباح مساء يشكل درجة ما من الصعوبة ، فالمعضلة الفنية هى ابتكار الشخصية الروائية . . تركيب « الشخص » من خلال تحليل الدلالات الكامنة وراء جزئيات الأشياء من جانب والسلوك الإنسانى من جانب آخر . بقول آخر من خلال دراسة الطبيعة البشرية وتحليلها يقوم الروائى بعملية التركيب الفنى ، معتمداً على باصرة نافذة تدرك المفارقات بين بين الأشياء ، وتغير موقف الإنسان بتغير المواقف التى يوضع فيها ويواجهها ، وتغير واقعه النفسى والوجدانى . فهو مخلوق لا ينزل النهر مرتين . بمعنى أن تجربته البشرية تتميز بالتفرد والخصوصية . والروائى بهذا يؤكد — فنيا — على سمة أصيلة من سمات الإنسان وهى « الوعى » المستمد من عطاء التجربة

---

(١) ساعات بين الكتب ، (النهضة المصرية ، ١٩٢٩) ، ص ١٢٨ وراجع صفحتى ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

البشرية . وهو - الروائي - حين يفلح في تصوير أبعاد هذا الوعي إنما يؤكد أن الإنسان صانع تاريخه ، وأن هذا الوعي هو فجر الشخصية الإنسانية والشخصية الروائية في آن . ومن ثم ، فهو يجسد - في التحليل الأخير - رحلة الإنسان عبر المنحنى التاريخي وجهاده لتحقيق الذات ، وصراعه معها ، وجهاده مع الآخر ، فردا كان أو جماعة ، ومع الكون بعبارة واحدة : تصويره لمصيره وقدره . ومعتمدا من جانب آخر على بصيرة تهدى حسه الفني إلى جوهر التجربة البشرية . وحول هذه الأفكار المرتبطة بعملية الإبداع يقول « العقاد » : « وقد تعرف المئات من الناس كلهم يوصفون بالصدق والعلم والمودة والدماثة ، ولكنك تنظر إليهم إذا تأملتهم فتعلم أنهم « شخصيات » متعددة على اتفاقهم في أسماء الصفات والطباع ، بل تجد أن أحدهم قد يعمل في حالة من الحالات ما يأبى أن يعمله غيره ويقول في شيء من الأشياء مالا يقوله الآخرون . فالوصف إذن مشقة عظيمة ولكنه قدرة لا تذكر إلى جانب القدرة على تركيب الشخصيات والمواقف . والفرق بينهما كالفرق بين من يتفرج ويفهم ما يتفرج به وبين من يخلق الشيء الذى يفهمه الناظرون » (١) .

فالروائي ليست مهمته أن يدرس شخوصه درس العالم المتفقة ، بل عليه أن يخلق الشخوص ويحيا حياتها من الداخل ويجيئنا بها لنراها كما نرى الأحياء ونأخذ أخبارها من أقوالها وأفعالها . وما هكذا فعل « جورجي زيدان » سواء في « أرمانوسة المصرية » أو غيرها من آثاره الروائية .

---

(١) ساعات بين الكتب ، ص ٢٢٨ ، وانظر بين الكتب والناس (مطبعة مصر ١٩٥٢) ص ١٦٣ .

القسم الثاني

مصر فى مواجهة العدوان الصليبى

« انفروا خفافا وثقالا ، وجـاهدوا فى سبيل الله
بأمولكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »
(قرآن كريم)

حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة

أولا : الخلفية التاريخية لرواية اليوم الموعود

دور مصر فى مقاومة العدوان الصليبى — الحملة الصليبية السابعة ومشروع التحالف مع المغول ضد المسلمين — إعداد الحملة — الوصول إلى دمياط والاستيلاء عليها — بداية المقاومة المصرية ودور الشعب فيها — موت الصالح نجم الدين أيوب — معركة المنصورة — الهزيمة النهائية لويس التاسع وأسره — النص من كتاب السلوك للمقريزى

فى كليرمونت بجنوب فرنسا ، وفى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، دعا البابا أوربان الثانى إلى شن حرب مقدسة لتحرير « الإخوة » المسيحيين فى الشرق من السيطرة الإسلامية . وأياً كانت دوافع البابا إلى هذه الدعوة ، فالواقع أن الاستجابة السريعة التى لقيتها فى أوربا الغربية قد أدت إلى تلك السلسلة من الهجمات العسكرية العدوانية التى شنها الغرب اللاتينى على الشرق الإسلامى والمسيحى على حد سواء . هذه الهجمات التى اصطلح على تسميتها « بالحروب الصليبية » ، استمرت عشرات من السنين ، ولكنها فشلت فى أن تفرض الوجود الاستيطانى الصليبى على أرض الشام . وفيما بين مجمع كليرمونت الكنسى فى نوفمبر ١٠٩٥ ، وسقوط مدينة بيت المقدس بأيدى الصليبيين فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ ، دارت أحداث الحرب التى عرفت باسم « الحملة الصليبية الأولى » ، والتى انتهت بنجاح الغرب اللاتينى بإقامة دولة وعدة إمارات على تراب الأرض الإسلامية فى بلاد الشام .

ولكن فصول قصة العدوان الصليبى أبت إلا أن تتم على النحو الذى يفرضه منطق التاريخ ، وفشل العضو الصليبى الغريب فى الحياة داخل الجسد العربى ، وكانت نهايته المحتومة على رمال شاطىء بلاد الشام وبين طيات موجاته حين سقطت عكا ، آخر المعاقل الصليبية ، تحت سنابك خيول

المقاتلين الذى جردتهم مصر فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١ ، أى بعد حوالى قرنين من الزمان .

وفيما بين البداية والنهاية لعبت مصر دوراً رائداً فى الصراع ضد الصليبيين ، على الرغم من التحالف الذى عقده الفاطميون مع الصليبيين الأوائل فى ظل غيبة الوعى بالمصير المشترك لكل القوى العربية الإسلامية فى مصر وبلاد الشام وغيرهما .

والواقع أن الصليبيين قد أدركوا منذ البداية أهمية مصر فى حسم الصراع الصليبى العربى وأغراهم ضعف الخلافة الفاطمية بأن يحاولوا الاستيلاء عليها المرة تلو المرة . وكان جود فردى دى بوايون ، أول حكام بيت المقدس ، قد وضع مشروعاً للاستيلاء عليها ، ولكن الموت عاجله سنة ١١٠٠ قبل أن يحاول تنفيذه . وحين خلفه أخوه بلدوين ، حوّل الدولة الصليبية إلى مملكة صار هو أول ملوكها ، وبدأ يحاول تنفيذ خطته فوجه عدة ضربات إلى الدولة الفاطمية وانتزع منها بعض أملاكها فى وقت كانت الخلافة الفاطمية تحتضر وتنتظر غروب شمسها .

وحين بدأ عماد الدين زنكى يحاول توحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر الصليبى رأى الصليبيون أن الاستيلاء على مصر يمكن أن يؤمن وجودهم فى بلاد الشام من جهة ، وأن يسخر الموارد المصرية فى خدمة الأهداف الصليبية التوسعية من جهة ثانية .

وفى عهد نور الدين محمود استمر الصراع بين المسلمين والصليبيين حول مصر ، وهو الصراع الذى انتهى بسقوط الخلافة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية فى مصر بزعامة صلاح الدين . ومن المثير أن نهاية الدولة الأيوبية فى مصر ، جاءت أيضاً فى خضم الصراع ضد الصليبيين الذين كانوا قد تمكنوا من احتلال دمياط فيما يعرف باسم الحملة الصليبية السابعة . ولنبدأ القصة من أولها .

فقد استطاع السلطان نجم الدين أيوب (٦٤٧ – ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ – ١٢٤٩ م) أن يعيد توحيد الجبهة الأيوبية مرة أخرى ، وعندما توفى كانت سلطته تمتد على رقعة فسيحة فيما بين القاهرة ودمشق وبيت المقدس. وكان الصالح نجم الدين أيوب قد أنزل بالصليبين عدة ضربات موجعة كانت أكثرها إيلاما الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) .

وكان رد الفعل فى الغرب اللاتينى عنيفاً كالعادة ، فقد أخذت البابوية تدعو لتخليص قبر المسيح من المسلمين[١] ، وانبرى دعاتها يجوبون بلاطات الملوك والنبلاء الأوربيين ليحثونهم على الانضمام لحملة صليبية جديدة ضد المسلمين .

ويروى لنا أحد المؤرخين المعاصرين ، وهو جوانفيل الذى كتب عن الحملة كشاهد عيان باعتباره واحداً من ضباطها ، أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا فى ذلك الحين كان قد سقط فريسة لحمى الملاريا ونذر أن يتوجه على رأس حملة صليبية أن شفى منها . وهو أمر لانستبعده من ذلك الملك المتعصب الصارم الصلب الرأى ، والذى اشتهر بعدائه المميت لكل ما هو غير مسيحى بدرجة جعلته من أشهر القديسين فى السجل الرسمى للكنيسة الكاثوليكية . وعلى أية حال ، فإن البابوية رحبت بهذا النذر ، وعينت لويس التاسع قائداً للحملة الصليبية فى مجمع ليون سنة ١٢٤٥ . وبدأ البابا انوسنت الرابع يرسل مبعوثيه لتجنيد الأمراء والملوك للمشاركة فى هذه الحملة. وعلى الرغم من السخاء البابوى فى منح الغفران لكل من قبل المشاركة فى الحملة الصليبية ، فإن ملوك أوربا لم يشاركوا فيها .

والجدير بالذكر أن البابا انوسنت الرابع كان يريد تكوين حلف مغولى – صليبى يحدق بالمسلمين من الشرق والغرب ويقضى على القوة الإسلامية بشكل نهائى . وكانت أحلام البابا تصور له أن مثل هذا الحلف يمكن أن يعيد توحيد الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية تحت زعامة البابوية من جهة ، كما يمكن أن يفتح مجالا لأعمال التبشير المسيحية

فى آسيا من جهة ثانية . وبالفعل أرسل أنوسنت الرابع بعثتين ، إحداهما إلى الخان الأعظم ، والأخرى إلى قائد مغول فارس . وعلى حين طلب الخان الأعظم من ملوك غرب أوربا أن يفدوا إلى أعتابه لتقديم الجزية وفروض الولاء ، لم تكن استجابة قائد مغول فارس إيجابية بأى حال .

وأياً كان الأمر ، بدأ لويس التاسع استعداداته للحملة الصليبية ، وسرعان ما ترامت أنباؤها إلى مسامع السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، فأخذ يعد العدة لها على الرغم من أنه كان يعانى من مرض السل المزمن ، فخرج من الشام قاصداً مصر ، وأمر بعض قواته بالخروج من حمص تحت قيادة الوزير ابن مطروح . . . وفى مصر اجتمع السلطان برجالات للتشاور حول الخطة الدفاعية ضد الحملة المرتقبة . وأرسلت إلى دمياط وحدات إضافية من الجيش ، كما أرسلت إليها الإمدادات والذخائر ، فضلاً عن أن القوات المساعدة من عرب بنى كنانة قد توجهوا إلى الثغر للمساعدة فى حمايته .

وعلى الجانب الآخر كانت قوات الصليبيين قد أبحرت من قاعدتها فى قبرص على متن عدد كبير من السفن التى تفاوتت تقديرات المؤرخين لإعدادها . وفى ٢٠ صفر سنة ٦٤٧ هـ (٤ يونيو ١٢٤٩) نزلت قوات العدو الصليبى إلى الشواطئ المصرية وأمامها الملك لويس يخوض فى مياه الشاطئ الضحلة وقد رفع سيفه وترسه على رأسه . وتم الانزال الصليبى بنجاح ، وانسحبت الحامية المصرية فى سرعة تدعو للغضب والدهشة ، وانهارت مقاومة العرب الكنانة ففروا تتبعهم جموع أهل دمياط المذعورين .

وهكذا سقطت دمياط دون قتال ، ودخلها الصليبيون تتقدمهم مشاعر الدهشة والريبة خوفاً من أن يكون هناك كمين ينتظرهم فى داخل المدينة . ولكن دمياط التى دوخت عتاة الصليبيين بمقاومتها الشرسة فى مرات سابقة

استسلمت فى وداعة مذهلة لفرسان الفرنج ومشاتهم وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر الذى لم يفعلوا شيئاً فى سبيله حتى أخذوا يدعمون وجودهم .

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة التى حرص على تحصينها بمزيج من المرارة والغضب والألم ، فعاتب قادته بكلمات عنيفة ، وأعدم عدداً من شجعان بنى كنانة ، ولكنه لم يستسلم للهزيمة وانتقل إلى مدينة المنصورة التى بنيت قبل ذلك بحوالى ثلاثين سنة فحسب ، وشرع الجنود فى ترميم أسوار المدينة القديمة يساعدهم الأهالى ؛ فالصراع ضد العدوان لم يكن قد انتهى بعد .

وبدأت القوات المصرية تتوافد على المدينة الجديدة ، فها هى كتائب الجيش الأيوبى النظامية المكونة أساساً من المماليك ، وفرسان العربان الذين يقومون بدور القوات المساعدة ، يتبعهم المتطوعون للوعظ وحث الناس على الجهاد ، أو للقيام بما تقوم به أسلحة الخدمات فى الجيوش الحديثة . وماجت المدينة بالحركة والنشاط من حول القصر السلطانى الذى يرقد بداخله سلطانهم المريض ، وقد غلبت شجاعته مرضه ، وبات مؤرقاً بالرغبة فى الانتقام .

وفى المعسكر الصليبى لم ينتهز لويس التاسع فرصة استسلام دمياط دون قتال ، فيواصل الزحف إلى القاهرة للقضاء على المقاومة الإسلامية ، وإنما انصرف إلى إضفاء الطابع الصليبى على المدينة الأسيرة ، وأخذ يوزع الأسلاب والغنائم ، وحول جامع المدينة إلى كاتدرائية كاثوليكية . ولعل الملك التقى قد حسب أن الرب يبارك مشروعه وأن الأمر كله سوف يتم بهذه السهولة ، فأرسل يستدعى زوجته .

بيد أن فترة الانتظار الطويلة كانت لها نتائجها السلبية فى صفوف الصليبيين ، على حين كانت لها ثمارها الإيجابية فى المعسكر المصرى . وتململ المصريون من البقاء خلف تحصيناتهم القوية فى المنصورة ، وبدأوا يتحركون إلى الهجوم . وتم تنظيم ما يمكن أن نسميه بحركة مقاومة شعبية على حد تعبيرنا المعاصر ، وشارك فى أعمال المقاومة أبناء الشعب المصرى بكل فئاته وبجانبهم

من تطوع من المسلمين الموجودين بمصر أو الوافدين فى ركاب القوات الأيوبية التى قدمت من الشام ، وبدأ الفلاحون ، وأصحاب الحرف والعامة والعربان الذين وفدوا من شتى أنحاء مصر لأداء فريضة الجهاد .

وكان المتطوعون هؤلاء يقومون بهجمات فدائية ليلية جريئة على المعسكر الصليبى ويعودون بالجنود الصليبيين الذين استطاعوا خطفهم أحياء، ويسلمونهم للسلطان . وعندما يتم أسر عدد كبير من الصليبيين يطوف موكب الأسرى بين صيحات الناس الحماسية فى الشوارع ، ويتناقل الناس أخبارهم فتتصاعد حرارة الحماس ، ويتزايد عدد المتطوعين ، وتتزايد بالتالى خسائر الصليبيين ، فيلجأون إلى تعديل نظام الحراسة فى معسكرهم ويحفرون الخنادق من حوله . ولكن الهجمات تأخذ اتجاهاً آخر ويستمر سقوط المزيد من جنود العدو .

ومن ناحية أخرى ، أخـذت السفن المصرية تنصب الكمائن للسفن الصليبية التى تنقل المؤن للصليبيين وتستولى عليها أوتدمرها . وأخيراً ، وبعد شهور خمسة ، يخرج الصليبيون من مكمنهم فى طريقهم نحو المنصورة ثم القاهرة . وبعدها بيومين توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب بعد أن رتب شئون المملكة مع زوجته القديرة « شجر الدر » . فقد عهد بالسلطنة إلى إبنه « المعظم توران شاه » بينما تولى الأمير « حسام الدين بن أبى على الهذبانى» نيابة السلطنة بمصر ، وتولى الأمير « فخر الدين بن شيخ الشيوخ » القيادة العامة بالمنصورة . وأخفت شجر الدر نبأ موت السلطان وأعلنت أن الأطباء منعوا زيارة السلطان المريض .

وفى تلك الأثناء كانت قوات لويس التاسع تتخبط فى أوحال الدلتا المتخلفة عن مياه الفيضان فى طريقها إلى المنصورة ، ودخلت فارسكور دون مقاومة ، وطار الحمام الزاجل بالأخبار إلى المنصورة والقاهرة . وقرئت على منابر المساجد فى صلاة الجمعة رسالة كتبها الشاعر « بهاء الدين بن زهير » تحث الناس على الجهاد وتبدأ بالآية الكريمة « إنفروا

خفافاً وثقالا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وكان لهذه الرسالة أثرها الفعال من حيث توافد الإمدادات من الرجال والذخائر والمؤن على العسكر المصرى فى المنصورة .

وعبر النيل عند أشموم طناح أقام الصليبيون معسكرهم فى مواجهة المعسكر المصرى وفى خلال الأيام التى سبقت المواجهة الحاسمة بين الطرفين أمطر المصريون المعسكر الصليبى بوابل من القذائف الملتهبة التى عرفت آنذاك باسم « النار الإغريقية » ، وحطموا كثيراً من معداتهم ، كما أخذت فرق الفرسان والمتطوعين يهاجمون الصليبيين بين الآونة والأخرى .

ولكن شخصاً اختلفت المصادر التاريخية حول هويته (ذكر جوانفيل أنه من البدو ، وذكرت المصادر العربية أنه مسيحى) دل الصليبيين على منطقة يعبرون منها إلى مكان المعسكر المصرى تسمى « مخاضة سلمون » . وبالفعل دهمت القوات الصليبية المعسكر المصرى ، وسقط قائد القوات المصرية الأمير فخر الدين صريعاً بسيوف الداوية الذين أحاطوا به من كل جانب . وبدا وكأن الهزيمة سوف تنشب مخالبها القاسية فى الجسد المصرى ..

وفى داخل أسوار مدينة المنصورة كان الأمير المملوكى بيبرس البندقدارى ، الذى صار سلطانا فيما بعد، قد أعد خطة ماكرة للقاء الصليبيين فى رحاب المدينة الصغيرة. ووافقت على خطته شجر الدر صاحبة النفوذ الفعلى أنذاك ، فقد اختبأت القوات المصرية فى عدة كمائن داخل المدينة بينما حبس أهالى المنصورة أنفاسهم فى انتظار اللحظة التى يساهمون فيها بجهودهم فى رد غائلة العدوان . ودخل فرسان الصليبيين المدينة الصامتة وأخذوا يتجولون فى شوارعها فى خيلاء بحثا عن الغنائم والأسلاب ورغبة فى القيام بواحدة من مذابحهم البشرية التى اشتهروا بها . وإذا بالمماليك البحرية وأهل المنصورة يطبقون عليهم من حدب وصوب . واختلطت أصوات السلاح بصيحات الرعب الصادرة عن الصليبيين المذعورين. وأخذ سكان المنصورة يساعدون العسكريين فى القضاء على شراذم فرسان الفرنج الذين بعثرتهم المفاجأة فى ثنايا المدينة

فوضعوا المتاريس الخشبية والحجرية والطينية لعرقلة الفرسان الصليبيين. كما قذفوهم بشتى صنوف القذائف البيتية من فوق أسطح البيوت ومن خلال شبابيكها .

وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى العدو. وفى مكان آخر كان الجيش الصليبى الرئيسى بالقرب من أشموم طناح (بجوار فارسكور) يستعد للقاء الجيش المصرى الذى تولى قيادته بيبرس البندقدارى. وفى اليوم التالى سقطت القوات الصليبية غنيمة باردة سهلة بأيدى المصريين . وهرب لويس التاسع إلى قرية ميت الخولى عبد الله حيث قبض عليه وسيق إلى دار ابن لقمان بالمنصورة .

هذه ، باختصار ، أهم أحداث الحملة الصليبية المعروفة بالحملة السابعة ، والتى جاءت تسعى للحصول على مصر فنالها ما نال الحملات الصليبية السابقة واللاحقة من فشل فى تحقيق أهدافها. وظلت مصر تقود المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين حتى تمكن الأشرف خليل بن قلاون من تتويج أعمال السلاطين السابقين بطرد البقايا الصليبية من بلاد الشام فى سنة ١٢٩١ أى بعد أقل من نصف قرن فقط من عدوان لويس التاسع على مصر .

وكانت هذه الحادثة التاريخية هى المادة التى نسج منها الروائى نجيب الكيلانى صفحات روايته « اليوم الموعود » . والحقيقة أن هذا الفنان قد أحسن صنعاً حين ركز على دور الشعب المصرى فى مقاومة العدوان الصليبى على بلاده . وأهم ما يميز نجيب الكيلانى أنه قد ابتكر بعض الشخصيات لروايته بجانب الشخصيات التاريخية الحقيقية ولكنه لم يتناول الشخصيات التاريخية فى روايته تناولا موضوعياً ، وربما يكون قد أراد – بتصويره لشخصية توران شاه – أن يوضح حقيقة العلاقة بين الحاكم والرعية فى ذلك العصر . ولكن ينبغى لنا دائماً أن نرى الحدث التاريخى من داخله ، وأن نحاول أن نتمثل مفاهيم وقيم العصر ومثله ، دون أن نفرض على أهل ذلك العصر أن يتصرفوا وفقاً لمفاهيم ومثل عصرنا الحالى . بيد أن الروائى نجح من

ناحية أخرى فى تصوير استجابة الناس لداعى الجهاد وهو أهم مايميز روايته . ينبغى علينا أن نترك دراسة الرواية بشكل تحليلى إلى أصحاب التخصص (١) .

أما النص الذى نورده فى الصفحات التالية ، فيتناول بعض أحداث العدوان الصليبى بقيادة لويس التاسع ، والمقاومة المصرية ضده منذ وفاة الصالح نجم الدين أيوب ، حتى أسر الملك لويس التقى قائد الحملة وسجنه فى دار ابن لقمان بالمنصورة .

وقد اخترنا هذا النص من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) .

أما عن سبب اختيار هذا النص من كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » رغم تأخره زمنياً عن الحادث التاريخى فيرجع إلى حقيقة أنه يعوض النقص الكمى فى المراجع العربية المعاصرة لهذا الحادث التاريخى وهى : مفرج الكروب لابن واصل ، ومرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزى ، والذيل على الروضتين لأبى شامة ، فقد حفظ لنا كتاب المقريزى معلومات وفيرة منقولة من أصول مفقودة أو مجهولة .

النص(٢)

«... فلما مات السلطان (٣) أحضرت زوجته شجر الدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن — وكان أقرب الناس إلى السلطة وإليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته — وأعلمتهما بموت السلطان ، ووصتهما بكتمان موته خوفاً من الفرنج ، وكان الأمير

---

(١) نظر دراسة الدكتور الهوارى للرواية فى الصفحات التالية .

(٢) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك : جـ ١ (الطبعة الثانية ص ٣٤٢ ، ص ٢٥٦

(٣) الصالح نجم الدين أيوب .

فخر الدين عاقلا مدبراً ، خليقاً بالملك ، جواداً محبوباً إلى الناس ، فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير المملكة إلى أن يقوم الملك المعظم تورانشاه . . . » (١) .

« . . . هذا وشجر الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شئ . وصار الدهليز السلطانى على حاله ، والسماط فى كل يوم يمد ، والأمراء تحضر الخدمة ، وهى تقول : « السلطان مريض ، ما يصل إليه أحد » .

« وأما الفرنج فما هو إلا أن فهموا أن السلطان قد مات حتى خرجوا من دمياط ، فارسهم وراجلهم ، ونزلوا على فارسكور ، وشوانيهم(٢) فى بحر النيل تحاذيهم ، ورحلوا من فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب فيه حض الناس على الجهاد ، أوله : إنفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمة ، فقرىء على الناس فوق منبر جامع القاهرة ، وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج مالا يوصف ، وارتجت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير ، فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم (٣) ، وقد وقد اشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد مع موت السلطان » .

---

(١) هو ابن الصالح نجم الدين أيوب وخليفته الذى سوف يتولى الحكم بعده ، وكان غائباً فى بلاد الشام حيث يحكم حصن كيفا .

(٢) الشوانى ، ومفردها شينى نوع من المراكب العسكرية النهرية وهو أكبر أنواع السفن الحربية فى ذلك الوقت وله مائة وأربعون مجدافاً — أنظر الدكتور سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٣٠) .

(٣) توضح هذه الفقرة كيف كانت جموع المصريين فى ذلك العصر تتطوع الدفاع عن البلاد فتسافر من شتى المناطق إلى أماكن الخطر الذى يهدد بلادهم .

« فلما كان يوم الثلاثاء أول يوم من شهر رمضان واقع الفرنج المسلمين ، فاستشهد العلامى أمير مجلس وجماعة من الأجناد ، وقتل من الفرنج عدة ، ونزل الفرنج بشار مساح ، وفى يوم الإثنين سابعه نزلوا البرمون فاشتد الكرب وعظم الخطب لدنوهم وقربهم من المعسكر . وفى يوم الأحد ثالث عشرة وصلوا إلى طرف بر دمياط ، ونزلوا تجاه المنصورة ، وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم وكان معظم عسكر المسلمين فى المنصورة بالبر الشرقى ، وفى البر الغربى أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك : وهم الملك الأمجد ، والملك الناصر ، والملك المعظم ، والملك الأوحد ، فى عدة من المعسكر — وكان أولاد الملك الناصر داود ، الأكابر منهم والأصاغر الذين قدموا القاهرة إثنى عشر ولداً ذكراً . وكان بالبر الغربى أيضاً إبنا الملك الناصر داود : وهما الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز . فاستقر الفرنج بمنزلتهم هذه وخندقوا عليهم خندقاً ، وأداروا سوراً وستروه بالستائر ، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين ونزلت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل ، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة ، ووقع القتال بين الفريقين براً وبحراً .

« وفى يوم الأربعاء سادس عشرة قفز إلى عند المسلمين ستة خيالة ، وأخبروا بضائقة الفرنج . وفى يوم عيد الفطر أسر كند (١) كبير من الفرنج ، له قرابة من الملك رايد افرنس (٢) . واستمر القتال ، وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر ، وقد لقوا من عامة المسلمين وسوادهم نكاية عظيمة ، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً . وكانوا إذا شعروا بالفرنج

---

(١) هذا تحريف لكلمة كونت count وهو لقب من ألقاب الطبقة الحاكمة فى ظل النظام الإقطاعى الذى اكتمل فى أوربا فى الحادى عشر والثانى عشر أنظر :
Marc Bloch, Feudal society (London 1961): pp 72–87

(٢) يقصد لويس التاسع والواضح أن اللفظ محرف عن العبارة الفرنسية
Rois de France

ألقوا أنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين . وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة حتى أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم ، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين . وفى يوم الأربعاء سابع شوال أخذ المسلمون شينيا فيه نحو مائتى رجل وكند كبير . وفى يوم الخميس النصف منه ركب الفرنج والمسلمون ، فدخل المسلمون إليهم البر الذى هم فيه . وقاتلوهم قتالا شديداً ، قتل فيه من الفرنج أربعون فارساً ، وقتلت خيولهم . وفى يوم الجمعة تاليه وصل إلى القاهرة سبعة وستون أسيرا من الفرنج ، منهم ثلاثة من أكابر الداوية(١) . وفى يوم السبت ثانى عشرية أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر (٢) ، واستظهـر عليهم استظهاراً عظيما ».

(وما زال الأمر على ذلك إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة ، دل بعض منافقى أهل الإسلام الفرنج على مخائض فى بحر أشمون ، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر . وكان الأمر فخر الدين فى الحمام ، فأثار الصريخ بأن الفرنج هجموا على العسكر فخرج مدهوشاً وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ ، وساق لينظر الخبر ويأمـر الناس بالركوب ؛ وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده ، فلقيه طلب الفرنج الداوية (٣) وحملوا عليه ، ففر من كان معه و تركوه

---

(١) فرقة الفرسان الداوية من أشهر فرق الفرسان الصليبية ، كانت دائماً تسير فى طليعة الجيوش الصليبية — أنظر محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص ١٤٥ ، ص ١٤٧ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ : ص ٤٨٦ ، ص ٤٨٧ .

(٢) يشير المقريزى هنا إلى برجين متحركين بناهما الصليبيون على الضفة الشمالية لبحر أشموم ، لوقاية العاملين فى إقامة جسر ثابت لعبور الجيش الصليبى ، ولكن قذائف النار الإغريقية التى أطلقها المسلمون أحرقتهما ، (حاشية الدكتور زيادة ص ٣٤٨ من نفس الجزء) .

(٣) أى فرقة الفرسان الداوية .

وهو يدافع عن نفسه ، فطعنه واحد برمح فى جنبه ، واعتورته السيوف من كل ناحية . فمات رحمه الله ونزل الفرنج على جديله ، وكانوا ألفاً واربعمائة فارس ومقدمهم أخو الملك رايد فرانس » .

« وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين ، وإذا بالفرنج قد اقتحموا المنصورة : فتفرق الناس الناس وانهزموا يميناً وشمالا ؛ وكادت الكسرة أن تكون : فإن الملك رايد فرانس وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية ، التى تعرف بالبحرية والجمدارية (١) . وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى تسلطن بعد هـــذه الأيام فحملوا على الفرنج حمـلة زعزعوهم وأزاحوهم من باب القصر ، فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس حتى قتل منهم فى هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم : وكانت رجالة الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه فلولا لطف الله لكان يتم لهم الأمر بتعديه الجسر .وكانت المعركة بين أزمة المنصورة .فانهزموا إلى جديلة منزلتهم وقـــد حال بين الفريقين الليل ، وأداروا عليهم سورا وخندقوا خندقاً : وصارت منهم طائفة فى البر الشرقى ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط . فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج » .

« وعندما هجم الفرنج على المعسكر سرح الطائر بذلك إلى القاهرة(٢)

---

(١) المقصود طوائف المماليك التى تولت حكم مصر بعد ذلك بقليل وبرز منهم فى ذلك الحين فارس الدين أقطاى ، وبيبرس البندقدارى الذى حكم مصر تحت إسم السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس ، والواقع أن انتصار المماليك البحرية على حملة لويس التاسع فى المنصورة ثم فى فارسكور أدى إلى زيادة نفوذهم وخطرهم لإحساسهم بأنهم أصحاب الفضل فى إنقاذ مصر من هذا الخطر واستمر البحرية يحكمون مصر من سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) حتى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨١ م) وبعدهم قامت دولة سلاطين المماليك الجراكسة من سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) حتى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) — أنظر سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام القاهرة) ١٩٦٥) .

(٢) أى بعث رسالة على جناح الحمام الزاجل الذى كان وسيلة اتصال شائعة الاستخدام فى تلك العصور .

فانزعج الناس انزعاجاً عظيما ؛ وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر . فلم تغلق أبواب القاهرة ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين . وفى صبيحة يوم الأربعاء وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج ، فزينت القاهرة ، وضربت البشائر بقلعة الجبل . وكثر فرح الناس وسرورهم وبقى العسكر تدبر أمره شجر الدر ... » ؛

« ... وكانت الميرة ترد إلى الفرنج فى منزلتهم من دمياط فى بحر النيل ، فصنع المسلمون عدة مراكب ، وحملوها وهى مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة ، وكانت أيام زيادة النيل . فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة ، وهذه المراكب مكمنة فيه ، خرجت عليها بغتة وقاتلتها . وفى الحال قدم أسطول المسلمين من جهة المنصورة ، فأخذت مراكب الفرنج أخذا وبيلا ؛ وكانت اثنتين وخمسين مركباً ، وقتل منها وأسر نحو ألف أفرنجى وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ، وحملت الأسرى على الجمال إلى المعسكر . فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام لا يقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم » ؛

« وفى أول ذى الحجة ، أخذ الفرنج من مراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق ونجا من كان فيها من المسلمين وفى ثانى ذى الحجة تقدم السلطان(١) إلى الأمير حسام الدين بن أبى على بالمسير إلى القاهرة . . . » ؛

« . . . وفى يوم عرفه وصلت مراكب فيها الميرة للفرنج ، فالتقت بها شوانى المسلمين عند مسجد النصر ، فأخذت شوانى المسلمين منها

---

(١) هو السلطان الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب وصاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد الذى كان قد وصل من بلاد الشام ليتولى مقاليد الحكم ، وحين أراد أن يباشر سلطانه اصطدم بقوة المماليك البحرية المتنامية من ناحية ، و بشجر الدر زوج أبيه الطموح من ناحية أخرى وانتهى الأمر بمقتله سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

إثنتين وثلاثين مركبا ، منها تسع شوانى ، فاشتد الغلاء عند الفرنج ، وشرعوا فى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة ، فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين أمير جاندار ، وقاضى القضـــاة بدر الدين السنجارى ، فسألوا أن يسلموا دمياط ويأخذوا عنها مدينة القدس وبعض الساحل ، فلم يجابوا إلى ذلك » .

« وفى يوم الجمعة لثــلاث بقين من ذى الحجة ، أحرق للفرنج ما عندهم من الخشب ، وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط ، وخرجت السنة وهم فى منزلتهم . . . » .

« . . . سنة ثمان وأربعين وستمائة . فى الليلة الأربعاء ثالث المحرم ، رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط ، وانحدرت مراكبهم فى البحر قبالتهم . فركب المسلمون أقفيتهم ، بعد أن عدوا إلى برهم واتبعوهم . فطلع نهار صباح يوم الأربعاء وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستولوا عليهم قتلا واسراً . وكان معظم الحرب فى فارسكور ، فبلغت عدد القتلى عشرة آلاف فى قول المقل ، وثلاثين فى قول المكثر . وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم المقاتلة وصناعتهم وسوقتهم (١) ما يناهر مائة ألف إنسان وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال مالا يحصى كثرة واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل ، وأبلت الطائفة البحرية — لا سيما بيبرس البندقدارى — فى هذه النوبة بلاء حسناً وبان لهم أثر جميل .

« والتجأ الملك ريدافرانس وعدة من أكابر قومه إلى تل المنيــة وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمـــال الدين محسن الصالحى ونزلوا على أمانه . وأخذوا إلى المنصورة ، فقيد الملك ريدافرانس بقيد من

---

(١) كانت طوائف الصناع والتجار تصحب جيوش العصور الوسطى لتقديم الخدمات التى يحتاجها الجيش وإقامة الأسواق المؤقته فى ميادين القتال .

حديد ، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء التى كان ينزل بها من المنصورة ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى واعتقل معه أخوه وأجرى عليه راتب فى كل يوم . وتقدم أمر الملك المعظم سيف الدين بن الطودى — أحد من وصل معه من بلاد المشرق — بقتل الأسرى من الفرنج ، وكان سيف الدين يخرج فى كل ليلة منهم ما بين الثلاثمائة والأربعمائة ويضرب أعناقهم ويرميهم فى البحر حتى نفوا بأجمعهم » .

ثانياً – اليوم الموعود

نجيب الكيلانى

الرؤية . . . . والبناء الفنى

« هذه هى القيادة التى سأنضوى تحت لوائها . . . هؤلاء العامة البسطاء هم كل شىء . . . هم القادة والجنود . . . وأياديهم المجفاء الخشنة هى التى تصنع المجد ، وتخلق التاريخ المجيد » .

« عدنان بن المنذر ، الرواية ٥٧ »

١ – الرؤية :

القارىء لهذه الرواية يواجه عملا روائياً يستلهم الأحداث التاريخية ذاتها إبان الحروب الصليبية وإن اتخذ موقفاً مختلفاً فى تفسير الأحداث، أو بتعبير أدق فى النظرة تجاه الأحداث وفى رؤية الروائى للبطولة،ومفهومه لطبيعة الرواية التاريخية خاصة :

يقول « نجيب الكيلانى » فى الكلمة التى قدم بها للرواية تحت عنوان « أضواء على القصة » ! :

« وقد اقتضت الظروف التاريخية أن يهتم مؤرخونا القدماء بأخبار الملوك والكبراء ويربطوهم بالأحداث ، ويشيروا إلى الشعوب نفسها إشارات مجملة لا تكفى ولا تشفى غليلا ، فما أكثر الأبطال المغمورين الذين ذهبوا ضحية الواجب دون أن تذكر عنهم كلمات تفصيلية فى كتب التاريخ ، ولكى نعبر عن الكفاح الشعبى ونعطيه المكانة اللائقة به كان من الواجب أن ننتزع منه شخصية تمثله – وما أكثر الشخصيات – وإذا كانت كتب التاريخ لم تحرص على تسجيل الأسماء ، فلن نجيد

الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب ، ط ، . وزارة التربية والتعليم ، ١٩٦١، .

عن الحقيقة أو الأمانة التاريخية إذا ما لجأنا نحن إلى الشخصيات الموضوعة ، إلى جانب الشخصيات الحقيقية التي ورد ذكرها في بطون الأسفار»(١) .

هذا المقتبس يشي بموقف الروائي من الشخصية التاريخية في أحداث التاريخ ومن كفاح الشعوب . ومعلوم أن المؤرخين القدماء قد قاموا بعملية اختزال تاريخي للشخصيات العادية ، على نحو ما ذكر « أبوالمحاسن » عندما عرض لأحد الأفراد في تاريخه بقوله « وقد أضربنا عن شرح ماحدث له لأنه لم يكن من أعيان الناس فتشكر أفعاله أو تذم !! »(٢) .

ولقد ترتب على هذا الموقف ، أن تحددت رؤية الروائي للمادة التاريخية ، وتفسيره لها ، ونظرته للشخصية التاريخية . بمعنى أن بناء الرواية ، إرتبط بهذه النظرة أو الموقف . ومن ثم تقدمت الشخصيات العادية ، المغمورة ، التي ترمز لروح الشعب وبطولته ، لتأخذ دورها .

وطبيعي أن يتأثر بناء الشخصية — بفعل هذه الرؤية للتاريخ والشخصية الإنسانية — في تصويرها وتحديد رؤيتها ، ورؤاها . كما جاءت الشخصيات التاريخية في خلفية المشهد ، وتحدد دورها بقدر ما قامت به من توجيه للأحداث ، من وجهة نظر الروائي .

ولقد كشفت دراسة الروائي للمجتمع المصري في الفترة التي دارت فيها رحى الحملة الصليبية السابعة على مصر ، كشفت عن تفسخ البناء الداخلي ، كما وضعت يده على جموع أفراد الشعب المطحون ، ضد طغيان السلطة ، في الداخل ، والمقاومة

---

(١) الرواية « أضواء على القصة » ، ص ٥ .

(٢) أبو المحاسن ، حوادث الدهور ، نشر ويليام بوبر ، (كاليفورنيا ، ١٩٣٠) ج ٢ ص ٢٤٤ .

الشعبية للعدوان الصليبي الخارجي . وفي هذا يقول : « ولقد تبين لي أثناء دراستي للحملة الصليبية السابعة وملابساتها ، أن مصر لم تكن تخوض حرباً واحدة ، في صراعها مع المعتدين ، ولكنها في نفس الوقت كانت تخوض معركة مريرة ضد الطغيان الداخلي المتمثل في توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فكانت المعركة التي يخوضها الشعب داخلية وخارجية في نفس الوقت ، فأعطت بذلك صورة كاملة للنضال الأمثل الذي دارت رحاه في هذه الحقبة التاريخية الهامة »(١) وسنرى ذلك عند تحليل شخصيات الرواية بعد أن نتعرف على مفهوم الروائي لطبيعة الرواية التاريخية .

يحدد « نجيب الكيلاني » مفهومه عن الرواية التاريخية ، من خلال مفهومه عن التاريخ بوصفه علماً ، والرواية بوصفها فناً . وعندما يتلاقى الفن والعلم في عمل أدبي فإن هذا يستلزم درجة من رهافة الإحساس ، والوعي بما يأخذ وما يدع ، حتى لا يطغى العلم – التاريخ – على الفن – الرواية – فيفقد العمل الروائي متعته ، ويتحول إلى مسخ شائه ، منبت الصلة بمصدره ، فلا هو تاريخ ولا هو قصة . وهذا ما حاول « نجيب الكيلاني » أن يتحاشاه وهو يعرض في مقدمته للمصاعب التي تكتنف من يتصدى لكتابة القصة التاريخية .

هنا يواجه الناقد بمفهوم يقترب مما أقره نقاد الرواية في مطالبهم من الرواية التاريخية . ويختلف عن مفهوم « جورجي زيدان » (٢) : و« نجيب الكيلاني » يرى في القصة التاريخية عملاً أدبياً . أي أننا نتعامل مع الأثر الروائي التاريخي ، بالمقاييس النقدية في نقد الرواية . صحيح أن الإطار العام لأحداث التاريخية ينبغي أن يكون سليماً ، لكننا ننظر إلى البناء الروائي : الشخصيات ودورها في الأحداث ، ورؤية الروائي

---

(١) الرواية ، « أضواء على القصة » ، ص ٥ .

(٢) راجع ص من القسم الأول من هذا الكتاب .

من خلال ذلك ، والشخصية الروائية ، وتصويره لمصيرها وقدرها ، الذي هو في جانب منه ، مصيرنا وقدرنا بوصفنا بشراً . فـ «كليوباترا» شخصية تاريخية ، ألهمت أكثر من روائي وشاعر باستيحاء تاريخها في آثار أدبية . وجاءت رؤيتهم لها مختلفة تبعاً لنظرة كل منهم ، وموقفه من الشخصية وعصرها . ولا ريب أن هـذا يضفي على الأثر الأدبي خصوبة وثراء .

لذا يقول « نجيب الكيلاني » : « من هنا كانت القصة التاريخية عملا أدبياً ثرياً يحتاج لمزيد من الدقة والبراعة ، لأن التاريخ يمدها بالوقائع الثابتة ، ويفرض عليها روحه وأجواءه الخاصة ، وصياغة التاريخ في قصة يخرج به عن كونه علماً جافاً ويدرجه في باب الفن الذي يمتع ويثير ، ولهذا فإن المزيج الناتج من خلط الوقائع التاريخية بالقواعد القصصية مزيج يحتاج إلى يقظة الصيدلي ودقته ، وإلا تحولت القصة إلى كتاب تاريخ ، أو على النقيض من ذلك – أعني تشويه الحقائق التاريخية والعبث بها » .

وشيء آخر هو تصوير الكفاح القومي ، والكرامة الوطنية ، وهذا أمر في غاية الحساسية . إذ أن اللجوء إلى النغمة الخطابية ، وافتعال المواقف النضالية وتسجيلها في سذاجة مستغلا في ذلك الاصطلاحات (أو الأكليشيهات) المحفوظة ، كل هـذا قد يبعث الملل في القارىء ، وينفره من التكلف الظاهر الذي تصرخ به أحداث القصة وعباراتها » (١).

فالروائي على وعي بضرورة أن تصور الرواية التاريخيـة ، الكفاح القومي ، وتعرض أمجاد الأمة . وثمة موازاة يلاحظها الناقد بين يقظة الشعور القومي ، وازدهار الرواية التاريخية .

---

(١) المصدر نفسه ؛ ص ٣ .

٢ - البناء الفنى :

وهو يكشف عن طريقته فى تناول المادة التاريخية (١) وبناء الرواية ، بقوله : « ولاشك أن أحسن توزيع للأحداث التاريخية ، وإظهار مغزاها واستنباط آثارها يكون أدعى إلى الإعجاب ، وأقرب إلى النجاح إذا ما حاول الكاتب أن يربط أشخاص القصة بالأحداث ، ويحاول أيضاً أن يلجأ إلى التنويع فى سرده التاريخى ، كأن يدس فى الحوار الجارى بين الأشخاص بعض الحقائق ، أو يدع الأشخاص أو الأحداث نفسها تعبر عن التاريخ وترسم صورة صادقة له بطريقة غير مباشرة ، ومن الخطأ أن تكتب صفحات طويلة مليئة بالتاريخ الخالص — كما يفعل بعض أدبائنا ، لأن ذلك يجعل من القصة كما قلنا كتاب تاريخ . . . إن اللمحة الخاطفة المؤداة ببراعة وتوفيق قد توحى بما لا توحى به الصفحات الطويلة من السرد الجاف »(٢) .

هذه هى أدوات الروائى فى بنائه للرواية . وسنحاول — من خلال تحليل شخصيات الرواية — أن نتعرف على كيفية استثمارها أو توظيفها فنياً بما يهدف إثراء العمل الروائى .

وقد عبر « نجيب الكيلانى » عن موقفه من شخصيات الرواية بقوله : « إن الفن انفعال وتعبير ؛ فالذاتية فيه هى الأساس ، لكن الذاتية بغير الموضوعية — وخصوصاً فى القصص التاريخى لاتكفى ثم إن الموضوعية لا يمكن فصلها عن الذاتية ، لأنها تستطيع أن تثير انفعال الكاتب ، وتحرك مشاعره ، فتمتلىء بها ذاته ، ويخرجها قلمه

---

(١) قارن هذه الرؤية بموقف جورجى زيدان من المادة التاريخية . راجع (ص ٤١ من هذا الكتاب .

(٢) الرواية ، ص ٤ .

إخراجاً خاصاً ذا ملامح معينة تمت بصلة نفسية إلى الكاتب ونظرته »(١)
ومعنى هذا أن موقف الكاتب الخاص "لا يفرض على الشخصيات بل يتسلل
إليها متخفياً ، وينبث فى حنايا صدورها ووجدانها، معبرا بطريقة غير مباشرة
عن موقفه ؟

والمتأمل فى رواية « اليوم الموعود » يجد أن « نجيب الكيلانى » قد
ابتكر شخصية موضوعة ، وهى شخصية « عدنان بن المنذر » ، وهى بمثابة
نموذج يجسد فيه آلام شعب وآماله ، وروحه ، وكفاحه ضد الطغيان
الداخلى ، والعدوان الخارجى. ولعل الرمز غير خاف على القارىء (فالمنذر
هو الشعب وعدنان هو ابن الشعب) .

والراوى يعلق على موقف « عدنان » بما يكشف عما يصطرع فى أعماق
الشخصية من نوازع . فهو « بين نارين : إما أن يتجاهل أمر الغزاة الفرنجة ،
وينسى واجبه نحو بلاده ، وينطلق مدفوعا بثورة الحقد والثأر إلى حصن
كيفا كى يثأر من توارن شاه ، وإما ألا يفكر فى الانتقام منه الآن ، وينضم
إلى أبناء جلدته ، ويزحف صوب دمياط لملاقاة المعتدين والثأر لأبيه . .
ولأمته . . وحقه فى الحياة . . » (٢) .

وأحداث الرواية تنبئنا أن « توارن شاه » سلب « عدنان » حريته ،
وحرمه من جاريته « زمرده » — وهى الفتاة التى اعتزم أن يعتقها ، وتصبح
له زوجا . هنا يتعانق الخاص والعام ، ليتحول إلى قضية شعب يتعرض
لعبث السلطان ممثلا فى « توران شاه » .

و « نجيب الكيلانى » فى محاولة لإمداد القارىء بمعلومات عن الوجود

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الرواية ، ص ٣٧ . ومما يذكر أن هذه الأسماء : عدنان ، المنذر لم تكن من الأسماء الشائعة بين المصريين فى مصر الإسلامية إبان تلك الفترة ، مما يشف عن مدى مشاكله الشخصية لواقعها .

النفسى والوظيفى للشخصية (الإنسان من الداخل) يحاول أن يستخدم أسلوب « مناجاة النفس » (١) والانطباع الذى يخرج به القارىء أن العالم غير مقبول من وجهة نظر الشخصية ، فهو عالم غير متوازن قائم على القهر والاغتصاب .

« وغمغم عدنان » « لكن أية حياة تلك التى نحياها فى ظل العسف والعبودية ؟ إن الأرض أرضنا ولكنها ليست لنا ، وأمراء بنى أيوب برغم ماضيهم المجيد وتاريخهم الحافل : قد نبت من بين صفوفهم فئة تظلم وتطغى أأسلم قيادى لمثل هؤلاء ، وأحارب تحت رايتهم ، فإذا ما انتصروا عادوا ليسرقوا النساء ، ويثيروا الفزع ويتحاربوا من أجل السيطرة والمطامع الشخصية لا هذا لن يكون . . » غير أن عدنان تذكر ما قالته له أمه منذ لحظات : « . . . إن طلب الثـــأر يعميك عن إدراك حقيقة وضعك ، أنسيت أن زحف الفرنجة قد يقضى على توران شاه وعلينا جميعا لاقدر الله »(٢) .

هنا تعمق نبرة « مناجاة النفس » وفيها نتجاوز الثأر الشخصى لنواجه بـ « مقاومة شعب » صمم على الحياة الكريمة . ونتابع « عدنان » فى مناجاة النفس « . . لقد حدثته النفس قائلة . إذا كان توران شاه قد اختطف امرأة واحدة . . فالفرنجة سوف يختطفون كل شيء ، وإذا كان قد وضعنى فى السجن وحيدا قرابة عام ، فسوف يحول الغزاة مصر إلى سجن كبير يسام فيه أبناء أمتنا العذاب لسنين قد تطول ولا يعلم مداها إلا الله » (٣) .

---

(١) أنظر روبرت همفرى ، تيار الوعى فى الرواية الحديثة ، ترجمة د محمود الربيعى « دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ » ، ص ٤٨ .

(٢) الرواية ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

راجع المنحنى النفسى الشخصية وتصويرها من الداخل ، ص ٢٤٦ ، ١٩٧ .

والروائى حريص على أن يبرز دور الكفاح الشعبى . « هؤلاء العامة البسطاء هم كل شىء . . هم القادة والجنود . . وأياديهم العجفاء الخشنة هى التى تصنع المجد . . ثم لكز جواده . وانطلق لينضم إلى كتلهم الزاحفة ، التى يحركها إيمان وحب ورغبة فى الحفاظ على العرض والشرف وحق الحياة »(١) .

كما أنه بلمساته السريعة فى صور ومشاهد متلاحقة ، يصور موجات « المطوعة » وقد تقاطرت صوب « فارسكور » جهاداً فى سبيل الله وذوداً عن حياض المسلمين وأعراضهم . هنا يتجاوز الروائى بالقارىء المفهوم الضيق « للوطن بحدوده الجغرافية » ليحلق فى الآفاق الرحبة حيث يستظل المسلمون بفكرة الإسلام عن الجهاد — من خلال مفهوم دار الحرب ودار السلام — هنا يعلو دور الكفاح الشعبى ، وتبرز بطولة شعب . وحسنا فعل الروائى حينما جعل العدو الصليبى يدرك حقيقة قوة الشعب وأصالته . يقول الراوى — على لسان « جيل » قائد فرسان الداوية مخاطبا الأمير « دارتوا » — شقيق الملك لويس : « ليست شجر الدر وحدها هى التى تؤجج المعركة . . . أنظر يامولاى الأمير ألا ترى هذا الخليط من لابسى الجلاليب والقفاطين وذى الجبب ! ! هذا هو الشعب الذى يحاربنا بالسواطير والعصى الغليظة والمناجل والفؤس هو الذى أوقف تقدمنا . . لاشجر الدر ، لأنه يحميها هى الأخرى كما يحمى أرضه ونفسه ومثله العليا »(٢) فالفضل ما شهدت به الأعداء .

وفى محاولة لإبراز تفاعل الشخصية مع البيئة الخارجية ، يقوم الروائى بتنويع تصويره لعالم الشخصية . فينتقل من تصويرها من الداخل

---

(١) الرواية ، ص ٥٧ وراجع صفحات ٧٩ ، ٨٠ ، ١١٤ لمتابعة المشاهد التى يصور بها الروائى تماسك الجبهة الداخلية ووحدتها .

(٢) الرواية ، ص ١٥٠ .

إلى تصوير البيئة الخارجية — من خلال انطباع الشخصية : حتى يزيد من ارتباطها بالبيئة ، ويدفعها إلى الذود عنهـا : « . . . ولاحت المنصورة من بعيد فى أحضان الشمس الوهاجة ، والنيل يحف بها وكأنه ذراع قوية سمراء تحميها من بطش المعتدين . وظهرت مآذنها ومبانيها شامخة وكأنها تسخر من الحمقى الذين أرادوا أن ينتزعوها من أهلها ظلماً وعدوانا »(١) .

ويصـــور — على الجانب الآخر من الجبهة — الصليبيين وكيف أنهم وقعوا ضحية أكذوبة كبرى . (٢) وهنا يستخدم التصوير الخارجى ليلقى أضواء على الحياة الداخلية الشخصية . يقول : الجندى « مارسيل » « كانت الشمعة المتهافتة الضوء هى الحقيقة الوحيدة الباقية . . وكان لهبها يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لكن اهتزاز اللهب كان يشبه لسانا يتحرك فى سخرية مرة »(٣) :

واهتزاز اللهب رمز لاهتزاز أحلامه التى كشف التجريب عن عينه عماها . ولسان اللهب المنبعث من الشمعة تصوير للسخرية المرة التى يحيا فى ظلها . مما عمق من إحساسه بأنه ضحية أكذوبة كبرى . وأنه خدع من رؤسائه حينما أوهموه بأنها حرب مقدسة . وخدع من الفتاة الغجرية التى لعبت بعواطفه دون ينال منها مأربه .

ومن آيات الصدق الفنى ، ممـــا يقرب العمل الروائى من نفوس القراء ، أن يبرأ العمل الروائى من الاعتماد على التصوير الآحادى البعد . بمعنى أن الشخصية لا تقدم فى صورة خيرة خيرا مطلقا ، أو شريرة تمامـــاً . بل هنا درجات تصور الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى . فالموقف العام للمسلمين لم يسلم من جوانب ضعف . إذ هناك نفوس عميت

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

بصيرتها عن إدراك الحق ، فانساقت وراء مطامحها الدنيوية وخانت أمتها ودينها .

وقد صور الروائى خيانة أحد هؤلاء الخونة المصريين فى مخاضة سلمون . وقد مهد لما سيحل بالمسلمين فى مشهد دال ، موح بأن شيئاً خطيرا وشيك الوقوع .

« كان الليل أسود السحنة ، قاتم الجلباب والمسلمون فى الضفة الجنوبية للبحر الصغير فى سكون وهدوء ، لايفكرون فى شىء اللهم إلا قضاء وقت قصير للراحة »(١) فأتاهم الشر من حيث لم يحتسبوا .

على أن ثمة ملاحظة نقدية ترتبط بمشاكلة لغة الرواية للواقع . إذ كيف يتسنى للغجرية التخاطب مع ما هو معروف من اختلاف فى لغة الغزاة وقس عليها بقية الشخصيات . وكان من الممكن أن يتم التخاطب من خلال وسيط مشترك كأن يكون قد زار الشرق من قبل سواء للتجارة أو الحرب . إذ أن ذلك لو تم لأوحى للقارىء بالرمز الكامن وراء عجز لغة التخاطب عن « التواصل » ومن ثم يتجسد الرمز الحى وكأنه تعبير عن العجز أو الفشل فى التفاهم العام مما يؤدى إلى استمرار نشوب الحرب بينهما(٢).

كما أن الرواية لم تبرأ من النبرة الخطابية الحماسية : ومن ثم ، أوشكت أن تفقد العمل الروائى عنصر الصدق فى مواضع عديدة من الرواية . ويبقى تمجيدها لصاحب الفضل الأصيل فى النصر « الشعب » فالحكام والسلاطين أمواج متلاطمة سرعان ما تتلاشى ليبقى التيار التحتى — الشعب يستمر فى الفعل والعطاء .

---

(١) الرواية ، ص ١٣٠

(٢) سبق أن أبدى « يوسف الشارونى » هذه الملاحظة فى دراسته النقدية لرواية « على شلش » (ثمن الحرية) .

أنظر ، دراسات فى الرواية والقصة القصيرة ، (الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧) ، ص ١٠٦ ، ١٠٧

القسم الثالث

عين جالوت وانكسار الهجمة التترية

« يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين »

(السلطان قطز لأمراء المماليك)

هزيمة التتر فى عين جالوت بين التاريخ والرواية

أولا : الخلفية التاريخية لرواية « واسلاماه »

جنكيزخان وتأسيس إمبراطورية التتر – الهجمة التترية صوب الغرب الاسلامى (فارس العراق الشام) – الموقف فى الشام ومصر – التهديد التترى لمصر واستعداد المصريين للحرب – معركة عين جالوت – النص التاريخى

استطاع «جنكيز خان» أن يبنى أمبراطورية مترامية الأطراف ، أمتدت حدودها من بحر قزوين حتى شواطىء الصين . ومنذ بداية القرن الثالث عشر كانت جموع القبائل التترية قد خرجت من موطنها فى وسط آسيا وأخذت تجتاح البلاد القريبة منها . وبينما كان معظم المقاتلين فى هذه الجيوش الرهيبة من الترك كان قادتهم من التتر . وحتى ذلك الحين لم يكن لأبناء القبائل التترية المقاتلة أى اتصال بالحضارة الإسلامية على المستوى الإيجابى :

وكان أول صدام بينهم وبين العالم الإسلامى فى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) ، حين أغاروا على بلاد السلطان « علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش » . وبعد ذلك بخمس سنوات وصلت قواتهم إلى مدن « قم » ، و « قاشان » ، و « همدان » فى فارس . إلا أن السلطان جلال الدين استطاع فى العام التالى أن يسترد منهم هذه البلاد . ثم حدث خلاف بين هذا الملك وبين الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، مما أدى إلى قيام جلال الدين بن خوارزم شاه بمهاجمة أراضى الخلافة . ثم مات الخليفة فى ٢ شوال سنة ٦٢٢ هجرية ، ولكنه قبل وفاته كان قد أرتكب خطأ فادحا ، حين استعان بالتتر ضد جلال الدين الذى كانت مملكته هى الوحيدة القادرة على صد الموجة التترية المدمرة .

ومن ناحية أخرى ، فإن جنكيز خان مات سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) ، ولكنه كان قد قسم إمبراطوريته الشاسعة بين أبنائه الأربعة قبل موته : وبعد

ذلك بسنوات ثلاث قضى التتر على مملكة جلال الدين بن خوارزم شاه . واختفى جلال الدين خوفا من التتر الذين أخذوا يطاردونه .

وكان استيلاء التتر على بلاد السلطان جلال الدين (كرمان فى جنوب فارس) بمثابة نذير الخطر الداهم المحدق بالعالم الإسلامى ؛ فأرسل الخليفة العباسى المستنصر بالله يستنجد بملوك بنى أيوب فى مصر ، كما أرسل يستنجد بالعربان . وفى ذلك الحين كانت جحافل التتر قد وصلت إلى أعالى العراق ، واستولت على بعض مناطق الخلافة العباسية .

وظلت الجموع التترية القوية تطوى بلاد الشرق الأدنى فى سرعة غريبة . والجدير بالذكر أن جيوش التتر القوية — التى لا يمكن مقارنتها من حيث التنظيم العسكرى وتسليحها بجيوش حكام الشرق الأدنى الضعيفة — كانت تضم أعدادا هائلة من المقاتلين ، فإن بعض الباحثين يقدر قوات هولاكو التى هاجمت الخلافة العباسية بسبعين ألف مقاتل .

ومرة أخرى أرسل الخليفة العباسى يستنجد بملوك بنى أيوب فى مصر . وبالفعل بعث إليه السلطان الكامل مساعدة مالية كبيرة ، كما أمر بتجريد نجدة من عشرة آلاف رجل من مصر والشام لمساعدة الخليفة . وكان الهجوم التترى الأول على بغداد سنة ٦٣٥ ﻫ ولكن التتر لقوا هزيمة شنعاء فانسحبوا مخلفين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى . ألا أن ذلك لم يمنع هذه الجموع المدمرة الظالمة من مواصلة غاراتها فوصلت جيوشهم إلى آسيا الصغرى واستولوا على بعض مناطقها .

وفى سنة ٦٤٩ ﻫ (١٢٥١ م) اجتمع مجمع رؤساء التتر « القوريلاى » فى عاصمتهم قراقوم وانتخبوا منكوخان بن تولاى بن جنكيزخان » خانا أعظم على التتر . وفى السنة التالية أرسل منكوخان حملتين عسكريتين ، إحداهما إلى الصين ، والثانية — وهى التى تهمنا — بقيادة أخيه « هولاكو » إلى الغرب

لتحقيق هدفين رئيسين : القضاء على طائفة الاسماعيلية ، وتدمير الخلافة العباسية فى بغداد . وقد تمكن هولاكو من تدمير طائفة الاسماعيلية وقبض على آخر رؤسائها وأرسله إلى قراقوم حيث قتله منكوخان .

وتوغلت قوات هولاكو فى سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) فى مناطق ديار بكر وميافارقين حيث قتلت آلاف السكان ، وارتكبت الفظائع ، وقامت بالسلب والنهب ، وسبت أعداداً كبيرة من النساء والأطفال .

وبدأ هولاكو يمهد للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد . وتشير بعض المصادر التاريخية العربية إلى أن هولاكو قد أرسل عدداً من جواسيسه إلى عاصمة الخلافة العباسية حيث عقدوا اتفاقا مريبا مع الوزير ابن العلقمى وبعض الأمراء « والخليفة فى لهوه لايعبأ بشىء » .

على أية حال ، جاءت سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٤٨ م) لتشهد حدثا زلزل أركان العالم الإسلامى . وانجلى هذا الحدث عن تغيرات كبيرة فى موازين القوى داخل العالم الاسلامى خاصة ، والعالم المعروف آنذاك عامة . ففى أول صفر من هذه السنة أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد . وفى اليوم الرابع سلم الخليفة العباسى نفسه وعاصمته دون قيد أو شرط . وبعدها بعشرة أيام قتل الخليفة وولداه . وأعمل التتر سيوفهم فى المسلمين ، وفر كثيرون إلى شتى أنحاء الأرض . ويحكى المؤرخون أن دماء الضحايا الكثيرين كانت تجرى فى طرقات المدينة التى كان اسمها يوما ما مرادفاً للحضارة والثقافة والفن الراقى . وظلت بغداد نهباً لكل الرغبات الوحشية والتدميرية على مدى أربعين يوما ، صارت بعدها أطلالاً تنعى من بناها بعد أن خرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد ، وأحرقوا مبانيها الجميلة ، ودمروا مكتبتها الغنية . وكانت تلك هى المرة الأولى التى تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة لغير المسلمين .

وبدأ الزحف التترى المدمر يطوى البلاد حتى وصل إلى مشارف الشام . وفى تلك الأثناء كان أمراء الأيوبيين فى الشام – بكياناتهم السياسية الهزيلة –

غارقين فى حروبهم ومنازعاتهم الداخلية . بل إن الملك الناصر حاكم مدينة دمشق أرسل أبنه إلى هولاكو محملا بالهدايا طالبا مساعدة التتر له فى استرداد مصر من المماليك . كما خرج المغيث عمر حاكم الكرك لغزو مصر ، ولكن الجيش الذى جرده لهذا الغرض لقى هزيمة فادحة من جيش المصريين .

وفى مصر كانت دولة سلاطين المماليك الناشئة ما تزال تحاول تثبيت جذورها فى تربة المنطقة ، كما أن هيكلها كان ما يزال فى طور التكوين ، فقد مات المعز أيبك مقتولا ، ثم تبعته زوجته « شجر الدر » التى قتلها مماليك أيبك انتقاما لسيدهم . وتولى الحكم طفل صغير هو « الملك المنصور على بن المعز أيبك » بمساعده « قطز » نائب السلطنة الذى كان هو الحاكم الفعلى للبلاد . والجدير بالذكر أن هذا الموقف سوف يتكرر كثيراً خلال عصر سلاطين المماليك الذى قامت النظرية السياسية فيه على أساس أن الحكم دائماً لأقوى سلاطين المماليك وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، ولم يعترفوا بمبدأ الوراثة فى الحكم : بل إنهم كانوا يولون الحكم أحياناً لطفل صغير ، هو ابن السلطان المتوفى ، ريثما ينتصر أحد أمراء المماليك فى صراعه ضد الآخرين ؛ فيعزل السلطان الطفل ويتولى مكانه .

على أية حال ، فإن هذه الفترة شهدت عودة المماليك البحرية من بلاد سلاجقة الروم ، التى كانوا قد فروا إليها بعد مقتل كبيرهم أقطاى على يد « أيبك » ، لكى يشاركوا فى الحرب ضد التتر .

وفى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) كانت جحافل التتر قد اجتاحت بلاد الشام ووصلت فى تقدمها حتى غزة ، وبدأت طبول الحرب التترية يتردد صداها فى مصر . وعقد قطز نائب السلطنة اجتماعا حضره قاضى القضاة والشيخ « عز الدين بن عبد السلام » الذى أفتى بأنه لايجوز أخذ أموال الناس بحجة الاستعداد للحرب إلا إذا أخرج الحكام والمماليك كل ما لديهم من أموال وممتلكات لهذا الغرض . وانتهز قطز الفرصة فعزل السلطان الطفل

المنصور علي بن أيبك » وتولى سلطنة البلاد تحت اسم « السلطان المظفر قطز » فكان ثالث سلاطين المماليك بعد « شجر الدر » « وأيبك » وقد ساعده على تنفيذ ذلك أن المماليك البحرية كانوا قد يئسوا من السلطان الطفل « لكثرة لعبه بالحمام ، ومناقرته بالديوك ، ومعالجته بالحجارة ، وركوبه الحمير الفره بالقلعة ، ومناطحته بالكباش » .

ثم وصلت رسل التتر تحمل إنذاراً شديد اللهجة وتهديداً سافراً للسلطان قطز . وقد رفض قطز قبول تهديدات هولاكو ، وقتل رسله الأربعة وعلق رؤوسهم على باب زويلة من أبواب القاهرة . وأخذ يستعد للمعركة المرتقبة ضد هذا العدو المخيف : وسارت الجيوش المصرية النظامية والمجاهدون والمتطوعون من عامة المصريين وغيرهم من المسلمين تلبية لدعوة الجهاد التي أطلقها السلطان لصد الهجوم التترى . وخرجت الجيوش المصرية للقاء القوات التترية التي كانت قد ملأت الدنيا رعبا ، وبثت الذعر في النفوس . وفي « عين جالوت » انتصر المصريون وانكسر هذا المد الطاغي ، وأنقذت الحضارة الإسلامية من خطر داهم مدمر .

وقد كانت هذه الأحداث التاريخية هي الأساس الذي بنى عليه الروائي « علي أحمد باكثير » روايته الشهيرة « وإسلاماه » . وعلى الرغم من أن الروائي قد أشار في مقدمة روايته إلى أن القصة تحكي عن فترة هامة من تاريخ المصريين ، يمكن التعرف من خلالها على أحوال العالم الإسلامي وهو يقع بين شقي الرحى : التتر في الشرق ، والصليبيون في الغرب ، إلا أنه بنى روايته حول شخصية قطز منذ كان طفلا يلعب في سهول وو ديان بلاده الأصلية حتى قاد المعركة ضد العدوان التترى في عين جالوت . والخطير في هذا التناول أنه ينزل بهذا الحادث التاريخي الهام إلى مستوى الانتقام الشخصي لأحد أفراد أسرة جلال الدين بن خوارزم شاه من التتر الذين أنزلوا المصائب بأسرته ، وسببوا لأفرادها التشتت والتشريد في آفاق الأرض . ومن ناحية أخرى ، نجد أن الحوادث التاريخية كلها — وأحداث الرواية أيضاً — تدور حول شخصية قطز الذي يبدو وكأنه محرك التاريخ

من حوله : على أننا يمكن أن نلتمس لباكثير عذراً فى هذا ؛ فالواقع أن التاريخ قد ظل فترة طويلة قابعاً فى قصور الملوك والأباطرة والأمراء ، لقد كان التاريخ ربيباً للقصور وساكنيها يصحبهم إلى البلاطات حيث يتسمع أنباء الفتن والمؤامرات ، أو يفتش عن نصوص المعاهدات ، وينصت إلى محاورات المفاوضين ، كما يسعى فى ركب القادة إلى ميادين الحروب يستمتع بأصوات القتال ، ويحيي للمنتصرين ، ويلوم المهزومين . والواضح أن باكثير قد وقع فى حبائل هذه الرؤية القاصرة للتاريخ فجاءت روايته تحكى قصة قطز ، على الرغم من عنوانها المثير الموحى بحركة جهاد إسلامية عامة . بيد أن باكثير قد نسى ، فى غمرة اهتمامه ببطل روايته ، أن يعطى لمن ساهموا فى صنع نصر « عين جالوت » حقهم . ذلك أنه أهمل ، أوكاد ، دور الشعب المصرى وجموع المتطوعين والمجاهدين الذين ذكرت بعض المصادر التاريخية أن أعدادهم كانت تفوق أعداد فرق المماليك فى الجيش النظامى . كما أنه لم ينجح فى تصوير رد الفعل فى الشارع المصرى ، لأخبار الزحف التترى والفظائع التى ارتكبها جنود هولاكو . فضلا عن أنه ألقى كثيراً من الظلال حول شخصية بيبرس البندقدارى الذى لعب دوراً هاماً فى صد العدوان التترى ، كما كان له فضل تنظيم المقاومة ضد حملة لويس التاسع قبل ذلك بعشر سنوات . والدليل على إهمال باكثير لشخصية بيبرس ، أنه لم يشر إلى سجايا هذا الرجل الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك .

وفى الصفحات التالية اخترنا نصاً تاريخياً ، يعالج بشىء من التفصيل ، بعض أحداث هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر والعالم الإسلامى .

ويتناول هذا النص الإنذار أو رسالة التهديد التى أرسلها هولاكو متوعدا مهدداً بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ورد الفعل من جانب دولة سلاطين المماليك البحرية واستعدادها للقاء هذا العدو المرعب . كما يوضح تخاذل أمراء المماليك فى الخروج إلى القتال ، وهو أمر يمكن تفسيره فى ضوء

الحقيقة القائلة بأنه لم يكن ثمة ما يهم أولئك الغرباء من أمر مصر سوى ما يجنونه من مكاسب شخصية . كما أن شهرة التتار كقوة لا تقهر جعلت المماليك لا يتحمسون للقاء عدو قوى فى قتال لا يضمنون نتيجته . ومن ناحية أخرى يكشف النص عن إخلاص بعض أفراد هذه الطائفة وحماستهم للدفاع عن الإسلام : فها هو قطز يستميت فى توفير الاستعدادات ، وحث المماليك على القتال ، وها هو بيبرس الهارب فى الشام يطلب الأمان لكى يعود محارباً ضد التتار . على أن أهم عنصر فى النص هو الذى يكشف عن حماسة عامة المصريين فى الدفاع عن دينهم وبلادهم .

وكانت نتيجة انتصار الجيوش المصرية فى عين جالوت أن توطد حكم دولة المماليك البحرية ، فقد ظهر المماليك بمظهر حماة العالم الإسلامى والقوة الوحيدة المدافعة عنه بعد سقوط الخلافة العباسية . وفى العام التالى لهذا الانتصار أعاد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، وذلك ليضفى على دولته سمة شرعية كانت ما تزال تفتقر اليها .

النص(١)

« . . . وفيها(٢) وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه :

« من ملك الملوك شرقاً وغربا ، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا(٣) إلى هذا الإقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤٢٧ ، ص ٤٣٢ .

(٢) سنة ٦٥٨ هجرية (١٢٦٠ ميلادية) .

(٣) هذه إشارة إلى أصل السلطان قطز الذى يرجع المؤرخون أصله إلى أسرة السلطان جلال الدين خوارزم شاه وأن اسمه الأصلى محمود بن ممدود . وقد أسر فى حرب السلطان جلال الدين ثم اشتراه السلطان المعز أيبك فى دمشق . (أنظر : ص ٤١٧ حاشية ، فى هذا الجزء من السلوك – ولمزيد من المعلومات انظر : Encyclopaedia of Islam : art. kutuz

كان بسلطانه بعد ذلك : يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ؛ وسلطنا ، على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم . قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب . فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولاتعفون عند كلام ، وخنتم العهود والإيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة . وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل . وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها . فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرازا . وتدهون منا بأعظم داهية . وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم . وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم . وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى . وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها هلاون (١) قد أتى　　بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منهم أذلــة　　ويلحق أطفالا لهم بالأكابر »

« فجمع قطز الأمراء ، واتفقوا على قتل الرسل والسير إلى الصالحية : فقبض على الرسل واعتقلوا ، وشرع فى تحليف من تخيره من الأمراء ، وأمر بالمسير ، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة فى لقاء التتر . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل يريد الصالحية » .

« وفيه أحضر قطز رسل التتر ، وكانوا أربعة : فوسط (٢) واحدا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، وسط الرابع بالريدانية . وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، وهذه الرءوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتــار . وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل وجعله من جملة مماليكه » .

« ونودى فى القاهرة ومصر(٣) ، وسائر إقليم مصر ، بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ، ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر ، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع . وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر . فطلب الأمراء وتكلم معهم فى الرحيل ، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل فقال لهم : يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال

---

(١) هذه صيغة من صيغ اسم هولاكو ، ويشير بها إليه كثير من المؤرخين « هامش للدكتور زيادة السلوك ، جـ ١ - ق ٢ ص ٤٢٨) .

(٢) التوسيط شكل من أشكال تنفيذ عقوبة الاعدام زمن المماليك وكان المحكوم عليه يعرى من ثيابه ثم يضرب بالسيف ضربة قوية تحت السرة تقسمه نصفين - (عن العقوبات والسجون زمن المماليك أنظر سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك : ص ٩٧ ، ص ١٠٠) .

(٣) يقصد بها الفسطاط .

وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه للجهاد فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين ، فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير ، فلم يسع البقية إلا الموافقة وانفض الجمع » .

« فلما كان في الليل . ركب السلطان ، وحرك كوساته وقال : أنا ألقى التتار بنفسي . فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره . وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر ، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر ، فرحلوا عند نزوله ، وملك هو غزة » .

« ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوما ، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا ، وبها يومئذ الفرنج ، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة (١) ، فشكرهم وأخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر » .

« وأمر الملك قطز بالأمراء فجمعوا ، وحضهم على قتال التتر وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق ، وخوفهم وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله . فضجوا بالبكاء ؛ وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد . فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس

---

(١) ربما يكون سبب هذا الموقف هو الإحساس بالخطر كعدو مشترك ، وربما يكون السبب راجعا إلى إحساس الصليبيين بضعفهم أمام المسلمين ورغبتهم في تجنب عدائهم ، لا سيما وأن القوة الصليبية في الشام كانت قد بدأت مرحلة التدهور منذ حروب صلاح الدين ؛ وتكفل سلاطين المماليك بمتابعة الحرب ضد الصليبيين حتى استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا سنة ٦٩٠ هجرية (١٢٩١ م) لينهي الوجود الصليبي في الشام بعدة معارك صغيرة بعد ذلك .

البندقدارى بقطعة من العسكر ، فسار حتى لقى طليعة التتر . فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك . وأخذ فى مناوشتهم . فتارة يقدم وتارة يحجم إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت(١) » .

«وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو (٢) ؛ لما بلغهما مسير العساكر المصرية جمعا من تفرق من التتر فى بلاد الشام ؛ وسارا يريدان محاربة المسلمين ، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها . فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى رمضان ألتقى الجمعان ، وفى قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر ، وذلك بعد طلوع الشمس . وقد امتلأ الوادى وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتر إلى الجبل . فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : وا إسلاماه ، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر ، وقتل بعده الملك السعيد حسن ابن عبد العزيز وكان مع التتر . وانهزم باقيهم ، ومنح الله ظهورهم للمسلمين يقتلون ويأسرون . وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان» .

« ومما اتفق فى هذه الوقعة ، أن الصبى الذى أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه كان راكبا وراءه حال اللقاء . فلما التحم القتال فوق سهمه نحو السلطان فبصر به بعض من كان حوله فأمسك وقتل فى مكانه وقيل بل رمى الصبى السلطان بسهمه فلم يخطىء فرسه وصرعه إلى الأرض ، وصار السلطان على قدميه فنزل إليه فخر الدين ماما وأركبه فرسه ، حتى حضرت الجنائب فركب فخر الدين منها » .

---

(١) بلدة صغيرة فى فلسطين تقع بين بيسان ونابلس .

(٢) كان هولاكو قد عاد إلى عاصمة امبراطورية المغول وترك كتبغا وبيدرا لينوبا عنه فى قيادة الجيش .

« ومر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان ، فرجع التتر وصافوا مصافة ثانيا أعظم من الأول ؛ فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ؛ وكان قد تزلزل المسلمون زلزالا شديدا فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : وا اسلاماه « ثلاث مرات » يا الله انصر عبدك قطز على التتار » فلما ، انكسر التتار » الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم » ؟

« فورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشريه ، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار إلى القاهرة . . . » .

ثانياً : وا اسلاماه *

على أحمد باكثير

الرؤية . . . والبناء الفنى

« قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .
« قرآن كريم »

الرؤية :

تصور هذه الرواية بطلا من أبطال التاريخ الإسلامى ، جاء على قدر لينقذ الإسلام والمسلمين ، الملك المظفر « قطز » .

والموضوع الروائى الذى تعالجه الرواية ، يستمد مادته الأساسية من الحدث التاريخى . . « معركة عين جالوت » حيث كسر المسلمون شوكة التتار . ولم يكن نصراً عسكرياً فقط ذلك الذى أحرزه المجاهدون المسلمون ، بل كان تجسيداً حياً لدور الإسلام ، والحضارة الإسلامية ، فى صد الطوفان التترى وإنقاذ الإنسان ، والإنسانية حسبما شئت من تخصيص إنسانى ، أو تجويد فلسفى .

وقد أشار الروائى « على أحمد باكثير » إلى موضوع روايته فى مقدمته بقوله : « هذه قصة تجلو صفحة رائعة من صفحات التاريخ المصرى فى عهد من أخصب عهوده وأحفلها بالحوادث الكبرى والعبر الجلى يطل منها

(*) ظهرت الطبعة الأولى من رواية « وإسلاماه » عن دار الكتاب العربى بمصر ١٩٤٩ .
كما ظهرت الطبعة الثانية عن نادى القصة ، سلسلة الكتاب الذهبى ، العدد الرابع ، سبتمبر ١٩٥٢ ، وهى الطبعة التى اعتمدت عليها فى هذه الدراسة النقدية . أما الطبعة الثالثة ، فقد ظهرت عن دار مصر للطباعة ، ١٩٦٥ .

القارئ على المجتمع الإسلامي فى أهم بلاده من نهر السند إلى نهر النيل وهو يستيقظ من سباته الطويل على صليل سيوف المغيرين عليه من تتار الشرق وصليبيي الغرب . فيهب الكفاح والدفاع عن أنفس ما عنده من تراث الدين والدنيا »(١) ؛

وإذا كان الحس التاريخي عند « نجيب الكيلانى » قد أكد على دور الكفاح الشعبي فى الحركة الاجتماعية المتدافعة فى الداخل ، وفى صد الموجات الصليبية القادمة من الخارج ، فإن « على أحمد باكثير » قد انطلق من تصور نظرى يؤمن بدور الفرد فى التاريخ . الإيمان بدور الفرد بوصفه المحرك الفعال فى دفع الأحداث وترجيح كفة النصر .

فصورة « البطل المخلّص » ، البطل الكارزما للذى يستقطب الجماهير ويحركها نحو هدف موحد ، ركيزة محورية فى الفكر النظرى لـ « على أحمد باكثير » عن البطولة ودور الفرد فى التاريخ . وقد بدت هذه الرؤية النظرية فى طبيعة البنـــاء الفنى لرواية «وا إسلاماه » فجاء معتمداً على شخصية محورية ، هى شخصية البطل المظفر « قطز » ، وقد بدت صورة البطل محاطة بهالة نورانية تستمد نورها من حرارة الفكرة الإسلامية عن « **الجهاد الدينى**» .

البناء الفنى :

وقد اتسم بناء الرواية ، باعتماده على هــذه الشخصية المحورية التى تتضافر بقية الشخصيات من خلال المواقف والأحداث فى إلقاء الأضواء على أبعادها ؛

كما أن المتأمل فى البناء الروائى ، يستطيع أن يدرك أن ثمة مؤثرات شعبية يلمحها القارئ الفاحص لنسج البناء الروائى . إذ يعتمد على قالب أو شكل السيرة الشعبيـــة ، من حيث توفرها على رسم ارهاصات ظهور البطل ،

---

(١) الرواية ، ص ٥ .

والتماس مواضع البطولة التى هيأت له الطريق لكى يتقـلد السلطة ،

والإرهاص بظهور البطل يتفق مع ظاهرة تاريخية لاحظها المؤرخون إبان بعض مراحل تاريخ التدوين التاريخى(١) .

أما عن طبيعة الرواية هنا فقد تميز البناء الروائى ، باعتماده على أدوات فنية يستخدمها الخيال الشعبى فى السير الشعبية . أعنى النبوءة والرؤيا أو الحلم . وإن كان هناك شىء من تطور فى توظيف الروائى لهاتين الأداتين فنياً .

---

(٢) ثمة تأويل تاريخى لهذه الظاهرة التى يشترك فيها التاريخ ، فى المراحل الأولى من التدوين التاريخى ، مع الأدب الشعبى ، مثلا فى السير الشعبية . والمؤرخون لا يجدون غرابة فى هذه الظاهرة التاريخية – وما يوازيها فى الموروث الشعبى القصصى – فـ « التاريخ فى العصور الوسطى وشطر من العصور الحديثة يكاد يكون مقصوراً على تاريخ الملوك والحكام والأعيان د. سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، (أعلام العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، العدد ١٤ ، فبراير ١٩٦٣) ، ص ١٦ ..

وما يبرر الوقوف أمام هذه الظاهرة ، أن الشخصية المحورية فى هذه الرواية ، لها وجود تاريخى بالفعل . كما أنها تشترك ، من حيث الشريحة الاجتماعية التى تمثلها ، مع كثيرين من أبطال التاريخ الإسلامى فى تلك الحقبة من الحضارة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) .

وقد اتسم المنحنى الشخصى "تاريخ" هؤلاء الحكام والأبطال والقادة بقدر من الغموض ، خاصة وأنهم مجلوبون من بقاع شتى من الأرض . وأمكنهم ، بفضل ما تميزوا به من روح عسكرية أتاحت لهم ، فى ظل نظام إقطاعى عسكرى دقيق ، تحقيق مطامحهم فى الوصول إلى قمة السلطة . وهذا ما حدا بكل من المؤرخ فى تلك الفترة والقصاص الشعبى – على اختلاف فى بواعثهما ، فالأول يلتمس الحقيقة وينشدها . ومن ثم ، فهو يستخدم الأدوات المتاحة أمامه لكى يقترب منها حقيقة ، والاعتماد على الأسطورة والخيال ، أداة من الأدوات التى يتوسل بها لتحقيق هدفه . أما القصاص الشعبى فهو يمجد البطولة الفردية ، ويعبر عن وجدان جمعى ، ومن ثم ، فهو يعتمد على الخيال ليصور أحلام الشعب فى البطل المخلص وأن يسد الثغرات المجهولة فى حياة البطل أو الشخصية التى يؤرخ لها أو يصورها فى السير الشعبية ، مما دفعها إلى التماس مواضع البطولة ، ونسج القصص الخيالى حول نشأة البطل . راجع : د. عبد الحميد يونس الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ، (المكتبة الثقافية ، العدد ٣) ، ص ٦١ .

ونود أن نشير إلى أن الاهتمام بالرجل العادى ، جاء متأخراً بفعل ظهور الطبقة البورجوازية على مسرح الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . بقول آخر بفعل تغير شكل العلاقات

« وا إسلاماه » تقدم إجابة روائية للنبوءة التى اعتمد عليها الروائى فى تصويره لميلاد البطل ، وظهوره ، وانتصاره المؤزر على التتار . على أن الرواية تطرح هذه الإجابة فى إطار التصور الإسلامى « للحرية الإنسانية » . ومن ثم ، فالشخصية الروائية فى هذه الرواية ، تتنفس ، وتحيا ، وتتحرك فى جو إسلامى خالص . صحيح أنها تتحرك بإرادتها ، وحريتها ، وتتخذ قرارها ، ويقوم « الفعل الإنسانى » بدور مؤثر ، إلا أن هذا الفعل مشدود بفعل الإرادة الإلهية . . فلا يحسب الإنسان أن يترك سدى .

وثمة فارق رهيف بين تناول « باكثير » للنبوءة فى روايته « وا إسلاماه » وبين تناول القصـــاص الشعبى للنبوءة فى السيرة الشعبية ، فالروائى المعاصر « باكثير » حين يستخدم النبوءة إنما يستخدمها فى إطار محدود ، بوصفها عنصراً تأليفياً « motif » فى بناء الرواية ، يصور الروائى من خلالها ، بزوغ نجم « البطل المخلِّص » .

أما القصاص الشعبى فيتسع خياله الخالق ويعتمد على « الخيال المطلق » فينطلق فى الزمان والمكان ويتوسل لتحقيق نبوءته بالقوى الغيبية ، وبالإنس والجن ، مما يند عن العقـــل ، هنا يختلط المعقول باللامعقول فى الأثر الأدبى الشعبى . بخلاف استخدام « باكثير » الذى يدور فى إطار إسلامى كما سنرى

= الإنتاجية وما استتبع ذلك من ملابسات دفعت الشخصية البورجوازية إلى قلب الأحداث ، تؤثر فيها ، وتتأثر بها .

وثمة خطان متوازيان ، النظرة إلى التاريخ بوصفه تاريخاً للملوك والحكام والقادة . وهى نظرة يكشف عنها « أبو المحاسن » فى قوله عن أحد الأفراد عرض له فى تاريخه « وقد أضربنا عن شرح ما حدث له لأنه لم يكن من أعيان الناس فتشكر أفعاله أو تذم » . أبو المحاسن ، حوادث الدهور . جـ ٢ ، ص ٢٤٤ . ويواكب هذه النظرة فى التراث الأدبى ، إستلهام الشخصيات التاريخية بتصويرها فى الأجناس الأدبية (رواية ، مسرحية) إحياءاً أو تمجيداً لوجدان دينى أو حس قومى . حتى إذا تغيرت النظرة إلى التاريخ بوصفه تاريخاً لكفاح الشعوب وأن الشعب هو البطل الحقيقى — الجندى المجهول — وجدت هذه الفكرة تجسيداً لها فى الالتفات نحو الإنسان العادى . وأصبحت النزعة العادية — الـ « normality » هى مطلب الروائى والفنان للوصول إلى التوازن المنشود بين الفرد والمجتمع .

عند تناول المصادر الإسلامية فى التشكيل الفنى أو بناء الشخصيات فى الرواية :

تقول النبوءة – على لسان الراوى فى الرواية – «كان جلال الدين كأغلب ملوك عصره مولعاً باستطلاع النجوم : فهو يستشير المنجمين كلما هم بأمر عظيم . فلما أراد المسير لقتال التتار بعث إلى منجمه الخاص فحضر عنده ، فأمره بالنظر فى طالعه ، فقال له المنجم : « أنك يا مولاى ستهزم التتار ويهزمونك وسيولد فى أهل بيتك غلام يكون ملكاً عظيماً على بلاد عظيمة ، ويهزم التتار هزيمة ساحقة »(١) :

وعلى نول هذه النبوءة ، مضى الروائى يغزل مادته التاريخية فى نسجه الروائى . وقد تأثر البناء الروائى ، سواء فى سرد الأحداث أم فى تصوير الشخصيات : بهذه النبوءة بدرجة ما . إذ شغلت الفصول الأربعة الأولى من الرواية ، القسم الأول من النبوءة حيث صور « باكثير » جهاد « جلال الدين ابن خوارزم شاه » للتتار ، وانتصاره عليهم ، ثم اندحاره ، وهلاك أهله « إلا ابنته « جهاد » وابن شقيقته « محمود بن ممدود » : وهما الشخصيتان اللتان يقوم عليهما بناء الرواية – إلى جانب شخصيات أخرى – ووفقاً لما تحكيه النبوءة فقد تحقق القسم الأول منها .

أما « جهاد » و « محمود » فقد وقعا فى قبضة نخاس باعهما فى سوق النخاسة . وتبدلت حياتهما من بعد أمن خوفاً ، ومن بعد عز ذلة وانكسارا : لكن القصة لم تتم فصولها بعد إذ أن النبوءة تقول إن النصر وهزيمة التتار ستكون على يد رجل من بيت جلال الدين بن خوارزم شاه : فلنتابع البطل فى رحلته فى الزمان ، والمكان :

---

(١) الرواية : ص ١١ . ومعلوم أن الفكر الإسلامى أدان التنجيم . «كذب المنجمون ولو صدقوا » . وفى الساحة الأدبية شجب « أبو تمام » فى رائعته البائية التى مدح بها « المعتصم » عندما فتح عمورية ولم يستمع لآراء المنجمين فى قصيدة مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وخلال مشاهد روائية امتدت من الفصل الخامس حتى الفصل التاسع عالج فيها الروائى تقلب للبطل « محمود » أو « قطز » كما سمى بعد أن أصبح مملوكاً و « جهاد » أو جلنار ، تقلبهما فى البلاد إلى أن انتهى بهما المطاف فى مصر مملوكين من مماليك عز الدين أيبك . وهذه المرحلة بمثابة «سفر التكوين» فى حياة بطل الرواية . حيث اختلف إلى شيخ الإسلام «عز الدين بن عبدالسلام» الذى كان حجة عصره فى القول والعمل .

وقد استخدم الروائى أداة فنية وهى « الرؤيا » . وهى بوصفها أداة فنية ، يطرح من خلالها الروائى ، رسالة البطل ودوره فى التغيير الاجتماعى والسياسى الذى يمهد للإعداد العسكرى ، والنصر على التتار . كما أنها — الرؤيا — تساعد على تطوير الحدث الدرامى ليواكب ما يطرأ على الشخصية من تغير ، أو تغيير . وبهذا نقترب من الشخصية المتطورة ، المقنعة فنياً .

مضى البطل يقص رؤياه على شيخه « عز الدين بن عبد السلام » قال : أرقت البارحة ونابنى ضيق شديد ، فقمت فتوضأت وصليت النفل وأوترت ودعوت الله ، ثم عدت إلى فراشى فغلبتنى عيناى ورأيت كأنى ضللت طريقى فى برية قفراء ، فجلست على صخرة أبكى وبينما أنا كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت يتقدمها رجل أبيض جميل الوجه ، على رأسه جمة تضرب فى أذنيه ، فلما رآنى أشار لأصحابه ، فوقفوا وترجل عن فرسه ودنا منى فأنهضنى بقوة وضرب على صدرى ، وقال لى : قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصر فستملكها وتهزم التتار » .

« فعجبت من معرفته اسمى ، وأردت أن أسأله من هو فما أمهلنى أن ركب جواده فانطلق به فصحت بأعلى صوتى من أنت ! » .

فالتفت أحد أصحابه وهم ينطلقون فى إثره « ويلك هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وانتبهت من نومى وأنا أحس برد آنامله فى صدرى . . . » :

فسكت الشيخ هنيهة متعجباً من الرؤيا ، ثم قال « ما زلت تفكر فى الملك وهزم التتار يا قطز حتى أتاك النبى صلى الله عليه وسلم فبشرك بهما . إنها لرؤيا عظيمة كما ذكرت فإن تكن صدقاً فستملك مصر حقاً وتهزم التتار ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من رآنى فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى »(١) .

---

(١) الرواية : ص ٩٩ ، ١٠٠ .

والروائى هنا وإن كان يستخدم الرؤية بوصفها عنصراً تأليفياً « motif » إلا أنه يدور فى إطار التصور الإسلامى لمفهوم « الرؤيا » . وهو يحاول أن يطوع هذا المفهوم فى الأدب الشعبى ، حيث يختلط فيه المعقول واللامعقول ، ويتداخل الزمان والمكان . ويتوسل القصاص الشعبى لتحقيق رؤاه بالخيال المطلق والخيال المقيد .

أما فى رواية « وإسلاماه » فيقترب « باكثير » بفعل رواسب الفكرة الدينية فى وجدانه ، نحو مفهوم مغاير للتصور الشعبى للرؤيا . ويشى اعتماده على الحديث النبوى الشريف ، بالارتقاء بهذا التصور للرؤيا . وأنها بشرى من المصطفى صلى الله عليه وسلم بظهور « البطل المخلص » . ويشف الحديث عن توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها . وقد قال بعض العلماء : خص الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم بأن رؤية الناس إياه صحيحة ، وكلها صدق ، ومنع الشيطان أن يتصور فى خلقته ، لئلا يكذب على لسانه فى القوم ... » صحيح مسلم ، شرح النووى (طبعة دار الشعب ، جـ ٥) الحاشية ، ص ١٢٣ . فرؤياه صحيحة ليست بأضغاث ، ولا من تشبيهات الشيطان ، ويؤيد قوله رواية : « فقد رأى الحق الرؤية الصحيحة » المصدر نفسه .

وما دامت رؤيا الرجل الصالح ، بنص الحديث « رؤيا الرجل الصالح جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة » المصدر نفسه ، الحاشية ، ص ١١٩ ، فإن رؤياه — « قطز » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحيحة ومن هذا المنظور ، تجىء إرهاصاً بالأمانة التى سيهىء للقيام بها لإنقاذ الإسلام والمسلمين . كما يجىء تأويل شيخه ، « عز الدين بن عبد السلام » لرؤياه بشرى بالأمل المرتقب .

وما سبق محاولة لتعقب المصادر الإسلامية فى مكونات بناء الشخصية الروائية الإسلامية فى « واسلاماه » . وفى إطار تصور الحضارة الإسلامية لفكرة الإنسان الكامل ، تقترب الشخصية الروائية من هذه الفكرة . ومن صورة مرافقة لها صورة « العبد الربانى » ، (جند الله) .

وفكرة « الإنسان الكامل » — فى تبسيط شديد — تقوم على تصور أن « الإنسان حلقة الوصل المتوسطة ، (بين الله والعالم) ، والإنسان مفهوماً على هذا النحو ، بمثابة « خليفة » عن الله ، فيه تتجلى الألوهية أو يستمر تجليه خلال العصور ، أولا — بعد النبى — فى الولى =

لم يملك « قطز » إلا أن يتعهد لشيخه — إذا ما تحققت الرؤيا — بأن يشاوره فى كل ما يهم أمر المسلمين ، ويقيم الشرع ، وينشر العدل ، ويحيى ما أمات الناس من سنة الجهاد .

وها هى رسالة البطل قد تحددت . هنا رفع شيخ الإسلام « عز الدين ابن عبد السلام » يديه إلى السماء داعياً : « اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام »(١)

هكذا تكاملت شخصية البطل « قطز » وتحددت مسئوليته . فولاية أمر المسلمين ، خاصة فى مثل تلك الظروف أو المراحل العصيبة ، ليس تشريفاً بقدر ما هو تكليف بإقرار الحق ، وإعادة التوازن فى عالم ساده الفوضى ، واهتزت فيه القيم وانقلبت موازين الأشياء .

وكان دعاء شيخ الإسلام بأن يحقق الله رؤيا عبده « قطز » كما تحققت ليوسف عليه السلام ، بمثابة « اختزال فنى » لأحداث التاريخ ، حيث تلاحقت الصور التاريخيـــة ، بفعل تآزر الخيال والموروث الثقافى ، فى استحضار أيام « يوسف الصديق » . . وحكمته ، لإنقاذ مصر من الخراب الاقتصادى والإدارى . كما نسترجع نقاء « يوسف » وعفته . ويزداد اقترابنا من البطل « قطز » فى موقف الضعف ، بل الصدق الإنسانى ، عندما يدعو شيخه فى لحظة وجد أن يسأل الله « أن يتم عليه نعمته بالزواج من ابنة خاله وحبيبته جلنار » . هنا بشارة فنية ، وتاريخية فمصر ، كنانة الله فى أرضه ، كما قال « كعب الأحبار » : « من أرادها بسوء قصمه الله » ، ستهزم التتار بفضل قيادة قطز ؛ وستظل — كما كانت منذ أيام يوسف — عزيزة الجانب .

= خصوصاً ، وللأولياء طبقات معروفة يقوم على ذروتها القطب .. وهذا القطب يمثل الوحى الإلهى فى جيل كامل ، إن الولى الكامل هو بعينه الإنسان الكامل تماماً ، وهو خليفة الله فى الكون ، (شيدر ، هانز هنيرشى ، الإنسان الكامل فى الإسلام ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، النهضة المصرية ، ١٩٥٠) ، ص ٤٩ .

(١) الرواية : ص ١٠٠ .

وكما صرف الله عن « يوسف » السوء ، فسيجمع بإذنه تعالى شمل الحبيبين ؛ وقد كان .

على أن إيقاع الرواية ابتداء من الفصل الرابع عشر حتى الفصل السابع عشر ، يتدفق فى سرعة مؤذناً بتألق الدور العظيم للبطل المظفر « قطز » . وإن كان البناء لم يخل من صدع بفعل حشد تفاصيل معركة « فارسكور » . ويبدو أن الروائى قد انساق وراء التاريخ الروائى لحياة البطل وسيرته ، فمضى يسجل وقائع حياته . ولم يكن لهذه التراكمات من الأخبار التاريخية ، قيمة فنية ، خاصة وأنها لم توظف لخدمة البناء الروائى(١) وكان يمكن الاكتفاء باستلهام أحداث « عين جالوت » ، فى تصوير الفكرة الإسلامية التى يهدف إلى توصيلها للقارئ فكرة « الجهاد الدينى » . وهو قد وضع أيدينا على مطلبه من خلال مفتتح الرواية ، حيث صدرها بآية قرآنية من سورة التوبة تحث على الجهاد .

والمتأمل فى شخصيات هذه الرواية ، يلمس مقدرة الروائى فى دفع الأحداث ، وتدفقها تبعاً لما يطرأ على الشخصية من تغير ، أو تغيير . وقد ترك شخصياته تتصرف بوحى من ضميرها ، ومسئوليتها ورؤيتها لواقع الأمة الإسلامية ، وما ترددت فيه ، وما ارتضت من الحياة الدنيا ، ولن تصل الشخصية الروائية إلى ما تصبو إليه إلا من خلال إذكاء روح « الجهاد » وهذه القيمة النبيلة — هى فى التحليل الأخير — تكاد تكون هى مناط الأمانة أو مسئولية الإنسان فى تعمير هذا الكوكب . وهو مفهوم يرد فى الفكر الإسلامى إلى النظر إلى الإنسان بوصفه خليفة الله فى الأرض . وأن الله سبحانه جعلنا مستخلفين فيها . وفكرة الجهاد والاستخلاف وجهان لحقيقة واحدة هى : « الأمانة » أو المسئولية .

---

(١) راجع نماذج من حشد المعلومات التاريخية عن الغزو الصليبى ، ودور شجر الدر ، وعز الدين أيبك ، الصفحات من ١٣٣ إلى ١٣٧ ، ١٥٤ إلى ١٥٧ وهذه الصفحات ، وغيرها كثير ، لن تؤثر فى تماسك بناء الرواية إذا تجردت منها .

ومن آيات نجاح الروائي في تقديمه الشخصيات النامية ، تصويره لشخصية « قطز » ومحاولته تصوير ما طرأ على موقفه من إبنه خاله « جلنار » ، لم تعد نظرة تخلو من رغبة الرجل فى المرأة (١) .

وهو يصور بزوغ هذه العلاقة الوجدانية الطهور ، فى مشهد شفاف ، وقامت « المرآة » بوظيفة فنية إذ كشفت عن سحر « جلنار » وأنوثتها المتفتحة ، كما فضحت عيون « قطز » وما يكنه لها من حب .

كما قدم شخصية نامية كان لهـــا دور بارز فى الجهاد ضد المغول ، والصليبيين . وهى شخصية « بيبرس » وملاحظة سلوكها ، من خلال المنحنى الشخصى لحياة كل منهما تنبىء عن تباين فى طباعهما ومواقفهما(٢) ويبدو من تصويره للبطلين ، تعاطفه مع « قطز » وتبريزه له من واقع فعاله ومواقفه . وإدانته لمواقف « بيبرس » رغم تبريره كذلك لمــا صدر عن « بيبرس » من فعال وسلوك .

وما كان « قطز » بغافل عن فروسية « بيبرس » ومثالبه كذلك . وقد أراد أن يستثمر هذه الطاقة لصالح المسلمين . كما يستدل على ذلك من قوله ، وهو يحاور أقطاعى المستعرب : « أنا لا أريد أن أحرم المسلمين شجاعة هذا الرجل وقوته . وقد رأيت منه انبعاثا للخروج ورغبة صادقة فى قتال التتار ، ولعل الله ينصر به المسلمين نصرا موزرا » (٣) .

---

(١) راجع التصوير الروائى لهذا المشهد فى الصفحات ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) راجع الصفحات ٦٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩ . إذ تعكس تطور شخصية « بيبرس » كما صورها « على أحمد باكثير » وموازاة هذا الخط ، بما طرأ على شخصية « قطز » من تطور .

(٣) يعكس هذا الحوار مصدراً إسلامياً يرتبط بفكرة الإسلام للقيادة إذ « ... يتقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع ، وإن كان فيه فجور فيها ، على الرجل الضعيف العاجز ، وإن كان أميناً ، كما سئل الإمام أحمد : عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو ، وأحدهما قوى فاجر ، والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يغزى ؟ أما الفاجر القوى ، فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف ، فصلاحه لنفسه ، وضعفه على المسلمين ، فيغزى

على أن با كثير يدافع عن « قطز » ويبرر موقفه في رفضه منح « بيبرس » ولاية حلب تقديراً لبلائه في قتال التتار بأنه « لما عزم على النزول له عن الحكم كله وتوليته سلطانا على مصر مكانه لم يبق عنده موضع للوفاء للأمير بيبرس بما وعد » (١) وفي الوقت نفسه يبرز موقف بيبرس بحيث أنه ظهر في صورة الشخصية المناوئة للبطل وكاد أن يطمس ما فيها من جوانب الخير بحيث رجحت كفة الشر . وما كان من تدبيره لمقتل « قطز » (٢) .

والمؤرخون يرون أن موقف « قطز » اتسم بقصر النظر ، لأن المكانة التي أحرزها « بيبرس » في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان ، ولوكان قطز حكيما لألهى بيبرس بنيابة حلب ، وبذلك يأمن في منافسته له في مصر(٣) .

ويبدو أن « باكثير » ممن يمجدون البطولة الفردية المطلقة . ظهر ذلك في تعاطفه مع شخصية « قطز » وإبراز دوره في الجهاد الديني ضد الصليبيين

مع القوى الفاجر . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » « وروى بأقوام لا خلاق لهم » ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، (دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٥١) تحقيق على سامى النشار ، أحمد زكى عطية ، ص ١٤ .

والمفهوم السابق بما اتسم من واقعية تهدف صالح الإسلام والمسلمين . يضع شخصية « بيبرس » في إطارها الطبيعي ، والواقعي ، خاصة إذا نظرنا إلى خلفية الصورة ، في إطار عصرها وملابسات ذلك العصر لتذكرنا « . . . أنه كان يتصرف بروح العصر الذى عاش فيه فعلا والجو الذى تشبع به تشبعاً كاملا » ، د. سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٥ وهذا يخفف من إدانة « بيبرس » وقسوته في كثير من المواقف . غير أن الروائي « باكثير » – بحكم كونه أديباً فإذا صدر عن عاطفة وجدانية – كان أكثر ميلاً لقطز . وأشد قسوة على « بيبرس » وهو في هذا الموضع يتفق مع كثير من المؤرخين – أمثال ميور – الذين وصفوه بالظلم والغدر – راجع د. سعيد عاشور ، المرجع نفسه .

(١) الرواية : ص ١٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) راجع د. سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٣٤ ، د. محمد جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس .

ورغم أنه لم يقم بلدور رئيسى على نحو ما قام به بيبرس فى معركة فارسكور والتتار ، وقد أفصح عن هذا المبل فى مقدمة روايته « وا إسلاماه » : « وشاء الله أن تحمل مصر لواء الزعامة فى هذا الجهاد الكبير فتحمى تراث الإسلام المجيد بيومين من أيامها عظيمين كلاهما له ما بعده : يوم الصليبيين فى فارسكور ويوم التتار فى عين جالوت .

وبطلها الملك قطز يضرب بنزاهته وعدله ، وشجاعته وحزمه ، وصبره وحزمه ، ووفائه وتضحيته ، وحنكته السـياسة وكفايته الإدارية ، وإخلاصه فى خدمة الدين والوطن مثلا عاليا للحاكم المصلح والرجل الكامل .

وهى بعد شهادة ناطقة بأن فى هذا الشعب الوديع الذى يسكن على ضفاف النيل قوة كامنة إذا وجدت من يحسن استشارتها والانتفاع بها أتت بالعجائب ، وقامت بالمعجزات (١) وهكذا بدا « البطل قطز » فى صورة الكارزما "Charisma" .

وإذا كان « باكثير » قد صور « بيبرس » فى صورة قاسية ، فإن السيرة الشعبية التى حملت اسمه قد مجدت بطولته وصورته « فى صورة البطل ، كما ينبغى أن يكون فى أذهان الشعب وقتذاك . ومن ثم ، فقد جعلت السيرة « بيبرس » (المخلّص) ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو ، ويوزع الأمر بينهم بالقسط تسبقه الإرهاصات المنبئة بظهوره » (٢) .

على أن د . عبد الحميد يونس يعلق على صورة « بيبرس » كما رسمها الخيال الشعبى بقوله : وليس هناك شك فى أن القصاص قد حاول جهده

---

(١) الرواية ، ص ٥ .

(٢) د. عبد الحميد يونس ، الظاهر بيبرس ، فى القصص الشعبى (المكتبة الثقافية ، العدد رقم ٣) ، ص ١٩ .

أن يبرر بعض أعمال بيبرس التى لا تتفق مع الشهامة والخلق الكريم ، ولكنه لم يكن موفقا فى ذلك غاية التوفيق ، فالقارىء لمصرع توارن شاه وقطز لا يملك نفسه على رغم تحايل القصاص من الاشتباه فى بيبرس (١) وهو فى هذا يتفق مع رؤية « با كثير » .

وقد بدت لمسة الروائى الموفقة ، فى تصويره لهموم البطل الروحية بعد أن افتقد رفيقة عمره وكفاحه ، زوجته « جلنار » التى هتفت وهى فى حومة الوغى وقد سقطت شهيدة « لا تقل واحبيبتاه . قل وا إسلاماه » . بل لعل هذا الموقف الروحى يبرر افتقاده القدرة على اتخاذ قرار متوازن يقنع به « بيبرس » فى مطلبه .

و « با كثير » يقدم وثيقة نفسية رهيفة يدافع بها عن « قطز » ويؤكد فنيا أن ولاية أمر المسلمين أو الحكم والسلطنة ، كان بالنسبة لقطز مجرد تكليف ، يتسنى من خلاله تحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى انتصاره على التتار . وطالما أن هدفه قد تحقق على المستويين الحربى والسياسى . وطالما أنه فقد شريكة حياته . فما مبرر البقاء فى الحكم . هكذا كان يحاور البطل ذاته (٢) .

على أن الشخصيات الثابتة قد قامت بدورها المرسوم فى بناء الرواية . والشخصية الثابتة Flat كما يقرر النقاد ليست عيبا فى بناء الرواية، وإنما هى خاصية تسم الرواية وليست خطأ(٣) ولعل أبرز هذه الشخصيات الثابتة

---

(١) راجع تصوير الروائى الشفاف لهموم البطل وكيف بث شكواه فى الفصل السابع عشر فى الصفحات ١٩٥ إلى ١٩٩ .

(٢) راجع تصوير الروائى الشفاف لهموم البطل وكيف بث شكواه فى الفصل السابع عشر فى الصفحات ١٩٥ إلى ١٩٩ ، وهذا الفصل بمثابة اللحن الأخير فى سيمفونية البطولة .

(٣) See, Muir. Edwin, The structure of the novel, (the = Hogarth press, London, 1963) p. ho

شخصية « عز الدين عبد السلام » وجاء دوره فى الرواية رمزاً لنقاء الدعوة الإسلامية ، وحسنا فعل الروائى حينما حدد من انغماس الشخصية فى مواقف درامية . وإنما اكتفى بأن جعلها على مسافة منا حتى يتسنى لنا أن نقيسها ، ونزنها ، ونحدد موقعها بالنسبة لمن حولها . ظلت شعاعا من إيمان ، يضيء بنوره ظلمات المجتمع المتفسخ . وظل لسانه سيفا مسلطا على السلطان حتى أن « بيبرس » قال بعد ما مات : « ما استقر ملكى إلا الآن » (١) .

ومهما يكن من ملاحظات حول رواية « وا إسلاماه » فالقارىء يشعر بعد أن يفرغ من قراءة الرواية بنجاح الروائى فى إحياء عصر مضى . تميز بمواكبة دعامتى النصر : «جهاد المسلمين » لمقاومة الغزو الصليبى ، والمغولى ممثلا فى الأبطال المغاوير « قطز » و« بيبرس » . و (اجتهاد) علماء الدين ممثلا فى حجة الإسلام « الشيخ عز الدين بن عبد السلام » . وكيف أن وضوح « الهدف » و « اتحاد الكلمة » من العوامل الحاسمة فى إحراز النصر .

والرواية ، تشى بأن النظام السياسى والاجتماعى فى مصر ، فى تلك المرحلة ، كان قد بلغ قدراً من القوة والتماسك بحيث لم تؤثر فى بنيانه العواصف العاتية من الشرق (المغول) أو من الغرب (الصليبيون)(٢) . على عكس المرحلة التاريخية التالية . حيث تفسخ البناء الداخلى لدولة المماليك وآذنت دولتهم بالأفول مما هيأ للعثمانيين اقتطاف الثمرة دون عناء يذكر ، ساعدهم فى ذلك «التفتت » وافتراق الكلمة . كما سنرى ذلك عند دراستنا لرواية « سعيد العريان» « على باب زويلة » .

= راجع الترجمة العربية التى قام بها « إبراهيم الصيرفى » تحت عنوان : بناء الرواية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، ١٩٦٥ ، ص ٢١

(١) راجع ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٧١ .

(٢) راجع الدراسة التى قام بها د. قاسم عبده قاسم ص ٨٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

القسم الرابع

مصر والعثمانيون

« ... الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك ما يقايسنى فى حومة الميدان ... » .

– طومانباى للسلطان سليم العثمانى
(نقلا عن ابن زنبل الرمال)

« إنه لفارس كأنه قد ولد على ظهر فرسه ، فلغيره الاسر وله النصر أو الشهادة ؟

إن المصريين جميعــا ليرقبون ظهوره مرة أخرى كما ظهر مرة ومرة على رأس جيشه ، ليرد عليهم حريتهم ويستنقذهم من جور ابن عثمان ، فإنهم لينكرون ذلك النبأ ويرمون قائله بالإفك والبهتان » .

(رواية على باب زويلة / ٣٥٤)

سقوط دولة سلاطين المماليك بين التاريخ والرواية

أولا : الخلفية التاريخية لرواية « على باب زويلة »

مظاهر التدهور الداخلى أواخر عصر المماليك - ظهور القوة العثمانية على مسرح الأحداث - الصدام بين العثمانيين والمماليك - مصرع قنصوه الغورى فى مرج دابق - الريدانية والمقاومة المملوكية - دور المصريين - مصرع طومانباى - النص التاريخى من « بدائع الزهور » لإبن إياس .

ثمة حقيقة تاريخية تفرض نفسها على كل من يتصدى للبحث فى أسباب سقوط دولة ما ، أو فى العوامل التى أدت إلى أفول حضارة من الحضارات. هذه الحقيقة مؤداها أن الحضارة تنهار من الداخل أولا ، ثم يأتى بعد ذلك دور القوة الخارجيـــة فى إسقاط الدولة التى تمثل التجسيد السياسى لهذه الحضارة .

وتنسحب هذه الحقيقة على عصر سلاطين المماليك فى مصر كما تنسحب على غيره من العصور ، فقد شهد النصف الأخير من ذلك العصر الزاخر بالأحداث الجسام كثيراً من مظاهر التدهور المطرد فى شتى نواحى الحياة المصرية[١] ، وهو التدهور الذى أودى بالنهاية بالدولة التى شادها أولئك المماليك المجلوبون عبيداً فى طفولتهم ليحكموا مناطق كثيرة من العالم الإسلامى - بطريق مباشر أو غير مباشر - على مدى ما يزيد على قرنين من الزمان .

ذلك أن نظام سلاطين المماليك قام على أساس من المفاهيم السياسية[٢] التى تجعل لكل من أمراء المماليك حقاً مساوياً لحقوق زملائه فى الحكم ، ولم يعترفوا بنظام وراثة العرش . وفى عصر الجراكسة تعمقت هذه[٣] المفاهيم بحيث لم يعد السلطان سوى مجرد زعيم لأمراء المماليك ، ولكن سلطاته عليهم لم تكن كاملة ، بدليل أن مدد حكم السلاطين قد أصبحت قصيرة بشكل عام , كما أن كثيرين منهم انتهت حياتهم بالقتل ; ومن ناحية أخرى إنهار النظام الإقطاعى

الذى ارتكز عليه نظام حكم المماليك ، بما جلبه ذلك من مضاعفات خطيرة فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

فقد أدى ضعف السيطرة الحكومية على شئون البلاد بشكل عام إلى تدهور وسائل الرى ومرافق ضبط النهر . وزاد منسوب ارتفاع الأرض الزراعية بحيث لم تعد مياه الفيضان ، التى كانت تغرق الأراضى فى بداية ذلك العصر ، كافية لرى كثير من هذه الأراضى فى نهايته . وكانت النتيجة ، بطبيعة الحال ، أن تدهورت إنتاجية الأرض الزراعية — عماد النظام الإقطاعى — ومن ثم أخذ اعتماد أمراء المماليك وفرسانهم على الرواتب النقدية والعينية (الجوامك) التى يمنحها لهم السلطان يتزايد . وهو الأمر الذى زاد من وطأة الضرائب التى تزايد فرضها على عامة الشعب لإرضاء حاجات المماليك المتزايدة .

ومن ناحية أخرى ، قلت إنتاجية البلاد فى بعض الصناعات التى اشتهرت بها ، على حين ظلت الطبقة الحاكمة تستورد حاجات الترف ومظاهر البذخ من الخارج لقاء العملة الذهبية مما سبب استنزاف رصيد البلاد من الذهب والفضة بشكل عام ، حتى أصبح النحاس هو القاعدة السعرية . بل إن الفلوس النحاسية خضعت هى الأخرى لمحاولات الغش سواء فى وزنها ، أو حين كانت تباع عداً ، بل إن هذه الفلوس النحاسية كانت تهرب للخارج نظراً لارتفاع أثمانها فى الخارج . ونتيجة لهذا وجدت السلطنة المماليكية نفسها فى حاجة متزايدة إلى موارد مالية لتغطية نفقات الدولة ، ورواتب المماليك ، فأخذت تلجأ إلى احتكار التجارة فى السلع العالمية ، وبعض المنتجات المحلية . وتجرى من السلاطين محاولات كثيرة لإصلاح النظام النقدى ، إما بتخفيض قيمة العملة أو بسك عملات تحوز الثقة ، ولكن التدهور يصـــل إلى مداه فى السنوات الأخيرة ولا سيما فى عصر السلطان قنصوه الغورى .

فها هو السلطان يتخبط فى سياسته المالية والضريبية ، وها هى المجاعات

والأوبئة تتـوالى على مصر لتنزل بالسكان إلى درك مخيف من القلة . وتتدهور حالة الأمن بسبب حروب الشوارع بين طوائف المماليك ,وعبث المماليك الجلبان بالناس فى الطرقات والأسواق : بينما تصبح حوادث اعتداء العربان على القرى والمدن المصرية ، دون أن يجدوا من يقاومهم أو يردعهم ، مادة شبه يومية فى حولية المؤرخ ابن إياس الشهيرة . فضلا عن الأخطار الخارجية التى أخذت تهدد الدولة من جانب القوى المعاصرة لها ، سواء القوى الإسلامية أو القوى المسيحية .

ولعل التجسيد العملى لكل مظاهر التدهور التى ألمت بدولة سلاطين المماليك فى ذلك الطور الأخير من حياتها يتمثل فى أن كرسى السلطنة صار عبئاً على الأمراء ومخاطرة يهرب الجميع من تحمل تبعاتها للدرجة أن تنصوه الغورى كان يرفض توليها وهو يبكى . ثم يطلب من الأمراء أن يحلفوا له على المصحف ألا يغدروا به وألا يخونوه .

وفى الشارع المصرى ازدادت المساحات القاتمة فى الصورة فقد اقفرت الأسواق التى تضاءل عددها . كما اتسمت الاحتفالات بطابع شاحب يحكى قصة أيام حلوة مضت إلى غير رجعة ، كانت شوارع القاهرة والفسطاط تضج فيها بصخب الحياة وضجيج الفرحة أيام أن كانت القاهرة أبهة عاصمة تفخر بأنها تحمى العالم الإسلامى وتصون حضارته . وكثيراً ما نجد فى مصادر تلك الفترة أن تحذيراً قد صدر إلى العامة بعدم الكلام فيما لا يعنيهم وإلا تعرضوا للعقاب ، وهو ما يعنى أن مظاهر التذمر كانت تفرض نفسها على أحاديث الناس . بل إن المؤرخ ابن إياس يذكر أن أحد الشعراء كتب قصيدة يهاجم فيها مظاهر الفساد فى عصره مما جعل السلطات تجد فى البحث عنه .

هذه باختصار أهم ملامح العصر الذى تتناوله رواية سعيد العريان على باب زويلة ، التى تدور حوادثها حول شخصية بعينها هى شخصية

طومانباى . وصراعه ضد العثمانيين . وقد بدأ العثمانيون فى الظهور على مسرح الأحداث فى المنطقة منذ وقت مبكر يرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر . وإن كانوا قد وفدوا إلى المنطقة بسبب غزوات التتار التى أخرجتهم من خراسان فى أوائل القرن الثالث عشر إلى منطقة آسيا الصغرى . وفى سنة ١٤٥٣ تمكن العثمانيون من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية واضعين بذلك الفصل الختامى فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية .

حين نشأت الدولة العثمانية واتخذت لنفسها مدينة « بروسة » فى آسيا الصغرى عاصمة لم يكن ثمة مبرر للصدام . بيد أن الدولة العثمانية سرعان ما اتسعت وابتلعت آسيا الصغرى فاقتربت حدودها من حدود سلطنة المماليك فى بلاد الشام ، مما أوجد نقطة الاحتكاك بين الدولتين .

ومنذ البداية كان للعلاقات بين الدولتين اتجاهان أساسيان : فقد كانا يتحالفان ضد الخطر البرتغالى الذى بدأ يهدد السيطرة المملوكية على طريق البحر الأحمر ، وضد غارات تيمورلنك على حدود الدولتين . ومن ناحية أخرى ، بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة .

وتصاعدت التوترات بين القوتين حتى انتهت بمعركة مرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦ ، واتضحت حالة الدولة المملوكية المنهارة فى صفوف جيش قنصوه الغورى ، الذى كان الخلاف فيه شديداً بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان . وعلى الرغم من أن المماليك أحرزوا فى البداية انتصاراً جزئياً ، إلا أن الخلاف لعب دوره مع خيانة خاير بك فى هزيمة جيش السلطان الغورى . وسقوطه هو نفسه صريعاً تحت سنابك الخيل .

وتوغل العثمانيون جنوباً واستولوا على المدن السورية كلها حتى دخل السلطان سليم دمشق وصلى بها الجمعة . وكان طومانباى يتولى فى ذلك الحين منصب نائب الغيبة فى مصر . و أرسل إليه سليم يطلب الدخول فى

طاعته رفض وقرر المقاومة أمام جيش سليم الأول الذى أخذ يتجه جنوباً لغزو مصر :

وبذل طومانباى خلال سلطنته القصيرة — التى استمرت ثلاثة شهور — كل ما فى طاقته للدفاع عن مصر ، لكن الدولة التى كانت قد سقطت بالفعل كانت تسير فى طريقها المحتوم . ولم تجد محاولات طومانباى البطولية شيئاً فى إنقاذ الدولة التى حانت ساعة مغيبها .

كان السلطان طومانباى الذى ولى السلطنة بعد مقتل عمه السلطان الغورى يحاول أن يلم شعث القوات المملوكية التى ركنت إلى الدعة وهربت من القتال دفاعاً عن البلاد ، مكتفية بحروب الشوارع والهجوم على الأسواق ونهب الدكاكين وغير ذلك من مظاهر التفسخ والانهيار التى وصمت الطبقة الحاكمة فى مصر آنذاك . ورغم تواتر الأنباء يوماً بعد يوم عن اقتراب قوات العثمانيين من القاهرة ظل المماليك سادرين فى عبثهم ولهوهم ، وحين حاول طومانباى أن يستعد لملاقاة العدو صدمته الحقائق المؤلمة من خزائن خاوية ، وموارد مستهلكة وجيش متشرذم متخاذل ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ينهار المماليك أمام العثمانيين . والحقيقة أن الانهيار الداخلى للدولة كان منذ وقت ليس بالقصير وجاء الغزو العثمانى ليقطف الثمرة الناضجة .

ويتناول هذا النص معركة الريدانية بمقدماتها ونتائجها ، وعمليات النهب التى قام بها العثمانيون ضد سكان القاهرة ، ثم مظاهر المقاومة التى قادها السلطان طومنباى والتى انتهت بمصرعه على نحو مأساوى مروع . ويتخلل ذلك إشارات إلى تخاذل أمراء المماليك وهروبهم من القتال والاحتماء بالمساجد والجوامع والمزارات » .

النص (١)

« ... فلما كان يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة (٢) فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك إلا أن السلطان « طومانباى » لما توجه إلى الريدانية ونصب بها الوطاق ، فحصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك الطوارق ، وصنع عليها تساتير من الخشب وحفر خندقاً من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك ثم أن السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها زكايب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق كبار بيض وحمر يخفقون فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، وأن الحصار يقيم مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة للحاج أقام يومين ، فلم يجسر السلطان طومانباى أن يتوجه إليهم ولو توجه إليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب » .

« فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومانباى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان العسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان ، فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً ، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التى كانت فى مرج دابق ، فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا

---

(١) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١٤ ، ص ١٧٧ .
(طبعة جمعية المستشرقين الألمانية) .
(٢) سنة ٩٢٢ هجرية .

لالاء ابن عثمان وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار ، وقتل فى هذه المعركة ابن ابن سوار قتل فى الريدانية ودفن على جده سوار فى تربته التى تجاه تربة يشبك الدوادار ، وكذلك قتل هناك سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر .

« ثم أن العثمانية تحاربوا وجاءوا أفواجا أفواجاً، ثم أنقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاص ، فقتل من عسكر مصر مالا يحصى عددهم ، وقتل من الأمراء المقدمين جماعة ، منهم أزبك المكحل وآخرون منهم ، وجرح الاتابكى سودون الدواداري جرحا بالغا وقيل أنكسر فخذه فى غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار . فلم تكن إلا ساعة يسيرة مقدار خمس درجات حتى أنكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى عددهم ، فلما تكاثرت عليه العثمانية ورأى العسكر قد قل من حوله ، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطانى وولى واختفى ، وقيل أن توجه نحو طرا ، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر . . . » .

« . . . ثم أن جماعة من العثمانيــة لمــا هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا إلى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة ، فتوجهوا جماعة من العثمانية إلى المقشرة(١) وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من

(١) أحد سجون القاهرة فى عصر سلاطين المماليك وكان يستخدم ليقشر فيه القمح ، وكان موضعه بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمى ، وقد استخدم ليكون سجناً لأرباب الجرائم سنة ٨٢٨ هجرية ، وذلك بعد هدم سجن خزانة شمائل وقد وصفه المقريزى بأنه « ... من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسى فيه المسجونون من الغم والكرب ما لا يوصف ... » أنظر الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٨ (طبعة بولاق) .

المحابيس وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة أجمعين ، ثم توجهوا إلى بيت خايربك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية ، فانطلق فى أهل مصر جمرة نار . ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين أخذوا ما فيها من البغال والاكاديش ، وأخذوا عدة من جمال السقايين وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك ، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود ، واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم إلى بعد المغرب ، ثم توجهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال . وهذه الحادثة التى وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال . وكان ذلك مما سبقت به الأقدار فى الازل ؛ وقال الشيخ بدر الدين الزيتونى فى هذه الواقعة :

نبكى على مصر وسكانها ... قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة ... من بعد ما كانت هى القاهرة ...

« . . . . ومن هنا نرجع إلى أخبار ابن عثمان ، فإنه لما نزل الوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به إلى يوم الثلاثاء رابع المحرم (١) ، فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان للغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة ، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهى محملة ساسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعر وعياق

---

(١) سنة ٩٢٢ هجرية .

بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالمقاليق وفيها الحجارة ، واستمروا على ذلك إلى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصى فلكوا منهم رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائراً بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب . وأشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية . ثم أن المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت البيوت والحارات على المماليك الجراكسة . ؟

« ومثلما تعمل شاة الحمى   فى قرض يعمل فى جلدها »

« فصاروا الأتراك كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها بين يدى السلطان طومانباى وصار الطالب مطلوب . فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية وبين الأتراك ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان . ثم أن العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة النيل وملكوها منهم ، ثم طردوا الأتراك من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم . ثم أن الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ثم أن العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى فى الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة فاحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ . ثم أن العثمانية طردوا الأتراك عن الناصرية إلى قناطر السباع » .

« ثم أن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة إلى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبة ، وآخر عند قناطر

السباع ، وآخر عند رأس الدولة ، وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر . ثم أن السلطان رسم بحرق خان الخليلي فمنعه بعض الأمراء من ذلك ، وأشيع أن السلطان قسم العسكر أربع فرق : فرقة إلى جهة قناطر السباع ، وفرقة إلى جهة رأس الدولة ، وفرقة إلى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة إلى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من المماليك السلطانية إلا القليل ، وصاروا يختفون فى الاسطبلات خوفا من القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها » .

« ثم أن طائفة من العثمانية توجهوا على مصر العتيقة ، وطلعوا من على القرافة الكبيرة ، وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا قناديلها الفضية والشمع الذى كان عندها ، وبسط الزاوية ، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها . ثم أن السلطان قصد يهدم قناطر السباع مواذن الجامع(١) المؤيدى ، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول إلى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلعوا لهم الأتراك وقتلوهم فى المئذنة أشر قتلة » .

« ثم صارت القتلاء من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع وإلى الرملة وإلى تحت القلعة ، وفى الحارات والأزقة من الأتراك والعثمانية ، وهم أبدان بلا رءوس : هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب وهم يشلحون الناس ويعرونهم من أثوابهم ، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها . ثم أن السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من مسك أحدا من عسكر أبن عثمان وطلب منه الأمان فلا يقتله . ومن

---

(١) كذا فى النص والمقصود مآذن الجامع .

العجائب أن السلطان طوماز باى لما ظهر خطب بأسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة ، وكان فى الجمعة الماضية خطب باسم « سليم شاه بن عثمان » ، فكان كما يقال :

لا تيأسن من فرج ولطف   وقوة تظهر بعد ضعف

« فاستمر السلطان طون باى يتقع مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم مالا يحصى عددهم ، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرم ، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده بمفرده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء منهم شاد بك الأعور وآخرون من الأمراء العشرات ، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه إلى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله ، فكان كما يقال :

قليل الحظ ليس له دواء   ولو كان المسيح له طبيب

« وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان ، وقد علت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك فى الكتاب وسطورا . ولما هرب السلطان طومان باى وقع فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، فلما أنهزم صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، فاحترق سقف الأيوان الكبير والقبة التى كانت به كون أن السلطان طومان باى كان به وقت الحرب ، وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز ، ثم قبضوا على الشرف يحيى بن العداس خطيب الجامع واحضروه إلى بين يدى سليم شاه ابن عثمان فهم بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب وأتى إلى ابن عثمان وشفع فى ابن عداس وخلصه من القتل ، ولولا كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال ، وقاسى شدة عظيمة من الطربة » .

« ثم أن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك، ولعبوا فيهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وربما عوقب من لاجنى ، فصارت جثتهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة ، فكان مقدار من قتل فى هذه الوقعة فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأيام الأربعة ، ولولا لطف الله تعالى لكان لعب السيف فى أهل مصر قاطبة » .

« ثم ان العثمانية صارت تكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه . ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها المماليك الجراكسة ، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجوامع والمدارس والمزاوات ، ويقتلون من فيها من المماليك الجراكسة فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشرات وخاصكية ومماليك سلطانية فضربوا أرقابهم أجمعين بين يدى ابن عثمان . وقيل إن المشاعلى الذى كان هناك كان افرنجيا ، وقيل كان يهوديا من الأروام ، فكان إذا ضرب عنق أحد من المماليك الجراكسة يعزل رؤوسهم وحدها ورؤوس الغلمان العربان وحدها ثم ينصب الحبال على الصوارى ويعلق عليها تلك الرؤوس فى الوطاق الذى فى الجزيرة الوسطى وكان المشاعلى إذا حز رأس المماليك يرمى جثتهم فى البحر . وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير « قانصوه روح لو » أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا ، وهى مرمية قدام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فإنه كان رجلا جسيما . وقتل فى هذه الوقعة الأمير « يخشباى من قانم » الذى قرر أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطبلخانات والعشرات والخاصكية(١) وغير ذلك . صارت الجثث مرمية

---

(١) هذه إشارة إلى بعض درجات الأمراء فى ظل النظام المملوكى . عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٦١ ، وأنظر أيضاً الدكتور سعيدعاشور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٦ ، ص ١٩ (الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ١٩٦٢) .

فى الرملة.إلى سوق الخيل إلى الخيميين وقد تناهشت الكلاب أجسادهم ، وصارت الخيول فى الرملة وفى الأسواق ، والأزقة ، وقد قتلوا بالبندق الرصاص فى الوقعة ... » .

« .. ومن هنا نرجع إلى أخبار السلطان طومان باى ، فإنه لمـا تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناوات ، وقيل بوردان ، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم القول على ذلك ، فلما انكسر توجه إلى نحو تروجة بالغربية فلاقاة « حسن بن مرعى » وابن أخيه « شكر » مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوطة فعزم « حسن بن مرعى » و « شكر » على السلطان طومان باى هناك ، وكان « حسن بن مرعى » بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة فأركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة ، ثم إن السلطان طومان باى أحضر إلى « حسن بن مرعى» وابن أخيه«شكر»مصحفا شريفاً وحلفهما عليه أنهما لايخونانه ولا يغدرانه ولا يداسان عليه بشىءمن أسباب المسلك ، فحلفا له على المصحف سبعة إيمان بمعنى ذلك ، فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عنده ، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب ، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك ، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان . فلما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتشتتوا فى البلاد وتمت الحيلة على السلطان طومان باى ، وخانه «حسن بن مرعى»بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن إليه ، وكان«حسن بن مرعى»من أعز أصحاب طومان باى ، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغورى ، وأقام عنه بما عليه من المال ، فلم يذكر له شيئاً من ذلك ولا أثمر فيه الخير ، فكان كما يقال فى المعنى :

لاتركنن إلى الخريف فماؤه مستوخم وهواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها ومن الصديق على الصديق يخاف

« فلما أحضروا السلطان لومان باى بين يدى ابن عثمان كان عليه مثل

لبس العرب الهوارة زمط وعليه شاش وملوطة بأكمام كبار ، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له وعتبه ببعض كلمات ، فلما خرج من قدامه توجهوا به إلى خيمة فأقام بها وأحاطوا به الانكشارية بالسيوف لأجل الحفاظ به ، فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابة ، فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بمسكه فصار طائفة تصدق بذلك وطائفة لا تصدق . فأقام السلطان فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد إلى يوم الأثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة(١) وكان ذلك اليوم يوم الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر ، فعدوا بالسلطان طومان باى من بر انبابة إلى بولاق ، فطلعوا به من هناك وهو راكب على اكديش وهو فى الحديد ، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكان السلطان طومان باى لما قبضوا عليه أقام فى الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما ، وكان أشيع أن ابن عثمان يرسل طومان باى إلى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره . وفى مدة إقامة ابن عثمان فى الوطاق فكانت العثمانية يطوفون فى المدينة نهارهم كله ، ومن بعد العصر يرجعون إلى الوطاق يباتون به » .

« فلما بلغ ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى تحقق من ذلك وعدى به ، فلما طلع من بولاق شق من المقس وقدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من على سوق مرجوش وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به . فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف ، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقروا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ؛ ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك . فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل

---

(١) سنة ٩٢٣ هجرية .

انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى جسده شاياه جوخ أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس جوخ أزرق »(١) .

« فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شابا حسن الشكل سنة نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره ، ووقع منه فى الحرب أمور مالا تقع من الأبطال . وكان لمـــا سافر عمه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه إلى آن يحضر من حلب فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة وكانت الناس راضية عنه فى مدة غيبة السلطان ، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ، ولا يقبل فى أحد من الناس مرافعة ولا صادر أحداً من المباشرين فى مدة سلطنته ، ولما وصل ابن عثمان إلى الشام وقصد أن يخرج إليه فشكى أن الخزائن خالية من الأموال ، فقالوا له الأمراء وجمــاعة من المباشرين : افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ أجرة املاك القاهرة سبعة أشهر وخذ على الرزق والإقطاعات خراج سنة . فلما يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك ، وقال : ما أجعل هذا أن يكون فى صحيفتى » .

---

(١) يقدم لنا ابن زنبل الرمال صورة تفصيلية لمصرع طومانباى ، ولكن روايته ذات طابع قصصى من النوع الذى يقدمه قصاصو السير الشعبية ، إذ يتخلله الكثير من الخيال ، يتخيل الحوار الداخلى بين البطل ونفسه أو الحوار الخارجى بينه وبين غيره – أنظر رواية وزنبل : آخرة المماليك ، ص ١٣٢ ، ص ١٤٥ (تحقيق عبد المنعم عامر – سلسلة كتب فية ، العدد ١٥٣) .

« وكان ملكا حليما قليل الأذى كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، فإنه تسلطن رابع عشر شهر رمضان ، وانكسر وهرب تاسع عشرين ذى الحجة . وكان فى هذه المدة فى غاية النكد والتعب ، وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا فى البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويله ، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته ، وفى اليوم للثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه ، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمه ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت أخباره كأنه لم يكن ، وقد قلت من أبيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد   ولى وزال كأنه لن يذكـرا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة   ولقد أذاقوه الوبال الاكبرا
يا رب فاعف عن عظائم جرمه   واجعل بجنات النعيم له قرا

وكان شنق السلطان طومان باى من نهايات سعد سليم شاه بن عثمان ، ولم ينتجح أمره من بعد ذلك : ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولا علقت رأس سلطان على باب زويلة قط ولم يعهد بمثل هذه الواقعة فى الزمن القديم ، ومن عهد سوار شاه لما كلبوه على باب زويلة لم يعلق عليه من له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى » .

ثانيا — على باب زويلة

محمد سعيد العريان

الرؤية والبناء الفنى

الرؤية :

فى محاولة للتعرف على رؤية « محمد سعيد العريان » للتاريخ ، تقف أمام تصوراته النظرية الشخصية ودور الشخصية فى الأحداث والتاريخ الاجتماعى وامتداد هذه التصورات فى بناء الرواية .

ولعل من بواعث غبطة الناقد ، وهو يواجه دراسة الرواية عند « سعيد العريان » ، أن يقف أمام رؤيته للعنصر والبيئة والشخصية فى الأدب والتاريخ (١) ومعلوم أن التعرف فى هذا الموضع على مفهومات الروائى عن الشخصية فى التاريخ والراوية هو المقدمة المنطقية للتعرف على عالمه الروائى فى ضوء المفهوم الفنى للرواية بوصفها فناً يقوم على تحليل المجتمع ونقده وتصوير أزمة الإنسان فى المجتمع .

يعرض « محمد سعيد العريان » للمدارس التاريخية التقليدية ويتحفظ على مقولاتها ثم يطرح مفهومه عن التاريخ وهو يهتم بالوجه الإجتماعى « التاريخ عندى — بهذا المعنى — هو الناس ، هو الأفراد الذين ينتظمهم معنى الجيل ، فهو السوقى كيف يبيع ويشترى ، والنادل فى القهوة والمطعم كيف يسمع ويجيب ، وبياع النصيب فى محاط الترام . وعلى أبواب المساجد . . . وهو شرطى المرور ، وبواب العمارة ، وخادم الدار ، وهو زوجى وولدى ، وزملائى فى الديوان ، وسمارى فى القهوة ، ثم هو طعامى وشرابى ، ورياضتى وعملى ،

(*) ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ عن مطبعة الاستقامة ، والطبعة التى اعتمدت عليها هى (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ) .

(١) أنظر : مقال محمد سعيد العريان ، « العصر والبيئة فى الأدب والتاريخ » ، الثقافة ، ٢٣ ديسمبر ، ص ٧ . وراجع النص الكامل للمقال فى الملاحق .

وفراشي الذي يؤويني ووسائل لهوى فى فراغي . . . إلى أشياء هى منا وإن بعدت عنا ، وهى ذات الأثر كل الأثر فى حياتنا ، وهى العصر والتاريخ والبيئة : تعبر تعبيرها الصادق عن حياتنا ، وتؤثر أثرها المنتج فى فنوننا ، وتبنى وتهدم فى نظام حياتنا أكثر مما تبنى وتهدم أحداث السياسة ووقائع التاريخ العام(١) .

فمدلول التاريخ عند « سعيد العريان » هو التاريخ الاجتماعى الذى يصور فئات أو شرائح المجتمع بحيث يستحيل فهم الشخصية الإنسانية بكل مافيها من تفرد وخصوصية بمعزل عن عصرها وبيئتها ومايمور فيها من تيارات

والإحساس بالتاريخ أو « **الوعى التاريخى** » وفقاً لهذا المفهوم يجتهد أن يبعث روح العصر من مرقدها ، فنتعرف من خلال « العام » على « الخاص » أو من خلال « الأثر » نصل إلى « المؤثر » . ففى الشخصية الإنسانية تتلاقى الأضداد الفذو المتشابه . وهى ، بهذا المدلول ، شديدة التنوع والثراء وأيضاً التفرد أو الخصوصية ومن خلال هذا التنوع نصل إلى النظرة الكلية أو الشاملة لها .

« وسعيد العريان » يقيس الشخصية فى ضوء عصرها السياسى والاجتماعى والاقتصادى وأوجه أو مظاهر التعبير الفنى عن هذا العصر ، وفى ضوء حياتها الخاصة ، فى مباذلها وبين خلانها . فهو يريد أن يتعرف على جوانب الطبيعة البشرية على نحو ما تتمثل فى السلوك الإنسانى المعتاد للشخصية وهو فى مفهومه هذا لا يقف عند حدود الأعلام بل يمتد ليحتضن الشخصية العادية أو « النكرات » « هؤلاء وأولئك وغيرهم ممن أعرف ومن لا أعرف سافلين عن ذلك وعالين ، هم تاريخنا وصورتنا ، ومجموع ما ينبغى أن يؤثر عنا ، وهم العصر والجيل والبيئة والزمان والمكان » (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨ .

و مفهوم « سعيد العريان » عن الشخصية يسلمنا لتصوراته عن الأحداث فعنده « أن الحادثة ليست شيئاً فى التاريخ إلا إذا كان معها ناسها فهى بهم ، تاريخ وهم بها ، فإذا تجردت الحادثة من محدثها ، فما هى بشىء وليس فيها عظة ولا معتبرة » (١) ويتولد عن هذا أن الشخصية هى لب الحدث الروائى .

من هنا ، فهو يلح على أهمية فن الترجمة أو ما يسميه هو « فن الناس » وهذا الاهتمام لا يقتصر على الشخصيات البارزة بل يمتد ليشمل من يحيون من سواد الناس فى الظل (٢) ونحن – فى ضوء ما سبق – نفهم سر تأكيده على « الشخصية » فما الفن مجرداً من شخصية فنانه إلا حجر من الحجر كالتمثال القائم فى الميدان . إن الشعر هو الشاعر ، وإن الفن هو الفنان . فهو لا يفصل بين الأثر والمؤثر ، أو بين الفن والشخصية (٣) .

وفى حديثه عن الترجمة الشخصية يربط بينها وبين ازدهار فن الراوية . ومعلوم لدى مؤرخى الرواية ونقادها أن الترجمة الشخصية مرحلة من مراحل تطور الراوية . « القصة والترجمة الشخصية صنوان ، بل لونان على مائدة ، تهفو النفس إلى كليهما على قدر مشترك ، وبينهما من التشابه ما يكمل من أحدهما نقص الآخر ، ويكاد الفرق يكون معدوماً بين القصة التاريخية فى بعض صورها وبين الترجمة الشخصية ، ولقد يعمد القاص الفنان إلى خبر تافه فى ترجمة إنسان فيتخذه نواة ينشئ منها قصة تصيخ لها الدنيا ، ولقد يعمد المؤرخ الصادق الحس إلى قصة من قصص للتاريخ فيتخذها مصباحاً يهديه ورائداً يذلل له سبيله » (٤) .

فى ضوء المفهوم النظرى السابق لسعيد العريان عن العلاقة بين الشخصية

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩ .
(٢) أنظر المصدر نفسه ، ص ٨ .
(٣) أنظر : الفن والشخصية ، الثقافة ، ٢٥ نوفمبر ١٩٤١ ، ص ١٨ .
(٤) أعيان الجيل ، الثقافة ، العدد ١٤٩ ، ص ١٦ .

فى التاريخ والأدب وعن العصر والبيئة والمدلول الاجتماعى للتاريخ نحاول أن نتعرف على تأثير هذه التصورات فى بناء روايته على « باب زويلة ».

٢ — البناء الفنى :

مغيب دولة وإحباط بطل :

يمكن تأويل مشكلة البطل فى رواية « على باب زويلة » من خلال بعدين :

البعد الاجتماعى التاريخى ، وهذا البعد يمس قضية أصيلة من قضايا لفلسفة التاريخ . أعنى دور الفرد فى التاريخ(١) .

والبعد الثانى ، هو البعد الذاتى . والرؤية النقدية من خلال هذا المنظور ترتد فى أصولها النقدية إلى الفكر النقدى الأرسطى عن سقطة البطل « الهامارتيا » .

التأويل الأول ، يشى بالفكرة التى ترى أن ظهور البطل ونجاحه ، إنما يرتبط بحاجات المجتمع فى مرحلة معينة ، يستجيب فيها البطل لهمسات المجتمع . كما يكون نتاجا للملابسات الاجتماعية والتاريخية للعصر .

ومن الأهمية أن نتوقف قليلا أمام هذه القضية . إذا أنها تمثل الخلفية التى يمكن على ضوئها تأويل شخصية « طومان باى » فى إطار عصره . ومن بين المفكرين الاجتماعيين الذين توفروا بجهدهم على قضية دور الفرد فى التاريخ ، « بليخانوف » .

رأى « بليخانوف » أن « الأفراد يمكنهم أن يؤثروا فى مصير المجتمع بفضل الميزات التى يتسمون بها ؛ وأحيانا يكون هذا التأثير على قدر من

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، راجع للمؤلف كتاب « البطل المعاصر فى الرواية المصرية » ، (بغداد ، وزارة الإعلام ، ١٩٧٦) ، المدخل ، الصفحات ١٣ — ٢٤ .

الأهمية ، ولكن امكانية ممارسة هذا التأثير ومداه ، مرتبطان بشكل تركيب المجتمع ، وبعلاقة القوى المنبثة فى داخله . وتعد شخصية الفرد مجرد «عامل» فى التطور الاجتماعى ، حيث تتحدد زمانا ومدى بالقدر الذى تسمح به العلاقات الاجتماعية القائمة . وربما جاز لنا القول : ان مدى التأثير الشخصى للفرد قد يتحدد أيضا بمواهبه . ونحن نوافق على هذا الا أن الفرد يستطيع أن يظهر مواهبه فقط عندما يحتل مركزا فى المجتمع يتيح له ذلك . فالنظام الاجتماعى فى فترة معينة يحدد الدور ، ومن ثم ، الأهمية الاجتماعية التى قد تهبط على بعض الأفراد الموهوبين أو العاجزين . وهذا يتفق مع مفهوم التطور الاجتماعى بوصفه تعبيرا عن قوانين محددة : فدور الأفراد ومدى تأثيرهم الاجتماعى سلبا وايجابا – يتحدد بشكل النظام الاجتماعى السائد فى المجتمع »(١) .

وينبىء موقف « بليخانوف » أن العامل الفردى ليست له أهمية كبيرة ، وبالتالى ، فكل شىء يمكن أن يرد إلى الأسباب العامة ، وهذا تطرف بعيد المدى . فالتاريخ « لا يسير رغماً عن الأفراد كما يفهم ضمناً من هذا الرأى – وإنما ينبغى أن يكون للأفراد دور يساهمون به فى صنع التاريخ . إذ أن هـــذا الرأى يوحى بأن التاريخ كيان صوفى غامض ، يتبع قانونه الخاص ، ولا يعبأ بإرادة البشر . ويترتب على ذلك أن ينظر إلى التاريخ باعتباره حقيقة تعلو على الإنسان ولا تصدر عنه ، وأن البشر أدوات تحركها قوى غامضة ، خفية تدفع بها إلى مصير محتوم ليس لهم عليها سلطان(٢) » .

وقد أوضح « كودويل » ضرورة الإعلاء من شأن الفرد فى العملية التاريخية ، والتأكيد على دوره المؤثر فى الأحداث التاريخية ، فعنده أن

---

(١) Plekhanov, George, The role of the individual in history international publishers Co . U. S.A. 1963, pp, 41–48,

(٢) د. فؤاد زكريا ، الإنسان والحضارة فى المجتمع الصناعى .

البطل إنسان يكون تأثيره على بيئته أكبر بكثير من تأثيرها عليه . والبطولة ليست شيئاً ما يمكن أن يحدد من شخصية البطل وحدها ، بل إن الظروف هي التي تخلق البطل ، فكما يجب أن يتوفر شيء ما في الأحداث ، كذلك لا بد من توفر شيء ما في الإنسان(١)» .

وما سبق يصل بنا إلى حقيقة مفادها أن البطل يولد من رحم المجتمع . بمعنى أنه إنعكاس للواقع الاجتماعي . وهو بهذا المفهوم يعد خلقاً اجتماعياً بحتاً(٢) . ويتولد عن ذلك ، ضرورة تعقب عملية الفكر والوجدان التي ترقد في عقل البطل ووجدانه . وما تعكس من واقع اجتماعي(٣) . ويبقى سؤال حائر ، هل همسات المجتمع تلقين لابطل . وهجمات البطل تجسيم لأحلام المجتمع ؟(٤) . وسنحاول أن نلتمس الإجابة من خلال التعرف على الخط السياسي للرواية ، ولدور البطل « طومانباي » .

والإضاءة الاجتماعية لدور الفرد في التاريخ ، تؤكد أن البطل نتاج عصره . فقد جاء « طومانباي » في مرحلة أفول نجم دولة المماليك الجراكسة ، وشهد عوامل الاضمحلال تعصف ببنيان الدولة من الداخل ، وأطماع الدولة العثمانية من الخارج تتنمر لالتهامها . وبتعبيرنا السياسي المعاصر عاش فترة تغير موازين القوى . ولم تغن مواهبه الفردية شيئاً في دفع تداعي البنيان الداخلي للدولة أو في درء الأطماع الخارجية . ف« طومانباي » « اتفق الجميع على أنه كان مقداماً خبيراً بالحرب ومواقع الطعن والضرب ، والدخول في الميدان والخروج منه لا يرهب الأفيال ، ولا يخطر له الموت

---

(١) See, Caudwell, Cristopher, Studies in a dying Culture, London, John, Lane the bodley head, 1951, pp. 22–25,

(٢) See, O.F. aolain, sean, The vanishing hero Studies in novelists of twenties, p. xii,

(٣) See, Gifford, Henry, The hero of his time, Athemein Russian literature, London. Edward arnold and Co, 1650,p,vil

(٤) أنظر ، أمين الخولي ، « الكملة .. والأبطال » مجلة الأدب ، فبراير ١٩٥٩ ، ص٥٦٦ .

على بال ... وكان متوسط الطول ، ذهبي اللون ، واسع الجبين ، أسود العين ، والحاجبين واللحية . وكان دينا صالحا فاضلا زائد الأدب والسكون والخشوع والخضوع ، ملازما لزيارة المشايخ ، الأحياء منهم والأموات... ولم يظهر فى حياته شئ من الأفعال الردية أبداً ... لايظهر شيئا مما يفعله أهل التجبر والعنف ، وكان الغالب على حاله السكينة والوقار ، وكان غالبا على نفسه ، رزينا فى أحواله لَيِّنَ الكلمة ، ذا انخفاض كثير الرحمة والشفقة على كل أحد ، حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة فى قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية العجب ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة »(١) ووصفه « ابن اياس » بأنه « كان ملكا حليما كثير الخير قليل الأذى » .

ولو تأملنا فى شخصية بطل آخر من أبطال التاريخ الإسلامى ، مثل « قطز » نجد أن « طومانباى » لايقل عنه موهبة وصلاحا ، وعزما . بيد أن « قطز » كان على رأس دولة فى عنفوانها ، ساعده الأيمن ، بطل مغوار ، وهو « بيبرس » . وقد شهد التاريخ ببطولاته ، ووجد فيه الشعب العربى تجسيدا لأشواقه ، فتغنت الأجيال بسيرته وتناقلتها جيلا بعد جيل . وكان عقله المفكر ، شيخ الإسلام « عز الدين ابن عبد السلام » ، المثل الأعلى للدور الفقيه فى الإسلام ، رجل العقيدة والعمل بها . وقد رصد « المقريزى» المؤرخ العظيم مظاهر ذلك الانهيار(٢) بينما كان « طومانباى » على رأس نظام على شفا جرف هار فانهار به .

ومن جهة أخرى ، فالقوة المناوئة للبطل « طومانباى » ، الدولة

(١) ابن زنبل : آخرة المماليك ، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ، كتب ثقافية ، العدد رقم ٢١٥٣ ، ص ١٤٤ .

(٢) راجع التحليل التاريخى للدكتور قاسم عبده قاسم .

العثمانية ، كانت فى مرحلة صعود . وقد أتاح ذلك لسلطانها « سليم » أن يتألق نجمه رغم ما حام حول شخصيته من تجريح فقد ذكر « ابن اياس » أنه لم ينصف مظلوما من ظالم فى محاكمته « بل كان مشغولا بلذته وسكره واقامته فى المقياس بين الصبيان المُرْد وما كان يظهر إلا عند سفك دماء المماليك الجراكسة وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل وكلامه ناقص ومنقوص . لا يثبت على قول واحد كعادة الملوك فى أفعالهم »(١) ويخامر النفس شعور بأن « طومانباى » افتقد « لعبة الملوك » وما تسود مواقفهم من ميكافيلية .

ولعل ما يزيد من تعاطفنا مع « طومانباى » أن ما حل به من هزيمة جاء تجسيداً لانتصار قوى الشر على قوى الخير . وهنا نقرب من دائرة البطل التراجيدى . بطل تحالفت قوى الشر على مصرعه ، وتصفية كل ما يمثل من قيم ، فى عصر اهتزت الموازين أو المعايير حيث تحولت (المآثر) إلى (مثالب) تفترس البطل ويموت فداء الدفاع عن قيم الحق والخير . ويصبح رمزاً لتسامى الإنسان بمثله وقيمه .

والتأويل الثانى لبطل الرواية يقرب بنا من قضية نقدية يمكن أن نتلمس أصولها فى التراث النقدى لأرسطو حين أشار إلى فكرة «الهامارتيا » فقد رأى أن « تغير هؤلاء الأبطال من السعادة إلى الشقاء لا يحدث بسبب الخبث والشر بل بسبب سقطة عظيمة . فهذه السقطة العظيمة (الهامارتيا) هى إذا نقطة الضعف فى شخصية البطل ، التى لا تجعله كامل الفضيلة والتى تنجم عنها الفاجعة . وبدونها لا يتحقق غرض التراجيديا من إثارة الرحمة والخوف . فهى التى تجعلنا نشعر أن البطل يشبهنا ، لأننا وإن كنا نميل إلى التفخيم من شأن أنفسنا والاعتقاد بأننا — فى صميمنا — نماذج للخير ، فقلما نعفى أنفسنا من اللوم لسبب من الأسباب وهى التى تجعلنا نعطف على البطل أيضاً ، لأنها

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٢٠٨ .

ليست إلا سقطة واحدة بين فضائله الكثيرة ولكن عطفنا عليه لا يصل إلى حد الجزع ، لأن الفاجعة التى ينتهى بها أمره لا تهبط عليه من الخارج ، بل هى من عمله ، فهى نتيجة هذه السقطة الواحدة »(١) .

والناقد الإنجليزى ا . س . برادلى يقرر فى ملاحظته عن شخصيات شكسبير التراجيدية أنها « مصنوعة من المادة التى تجدها فى أنفسنا ، وفى الناس الذين يحيطون بهم ، ولكنهم يعمقون الحياة التى يشتركون فيها مع غيرهم ، فيرتفعون فوقهم ... وفى جميعهم تقريبا نلاحظ وحدة المنزع بشكل ظاهر أى الميل فى اتجاه معين ، والعجز التام ، فى بعض الظروف ، عن مقاومة القوة التى تجذبهم إلى هذا الاتجاه ، والميل الخطر إلى النظر إلى الوجود كله كأنما هو مساو لاهتمام واحد ، أو لموضوع واحد أو عاطفة واحدة أو عادة عقلية واحدة . ويبدو أن هذه هى السمة التراجيدية الأساسية عند شكسبير ... إنها مدمرة ، ولكنها تحمل فى طياتها سمة من العظمة ؛ وحين ينضم إليها نبل النفس ، أو العبقرية ، أو القوة العظيمة ندرك مدى قوة النفس ويكتسب الصراع ، الذى تدخل فيه تلك القوة العظيمة التى لا تحرك العطف والشفقة وحدهما ؛ بل الاعجاب والخوف والرهبة أيضاً »(٢) .

ومن النقاد من يرى أن ملاحظة « برادلى » لهذه الخاصة فى الهامارتيا — كونها قوة تجذب البطل على الرغم منه — هى التى تجعله يقرر أن الصراع الداخلى الذى يدور فى نفس البطل ، لا يقل شأنا فى التراجيديا عن الصراع الخارجى المادى ، والباطنى النفسى ، يفسرهما « بقوة روحية » تؤلب بعض الرجال على بعض ، كما تحدث الاضطراب والصراع فى داخل نفس البطل . وبرادلى يصف القوة الروحية بأنها « كل قوة فى الروح الإنسانية ، سواء كانت قوة خيرة أو شريرة ، وسواء كانت مطمحا شخصيا أم مبدأ

(١) د. شكرى محمد عياد ، البطل فى الأدب والأساطير (القاهرة ، دار المعرفة ، فبراير ١٩٥٩) ، ص ٩ .

(٢) النقل من كتاب د. شكرى عياد ، البطل فى الأدب والأساطير ، ص ٢٤ .

غير شخصى . الريب ، والرغبات ، والشكوك ، والأفكار ، وكل ما من شأنه أن يحرك نفس الإنسان ويهزها ويتملكها ويسوقها »(١) .

فى ضوء الفكرة الأرسطية عن البطل التراجيدى ، نحاول أن نتعرف على الجوانب الخفية من حياة بطل الرواية . وسنعتمد – قبل أن نتعرف على صورته الروائية – على مصدر من المصادر التاريخية تميز صاحبه «ابن زنبل» فى كتابه « آخرة المماليك » بسعة خياله فمضى ينسج صورة متخيلة لأحلام « طومانباى » ويرصد خلجات مشاعره معتمدا على « المونلوج الداخلى » أو « مناجات الذات » .

والوقوف أمام صورة « طومانباى » كما رسمها خيال « ابن زنبل »(*) تهمنا هنا . لأنها تقدم للروائى مادة روائية تسعفه فى بناء الرواية وفى استثمار « الرؤيا » و « الحلم » و « مناجاة الذات » بوصفها أدوات فنية لخدمة البناء الروائى . كما أنها تطلع الناقد على أداة من الأدوات التى يكتشف من خلالها درجة اعتماد الروائى على المصدر التاريخى بهدف الوصول إلى مدى (الأصالة)

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٦ .

(*) هذا الكتاب ، وإن لم يعول عليه المؤرخ المعاصر ، لانتماء صاحبه إلى مدرسة فى التدوين التاريخى ، تمزج الخبر بالخيال القصصى ، مما جعلها تتعرض لنقد المدرسة التاريخية المعاصرة . إلا أننا نعتمد عليه هنا ، ومن زاوية محددة تنصب على محاولة البحث فى أدوات التشكيل الجمالى أو الفنى فى بناء الرواية ومادتها . والروائى والناقد ، كلاهما على وعى أن هذه المدرسة لا تحفل بتصوير ما حدث فقط بل تسعى إلى أن تصور ما يمكن أن يحدث مستخدمة خيالها الخالق فى سد الثغرات بهدف الكشف عن غلالة الغموض الذى يلف الشخصية أو الحدث وإماطة اللثام عن كليهما .

وهنا تكون نقطة التلاقى إذ أن هذه المدرسة تقرب من مهمة الأدب ، من حيث أنه تصوير لما يمكن أن يحدث : بقدر ما يبتعد عن مهمة التاريخ من حيث أنه بحث ا حدث حقاً ، ويترتب على هذا أن يقوم الخيال الخالق بدوره الأساسى فى تكوين الصورة الأدبية الروائية بدعامتها الرئيسية : « الشخصية » .

و (المعاصرة) فى ابتكار العريان لشخصياته . فهى – بقول آخر – مصدر يكشف عن العناصر التأليفية Motif فى العمل الروائى وما يعكس من تأثيرات . كيف تتحاور (الذات) مع الواقع الخارجى (الموضوع) . وإلى أى مدى تقترب هذه الصورة من سمات البطل التراجيدى على نحو ما عرفناه عند شكسبير وبرادلى .

ومعلوم أن «شكسبير » قد استثمر فى تراثه المسرحى المادة التاريخية التى قدمها « بلوتارك » استثمارا طيبا . غير أنه تميز بقدرته على تصوير عوالم الشخصية وما يعتورها من تغير وما يطرأ على مواقفها من تغيير بحيث أنه نجح فى خلق شخصيات إنسانية خالدة لأنها تخاطب الإنسان فى كل مكان وتعبر – فى صدق – عن آلامه وأشواقه : عن إحساسه بالضعف والفناء وشوقه إلى « الخلود » . فهل استثمر العريان المادة التاريخية عن العصر الذى أراد أن يصوره روائيا حقيقة ؟! هذا ما سنحاوله بالموازنة بين صورة « طومانباى » مستقاة من المادة التاريخية وصورته فى الرواية .

* * *

والنصوص التاريخية لابن إياس وابن زنبل تكاد تعلو فى تصويرها لشخصية « طومانباى » إلى مستوى البطل التراجيدى . وإن كنت أكثر ترجيحا للتأويل الاجتماعى التاريخى . فطومانباى جاء والنظام الإقطاعى الذى قام عليه حكم سلاطين المماليك يوشك أن يتفسخ بعد أن أصبح كبيت العنكبوت . فلم تستطع شخصية « طومانباى » أن تواجــه بمفردها المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وما تولد عنها من تغيير فى موازين القوى السياسية ومواقع الأفراد فى البناء الاجتماعى .

ومعنى هذا أن التأويل الاجتماعى يتخذ من (الموضوع) وليس (الذات) نقطة البدء فى تحليلى مأساة « طومانباى » فى ضوء ملابسات عصره . على أن هذا التأويل الاجتماعى لا يغفل عن انفعال (الذات) وما يمور فى واقعها

النفسى من طموح وما يجده من إحباط اجتماعى لكنه ينظر إلى (**الذات**) بوصفها ثمرة العلاقات الاجتماعية القائمة فى المجتمع . بمعنى أنه لاينظر إلى المشكلات التى تواجهها (**الذات**) من منظور (**ذاتى**) بحت بقدر ما يرى أن هذه المشكلات حصيلة الملابسات الاجتماعية فهو يحترم الذات فى أشواقها واحباطاتها ، لكنه لايجرد هذه المشكلات من ملابساتها الاجتماعية التاريخية .

ولنتابع أولا وقائع حياة « طومانباى » بطل الرواية من خلال تصوير « ابن زنبل » ونحاول أن نوازن بينها وبين صورته فى الرواية .

إن « طومانباى » يتلفت حوله فيجد الخراب ينعق فى أرجاء الدولة المملوكية ، فتحدثه النفس قائلة : « ما أظن إلا أن دولتنا قد زالت فإنى أرى كلما فعلنا شيئا نريد أن تكون فيه المصلحة ، قلما يكون أمرنا فيه إلا بضد ماتريد ، وأرى أن أعداءنا أمرهم يزيد ... والغالب على ظنى زوال ملكنا »(١) .

هنا بذور بطل تراجيدى . وإذا كان من تقاليد هذا البطل أن تعاكسه قوى غيبية غير منظورة ، فإن البطل هنا تعاكسه قوى خارجية غير متكافئة حقا .

و « ابن زنبل » يصـــور ما دار بين « طومانباى » وأمرائه فيقول :

ـ إنى مخبركم بمنام رأيته من مدة يومين ، ورأيت نفسى أنى فى هذا الوادى بعينه ... وأظلمت الدنيا ولا بقى أحد من أحد ، وإذا بخمسة كلاب سود قد أحاطت بى ، وأرادت أن تفترسنى ، فجذبت سيفى

---

(١) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

وأردت أن أضربهم به ، وإذا به قد طار من يدى ، وسقطت عمامتى ، ودقت الكلاب على وقبضونى ، فصرت بينهم كقطعة لحم ، كل واحد ينتشنى من ناحية فأيست من نفسى ، فانتبهت مرعوبا ، وقد عمنى العرق.

فلما سمع منه الأمراء هذا المنام تشوشت خواطرهم ، وقال بعضهم :

إن هذه الرؤيا لاتدل على خير ، وأن هذا مما يدل على أن الظفر لعدونا ، والنصرة له علينا ، فإن وقوع العمامة يدل على زوال المنصب ، وأما قيام البحر فإنه قيام هذه السلطة علينا ، وأما عدم السيف فإنه يدل على عدم القوة ، وأما الكلاب فإنهم رؤس الأعداء يقبضون عليك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فإن صحت هذه الرؤيا فقد والله زالت دولتنا وانقضت مدتنا ، فقال لهم السلطان .

ما بقى لنا حيلة نحتال بها ولا منة نستعين بها ، قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا وتثلمت سيوفنا ، وقد قامت الدنيا كلها علينا فما عسى أن نصنع »(١)

« وابن زنبل » فى تبريره لاذعان . « طومانباى » للقوة المناوئة له يعتمد على الرؤيا أو الحلم أداة ينطلق منها خياله المتوقد لرسم صورة للبطل ، كاشفا عن لحظات الضعف الإنسانى النبيل : « . . انى أريد أن أخبركم بما رأيت فى هذه الليلة ، رأيت أن قائلا يقول لى ، رأيت رسول الله صلى عليه وسلم يقرئك السلام ، ويقول لك ، إن دولتكم قد زالت ، وعمركم قد فرغ ، وأنت جارنا فى الجنة بعد أربعة أيام ، ارجع عن القتال ، فلا فائدة لك فيه ، وأنا قد عزمت على رمى سيفى . . . وقال لهم ، كل واحد منكم يذهب إلى حيث أراد وهذا آخر اجتماعنا فى الدنيا ، والقيامة تجمعنا فى الآخرة . . . فبينما هم فى هذا الكلام إلا وقد رأوا الخيل قد أقبلت عليهم من بعيد . . »(٢)

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

والبطل « طومان باى » هنا — فى إطار الفكر النقدى الأرسطى — قد وقع فريسة سقطة عظيمة « الهامارتيا » . وكان موقفه « وداعا للسلاح » . وقد شعر بهذا الخطأ الذى تردى فيه فضى — على نحو ما تخيل « ابن زنبل » — فى مناجاة الذات : « إن كنت طيراً طائراً ، و كانت أرضى واسعة أذهب إلى حيث أريد وأختار ، فسلمت روحى لعدوى بيدى بئس ما كانت فعلة فعلتها أوجبت لى الهم والذلة ، كل ذلك خطر فى نفسه . وهو جالس لا يتكلم ولا أحد يتكلم ولا يرفع صوته ولا رأسه »(١) .

هنا تكمن — بتعبير برادلى — القوة الروحية الخفية التى تجذب البطل إلى « الفعل » . القوة الروحية التى تحرك النفس وتهزها وتملكها وتسوقها إلى مصيرها المحتوم .

وحين وقعت عينا السلطان سليم « على طومانباى » : « . . . تأمله بعين الغراب » فوجد فيه كل شىء يشهد له بالشجاعة والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه . فتعجب السلطان سليم فيه ، كيف سلم نفسه بغير حرب . ولا قتال ولم يكن له شىء فيه يشهد بأنه جبان أبدا بل أنه إذا رآه من لا يعرفه يشهد له بأنه شجاع بطل .

ثم إن السلطان سليم قال فى نفسه ، إنما هذا أمر سماوى أصابه وطالع نحس غريب غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم نفسه ، مع أنه قاتل قتال الجبابرة ، وإلا لو هرب كانت الدنيا واسعة بين يديه أينما شاء ذهب وحيث طلب هرب »(٢) .

ولعل التأويل الاجتماعى التاريخى يضع مأساة « طومانباى » فى إطارها الموضوعى . إننا نرى المأساة تتجاوز نطاق الذات أو دائرة الفرد . فنقطة

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٣٣ وراجع آيات فروسيته ولطف شمائله ، المصدر نفسه ، الصفحات : ٨٢ ، ٨٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ وملاحق هذا الكتاب ص ١٦٦ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ .

الضعف لا ترد إلى تكوينه الذاتى بقدر ما ترد إلى كونه ظهر فى مرحلة آذنت بانهيار نظام إقطاعى . فالمأساة ، مأساة مجتمع مطحون ، سعى إليه الانهيار ، وبطل يتسلح بالوعى بما وصل إليه مجتمعه من تفسخ . لكنه يرفض المصالحة . لقد رأى بناء يريد أن ينهد فبادر لإعادة توازنه المفتقد . إنه على حد تعبير شلى — لديه شهوة إصلاح العالم . لكن الداء كان قد استفحل . والانحسار آخذ مداه ، لابد . والبطل ، يقف على قمة جبل من جليد ، وحيدا فريداً محاصراً بعوامل الاحباط الاجتماعى .

إن التحدى العظيم الذى يواجهه « طومانباى » أعظم من أن يستجيب له فرد ولو كان بطل الأبطال . هنا دلالة على صمود نظرية توينبى عن التحدى والاستجابة ونظرية شبنجلر عن الدورات الحضارية فى تعليل ما وصلت إليه الدولة المملوكية فى مصر من أفول . وهكذا عظم المطلوب وقل المساعد(١) .

وقد أدرك « طومانباى » ما وصلت إليه دولة المماليك الجراكسة من تهافت . بدا ذلك فى حواره مع السلطان سليم » :

« ... وكل هذا ليس بأمرى ولا بإرادتى ، وإنما جرت به المقادير من الرب القدير ، وحتى تجرى الأمور على ذلك على ما كانت من قديم الزمان ، فإن دولتنا قد زالت وادبرت ودولتكم جاءت وأقبلت ... وما أراده الله فلامرد له ... ولولا ذلك ما قدرت أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا ، فإنه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم أقوى منا ولا أشجع »(٢) .

و « ابن زنبل » يستخدم « الرؤيا » فى تصوير مشاعر « طومانباى »

---

(١) راجع التحليل التاريخى للدكتور قاسم عبده ، حيث أشار إلى الظروف الموضوعية التى فرضت نفسها على الساحة السياسية فى الداخل ، وكيف أن مصر تخلت عن دورها القيادى فى جميع المجالات الخارجية .

(٢) ابن زنبل ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، وراجع الحوار المثير بينهما ، الصفحات : ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٣٦ ،

وهو رهين فى محبسه تصويراً لعب الخيال دوراً كبيراً فى تصوير إرهاصات تنبئ عن مصيره المأساوى :

* * *

والمتأمل فى بناء الرواية يدرك لمسات الروائى فى رسمه لشخصيات الرواية . بدا ذلك فى مواكبته لحياتهم ، ومصاحبتهم للزمان . ومتابعتهم عن كثب . فكثيراً ماكان يقدم إرهاصات تنبئ عن سلوك شخصياته من خلال تصويرة للمنحنى الشخصى لهم . ومن آيات تصويره الشخصيات المتطورة ، شخصية « طومانباى » . فمنذ عرفناه وهو فارس لايغالب ؛ « إن فى أهابه هذا الفتى يا قنصوه فارساً لايغالب ، وأن بين عينيه قلب رجل كبير وفى أنفه حَمِيَّة ، فلا يشغلك منه منظر من مخبر »(١) . هكذا قال جقمق وهو يحاور « قنصوة الغورى » .

ومشاهد الرواية تتضافر وإيقاع الزمن فى تقديم صورة روائية لبطل تراجيدى والخط السياسى للرواية يصور التفسخ الداخلى الذى شمل مظاهر الحياة والأحياء فى مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة . فالراوى يعلق على طغيان المماليك ويعرض لجو المؤامرات والدسائس « ذلك شأن المماليك كلما آنسوا ضعفا من السلطان ، فإنهم ليثيرون الشغب والفتنة ، كلما أرادوا أن يحملوا السلطان على إجابتهم إلى شئ يطلبونه منه ، وأنهم ليثيرون الشغب والفتنة كلما طال بهم السكون وملوا الدعة والاستقرار »(١) هكذا كانت تنتهك حرية الإنسان فى مصر على أيدى طغمة من شراذمة الأرض : استلاب لجهده ، وعرضه ، وأمنه .. وكان الناس فى مصر لايملكون حيلة إلا أن يرفعوا أيديهم إلى السماء داعين الله أن يزيح عنهم البلاء ، ويدفع عنهم الظلم والطغيان .

وبدت نبضات الشعب لرفع هذا الغبن عن كاهله ، كبرق أضاء فى قطع من الليل ثم خبا ، كشف ذلك مادار من حوار فى مجلس الشيخ

---

(١) راجع ، الفصل التاسع عشر (حديث المدينة) ، ص ١٧٧ .

« الخارجى » القطب الصوفى(١) . إذ ارتفع صوت « طومانباى » : « – على رسلكم أيها الاخوان ، انما نحن جميعا هنا أبناء مصر ، جراكسة واعرابا ، ومصريين ، كلنا سواسية فى الحق والواجب وإنما يغلبنا السلطان الجائر على أنفسنا بهذه العصبية التى تفرقنا وتشق عصا جماعتنا ، وماذا يجدينا أن نفاخر بأنسابنا وهذا السيف مصلت على رءوسنا جميعا فى يد صبى عابث قد استبدت به شهواته فليس يعنيه من أمر هذا الشعب قليل ولا كثير ، ليس فينا من يرضى هذه الحال الأليمة : أما الأعراب فيعبرون عن سخطهم بهذه الغارات المتتابعة على أطراف المدينة ، وفى البوادى ، وعلى حدود المدائن فى الشمال والجنوب ، فلا ينالون شيئا من السلطان ولكن ينالون من اخوانهم ، ومن أنفسهم ، وأما المماليك فيتخذون سلطانهم قدوة فلا يزالون يعيثون فى الأرض

---

(١) فى هذا الاجتماع السياسى قال رجل من أقصى المجلس :

– يا سيدنا الشيخ ، هذا والله ما لا صبر عليه ؟ وقد بلغ هذا السلطان الصبى من الطيش والنزق والجرأة على الله مبلغاً بعيداً ، وإن السكوت على مثل هذا الإثم فى ذات الله ؟

قال الشيخ :

– نعم .. ولكن ماذا تملك أن تفعل ؟

قال الرجل الذى إلى جانبه :

– نملك أن نجود بأرواحنا ، وما حرصنا على الحياة وهؤلاء المماليك يسوموننا ألواناً من العذاب ، لا ينظرون إلينا إلا كما ينظر الناس إلى السائمة ، ليس لهم منها إلا درها أو لحمها .. وقد جف الضرع وذاب الشحم واللحم .

فابتسم الشيخ مشجعاً ، ثم قال :

– أفلح إن صدق .. » الرواية ، ص ٨٢ .

والقراءة التاريخية للرواية – أعنى القراءة التى تقوم على التوثيق التاريخى للنص الروائى – تكشف عن عدم وضوح رؤية الروائى للدور الذى قام به المتصوفة إبان تلك المرحلة التاريخية فى البناء الاجتماعى لمصر .

ويعلق د. قاسم عبده قاسم على النص السابق بقوله :

« هذا الإجتماع السياسى ، إنما هو تصوير لا يقوم على أساس من التاريخ لا سيما وأن الصوفية لم يقوموا بدور الدفاع عن البلاد فى تلك الفترة نظراً لتدهور الحركة الصوفية » .

الفساد ، ينهبون ، ويهتكون ، وإنما يتعجلون آخرتهم بهذه المظالم(١) ، وأما

---

(١) ومن المشاهد التى تصور إسقاط الروائى رؤيته الخاصة دون مراعاة للواقع التاريخى الذى يتبت من خلاله الفكرة السياسية التى يطرحها من خلال نسجه لبناء الرواية ، المشهد التالى وفيه يقول « طومان » لـ « قنصوه » وهو يحاوره :

– وما جريرة هذا الشعب حتى يتولى أمره هذا الصبى الذى لا يحسن تدبير أمر نفسه ؟ هل عقم الجركس حتى ليس فيهم من يلى عرش مصر غير محمد بن قايتباى ، فأين منهم مثل مولاى الأمير ؟ ..

فبرقت أسارير قنصوه وبدت فى وجهه أمارات الرضا ، ثم استدرك قائلا :

– هذا رأى لا يراه غيرك يا طومان ..

قال طومانباى :

– بل هو رأى الشعب والأمراء والمماليك جميعاً يا مولاى ، وأنى لأعلم أن مولاى لا يزهد فى العرش إلا تحرجاً من رفع السيف فى وجه إبن أخته ، فان شئت يا مولاى فإن على تدبير الأمر ، ولن ينالك شىء مما تكره ..

قال قنصوه متزهداً :

– ولكنى أكره أن يراق دم أبناء الجركس ويموت بعضهم بأيدى بعض ، وهم عدة الدولة فى كل ما ينوبها ..

قال طولانباى :

– ليطمئن مولاى .. فلن يراق دم .. (الرواية ، ص ١٠٣ ، ١٠٤) .

والواقع أن النظرية السياسية التى سادت هذا العصر كانت تنظر للشعب بوصفه كماً مهملا . يؤكد ذلك تعليق د. قاسم عبده قاسم على المشهد السابق بقوله : « إن حديثه عن رأى الشعب أمر يعبر عن أفكاره العصرية ، ولكنه لا يستند إلى أساس من واقع التاريخ » .

بل إن المتأمل فى البناء الروائى يلمس كيف صور « محمد سعيد العريان » مصير « على بن رحاب » الشاعر ، الملحن ، الموسيقار ، على يد الداودار الكبير « طومانباى » الذى يتساءل « فكيف يجرؤ مصرى على التحدث فى شأن من شئون الحكومة القائمة ، وكيف تأذن له هذه الحكومة بهذا التدخل فيما لا يعنيه ؟ .. ومن هذا ؟ .. مصرى من ذلك الشعب يقحم نفسه على الوزراء والأمراء وأصحاب الشأن من الجركس .. ويا لها جريمة » . (الرواية ، ص ١١٨) .

ويتساءل « سعيد العريان » – على لسان الراوى – : « لماذا ؟ ... لأن على بن رحاب وإن لم يكن من أولئك الجركس الطامعين ، ولا من هؤلاء المصريين الثائرين – كان يشعر أنه مصرى ، وأن مصريته تفرض عليه أن يتتبع الأحداث الجارية فى وطنه بين الشعب وأمرائه ، وأن يكون له رأى فيما يجرى من تلك الأحداث ، وأن يتحدث برأيه إلى من يغشى مجلسه =

المصريون فينظرون إلى هؤلاء وأولئك ساخرين أو شامتين ، ثم لازال فتيانهم يؤلفون العصائب للتخويف والارهاب وانتهاز الفرص ، ويتندرون **فكهين بما كان وبما سيكون ، والسلطان يلهو ... وإنما سبيل الخلاص واحدة : هى اجتماع الكلمة على تقويم المعوج وليكن السلطان بعد ذلك من يكون مصرياً ، أوعربيا ، أو من أبناء الجركس ! ... فكلنا لمصر !»**(١).

والحديث يكشف عن الدرك الأسفل الذى وصل إليه المجتمع فى كافة مظاهره . كما ينبئ عن مدى الوعى التاريخى لدى « العريان » . فالحس القومى لم يكن من القضايا الفكرية المطروحة على الساحة السياسية آنذاك . ومعلوم أن نشوء القوميات مرتبط بقيام الدولة الحديثة . والفكرة القومية ثمرة من ثمار التطور التاريخى للمجتمعات الإنسانية وظهور البورجوازية . وانهيار النظام الإقطاعى . وهذا العطاء الذى أثرى به الإنسان الحضارة الإنسانية جاء فى فترة لاحقة زمنيا للمرحلة التاريخية التى يصورها روائيا « العريان » فى روايته « على باب زويلة » . إذ أن مصر كانت تستظل بنظام الخلافة — بل أنها قد انتقلت إليها فعلا من بغداد — ومعلوم أيضاً ؛ أن الفكرة الإسلامية بما تتسم به شمولية ورحابة تفتح قلبها وصدرها لاحتضان جميع من يدين بالإسلام دون نظر إلى الفروق العرقية أو الجنسية. فالجميع

= من أصحابه أوغير أصحابه (الرواية ، ص ١١٨) .. كل ذلك لأنه تدخل فيما لايعنيه وجرى على لسانه فى بعض مجالسه حديث عن بعض أمراء السلطان الذى يحكم » (الرواية ، ص ١١٩) .

والواقع أن الفكر السياسى فى الإسلام تمثل فى « دار الحرب ودار السلام » مع مراعاة موقف أهل الذمة — وقد هيمنت هذه الفكرة على وجدان الإنسان المسلم . ومن ثم ، فلم يشعر بحساسية قومية ترتبط بهوية الحاكم طالما أنه مسلم ، أما الفكرة القومية ، والشعور بهوية الوطن (مصر) وبالمواطن « الإنسان المصرى » فمفهوم مرتبط بتطور الفكر السياسى العلمانى وظهور عصر القوميات وبزوغ الدولة الحديثة .

وانسجاماً مع هذا التصور ، فالذاتية التى يعبر الفرد من خلالها عن آرائه السياسية لم تكن موجودة على نحو ما يشى المشهد الروائى المشار إليه فى متن النص الروائى .

(١) الرواية ، ص ٨٣ ، ص ٨٤ .

أمام الله سواء لافرق لحبشي على قرشي إلا بالتقوى . وليس هناك ما يشير في النصوص التاريخية إلى هذا الوعي بـ « مصر » بوصفها كيانا متميزاً بسمات قومية على نحو ما أثير في العصر الحديث من قضية عروبة مصر أو مصريتها .

ومما يدعو إلى التأمل أن تأتي الصرخة القومية « كلنا لمصر » على لسان مملوك جركسي هو « طومانباي » في مجلس يضم جنسيات متباينة من أتراك ومصريين إلخ . وليس غريبا أن يشعر الإنسان بالولاء لـ « المكان » الذي يحيا فيه ولكن مما لايتفق والواقع أن يقوم الروائي بتصويره وكأنه صادر عن حس وطني متميز يفوق حس المواطن ابن البلد. ان «شهددار» تقول لزوجها « طومانباي » وهي تحثه على الجهاد .

« أباهي بأنني امرأة السلطان الذي حارب وحيدا دفاعا عن وطنه حتى استشهد في ساحة الجهاد » ،

— ليست نور كلدى الصغيرة بأعز من وطنك الغالي يا « طومان » ؛ والفارق بين المفهومين يرد إلى الفارق بين الجهاد في إطار الفكرة الإسلامية — وهو ما يتسق تاريخيا وروحا مع طبيعة العقيدة الإسلامية التي كانت مهيمنة على النظام السياسي في مصر المملوكية — وبين الدفاع عن الوطن المحدود بحدود جغرافية في إطار الفكرة القومية.. فثمة فارق بين الأيديولوجيتين .

ولو سرنا مع الروائي فيما ذهب إليه من اضفاء صبغة قومية على المشكلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي وصلت إليها مصر — وهي ترد أساسا إلى انهيار النظام الإقطاعي وهو الشكل الاجتماعي الاقتصادي الذي قامت عليه دولة المماليك في إبان عنفوانها. وبدت مظاهر تصدعه عندما تعرض للانهيار فالأصوب أن يهتف المصريون « كلنا لمصر » فناء في حبها ، وذوداعن حياضها.

---

(١) الرواية ، ص ٣٢٨ .

ولعل الأكثر اتساقا مع الفكر السياسى الإسلامى ، والجو التاريخى فى موضوعه تماماً بكل ما يحمل من مضمون تاريخى . فقد كانت مصر دوما غنيمة للغريب . ووفقا لهذا التصور فـ « كل مكان ينبت العز طيب » أما المصرى ، فقد كان — وهو فى داره — « غريب الدار » . وحيداً مع الواحد . هكذا ينبئنا التاريخ .

ولعل الأكثر اتساقا مع الفكر السياسى الإسلامى ، والجو التاريخى الذى تتنفس فيه الشخصيات الروائية التاريخية أن يلتمس الكاتب صوره من المفاهيم الإسلامية ذاتها عن « **الجهاد الأكبر** » جهاد النفس وبناء « **الإنسان المسلم** » بما يشعرنا أننا نحيا — من خلال تصويره الروائى للعصر — فى ظل نظام إسلامى عقيدة وشريعة .

وإذا كان النظام السياسى لدولة المماليك الجراكسة قد اهتزت دعائمه فقد شمل هذا التفسخ العقيدة ذاتها وأصابها ما أصاب مظاهر الحياة فى مصر، ومن ثم عجز النظام عن تطبيق الشريعة الإسلامية . وهنا تتوهج ملاحظة « المقريزى » المؤرخ العظيم « أصبح الدين لا ناصر له »(١) ويترتب على هذا الوضع المتدهور — أن النظام السياسى للدولة المملوكية إذا كان قد فشل فى « **الجهاد الأكبر** » وهذه حقيقة مؤكدة ، فلنا أن نتوقع هزيمته فى « الجهاد الأصغر » أعنى الجهاد الحربى ضد العثمانيين .

والرواية تشى بوجود فجوة عميقة بين النظام السياسى القائم بملابساته الحضارية ، وبين الفكرة الإسلامية ، ممثلة فى اتخاذ النظام ، « الخلافة الإسلامية » ستاراً يستظل به . وفى الوقت نفسه يعجز عن تطبيق هذا (**المثال**) على (**الواقع**) الهابط . ومعنى هذا أن البعد السياسى للرواية يشير إلى فكرة أطلت برأسها فيما بعد تدعو إلى علمانية الدولة .

---

(٢) راجع النصوص التاريخية .

على أن مضمون فكرة « الجهاد » فى هذه الرواية يغاير مضمونها الآثار الروائية التى عولجت فى هذا الكتاب . إذ أن فكرة « الجهاد » بدت فى تلك الروايات ، وقد تألقت ، كوكبا دريا يوقد فى قلوب المسلمين نورا ، وفى قلوب الأعداء ناراً . فهى تصوير روائى لفكرة نبيلة حرص الإسلام على أن يبثها فى أفئدة معتنقيه بأن يكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم .

أما « على باب زويلة » فالمعتدِى (بالكسر) والمعتدَى عليه (بالفتح) ، كلاهما مسلم ، ومن ثم جاء مضمون «الجهاد» مغايراً للمفهوم السابق ، لصد عدوان صليبى مسيحى ، أو مغولى تترى . هنا يكتسب الدفاع مدلولا ينصب حول معنى أشد ارتباطا بالواقع : المحس : الدفاع عن النفس ، العرض ، الأرض . هنا يتحول الجهاد من قلب الجهاد من قلب الهجوم لنشر راية الحق إلى قلب الدفاع عن قيم الحق والخير ممن يدين بها وينتهك روحها فى آن .

والروح الإسلامية وليس القومية تسرى متغلغلة فى نسيج الحوار الساخن الذى دار بين « طومانباى » والسلطان «سليم » إذ قال له وهو يحاوره :

« — فلما تقلدت ذلك وجب على أن أردعنهم وأدفع عن أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحريمهم ، وأما أنت فإنما قيامك فى حظ نفسك لاغير خصوصا ونحن مسلمون ، فكيف تستحل قتل المسلمين وترمى عليهم بالمدافع والنيران ... إن الله تعالى قد أجاز لى ذلك ، قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »(١) .

والصورة الروائية التى رسمها « العريان » لطومانباى جاءت مزيجا

---

(١) ابن زنبل ، المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

مركبا من فكرة « البطل التراجيدى » و « البطل الكارزما » «Charisma» مما شاب صورته بحيث أنها لم تخل من ظلال « دون كيخوتيه » . وإذا اتفقنا أن البطل التراجيدى يشير إلى مأساة الوجود الإنسانى ، كما أن البطل الكارزما يشير إلى تجسيد الإنسان أشواقه فى صورة بطل مُخلِّص . فكلاهما ، تعبير عن وجه حضارى مرت به الإنسانية عبر منحنى تطورها التاريخى . وطبيعى أن يصور الروائى الشخصية معبرة عن وجه من الوجوه الحضارية . أما أن يأتى بها أمشاجا بين نمطين حضاريين لكل منهما ملابساته فيدفع هذا بها المركب الإنسانى إلى نموذج « دون كيخوته » وما يرمز إليه من وقوع الإنسان فريسة الوهم بين (المثال) و (الواقع) .

« إنه لفارس كأن قد ولد على ظهر فرسه ، فلغيره الأسر وله النصر أو الشهادة »(١) صحيح أنه فارس ولكنه جاء فى غير عصره . لقد تغير عصر الفروسية ، دعامة النظام الإقطاعى الذى ساد حكم دولة المماليك . وجاءت الدولة العثمانية وقد تسلحت تسليحا حديثا لاقبل لدولة المماليك الجراكسة بمواجهته « وفجأة برق فى الجو شعاع من نار ، وثار غبار ، وسُمع دوى قاصف كالرعد وخر مائة من المصريين صرعى من طلقة مدفع .. ثم توالت الطلقات وانهالت قذائف البارود تحصد المصريين حصداً فلا تبقى ولاتذر ...

ما هذه النار الخاطفة كأنما انبعثت من طاقة الجحيم؟ وما تلك الشظايا الملتهبة على الرءوس كطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ؟ .

هذا سلاح جديد فى يد الروم لم يحسب المصريون حسابه ولم يتخذوا له أسبابه »(٢) .

---

(١) الرواية : ص ٣٥٤ .

(٢) الرواية : ص ٢٩١ .

وبدا التصوير الكاوزمى للبطل المُخَلِّصُ الذى ينتظره المصريين ليملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جَوْراً . وكأنه «المهدى المنتظر» أو «أبوزيد الهلالى» على نحو ما رسمه الخيال الشعبى «سكة أبوزيد كلها مسالك» هنا تجسيد للحل الفردى وليس الحل الجماعى : يقول الروائى على لسان «الراوى» ، «... ان المصريين جميعا ليرقبون ظهوره كرة أخرى من جور ابن عثمان ، فإنهم لينكرون ذلك النبأ(١) ويرمون قائله بالإفك والبهتان »(٢) .

والروائى على لســـان الراوى يصور الإيقاع الأخير فى سيمفونيـــة البطولة(٣) وان كان «العريان» لم يستثمر المادة التاريخية لابن زنبل وما اتسمت به من طابع قصصى فى الكشف عن جوانب خافية من شخصية طومانباى :

إنه لم يستبطن واقع الشخصية ، وظروفها ، وظروف العصر نفسه فقد أجرى على لسان طومانباى وهو يحاور السلطان سليم حوارا جاء فيه :

« — ذلك العرش قد ائتمنتنى عليه الرعية ، فما لى أن أجعله تحت سلطان غير سلطان الرعية التى حملتنى أمانتها »(٤) فأى سلطان كان للرعية حتى يخشاه «طومانباى» إن صوت المؤلف هنا يعلو صوت الشخصية الروائية ، متجاوزاً صوت عصرها ، فهل الصورة التى رسمها عن العصر واضطراباته تسمح بأن يكون للشعب صوت أو حق تقرير مصيره والشورى فيمن يحكمه . أنا فى ريب من ذلك .

على أنه يلجأ إلى المناجاة الداخلية بوصفها أداة فنية يكشف بها عن

---

(١) وقوع السلطان طومانباى فى يد العثمانيين .
(٢) الرواية ، المصدر نفسه .
(٣) أنظر الرواية ، ص ٣٥٠ .
(٤) الرواية ، ص ٣٥٣ .

العالم الداخلى لشخصياته. وقد أجاد «العريان» فى تصويره لمشاعر «طومانباى» و«قنصوه الغورى». فكلاهما له ماض مشترك. الأول يبحث عن ماضيه، والثانى يهرب منه. وفى لحظة صدق ومكاشفة، باح كل منهما لصاحبه بما يحمل بين جوانحه. والروائى من خلال (الراوى) يستخدم ضمير الغائب ليتيح له فرصة الحركة مع الشخصية فى (الزمان) و (المكان)(١).

وفى رسمه لشخصية «مصر باى» يحرص أن يطلعنا على طبيعتها وشخصيتها الطموح منذ صباها. ألم يقل لنا أن «مصر باى» لم تكن تحب خاير حين آثرته على جارها وصديقها طومان، ولكنها رأت فى صحبته وسيلة إلى بعض ما كانت تأمل؛ أليس ينتظر أن يكون خاير من حاشية السلطان هكذا فهمت من حديثه إليها ومن حديث أستاذها، إذن فستجد به الوسيلة إلى أن تعيش فى قصر السلطان، ومن يدرى؟ فقد تجد بعد ذلك أسبابا تدنيها من العرش... وأن لها من جمالها وذكائها وسيلة لعلها تبلغ بها يوما ما أن تصير سلطانة أو أم سلطان(٢).

وتمر الأيام ولم تحد مصاحبة«مصر باى» للزمان من طموحها فالراوى يحكى لنا أن «مصر باى» الجركسية... كل الذى تعرفه وتطمح إليه ويتخايل لعينيها رؤيا فى المنام، خيالا فى اليقظة، هو أن تصير يوما ما سلطانة تجلس إلى مكانها فى غرفة الزينة فتنطبع إليها صورتها بصورة جارية وراءها ترجل لها شعرها المرسل، وخطا السلطان تقترب من باب الغرفة... تلك كانت كل أمانيها، أما ذلك السلطان من يكون فليس يعنيها جواب ذلك السؤال»(٣).

---

(١) أنظر الرواية، ص ٤٠، ٤١، ٤٢، ٦٣، ٦٤ وراجع الفصل السادس «عودة الماضى» من ص ٦٠ – ٦٧.

(٢) الرواية الفصل الخامس «أحلام جارية» ص ٥٠ و٥٢. وراجع التصوير الدقيق لمشاعرها، الصفحات ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٥٨، والفصل الرابع عشر «أنباء من الغيب» ص ٣١.

(٣) الرواية، ص ٨٩.

وهناك ظاهرة فى بناء الرواية ، فقد جعل «العريان» شخصيات الرواية تنشد الشعر . وربما كان ثمة تبرير فنى لو كانت الشخصية التى يصورها الروائى تشعر بالأحاسيس التى تصورها التجربة الشعرية والتى تعجز اللغة النثرية المعتادة ، فى مواقف الوجد العاطفى ، أو الضعف الإنسانى عن تصويرها . هنا يكون طبيعيا أن تتمثل الشخصية بالشعر . وتقوم باستحضار أو استرجاع المواقف الإنسانية المماثلة لتسعفها فى تصوير حالاتهاالوجدانية . وتساعد القارى للأثر الفنى على عملية الاختزال التاريخى من خلال تراكم التجارب البشرية . وتفردها أو خصوصيتها .

أما هنا فهو يقوم بترصيع الرواية بأبيات من الشعر يجريها على لسان شخصياته بدلا من أن ينفذ إلى باطن الشخصية يستنطقها كى تبوح بما يعتمل فى أعماقها . ومعلوم أن اللغة العربية ، قد واكبت العصر وما أصابه من تدهور . كما أن المماليك لم يكونوا يحسنون العربية فضلا عن أن تكون لغة التخاطب بينهم . فكيف تنشد « مصرباى » شعراً يدل على ذوق متحضر وثقافة أدبية . فهى تردد منذ فارقها خاير إلى حلب .

وقد يجمع الله الشتيتين بعــدما

يظنــان كل الظن أن لاتلاقيا(١)

كما يجعل « خشقدم » ينشد وهو يشد قلاع مركبه ويفرد شراعه مهاجرا من مصر :

لعمــرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخــلاق الرجال تضيق(٢)

---

(١) الرواية ، ص ١٩٤ .

(٢) الرواية ، ص ٢٥٧ ، وراجع المشهد الكوميدى العابث والبيتين اللذين استشهد بهما الرواية : ص ١٤٠ .

إن الروائى يفرض وصايته الأدبية على شخصياته . أما الشخصية الروائية فلم نعرف منها ماذا يعتمل فى نفسها ؟ ! وهذه الظاهرة بقية من بقايا ظاهرة شاعت فى تاريخ الرواية(١) .

على أن الصورة التى قدمها لـ « مصرباى » تجعلنا نتساءل عن مكانة المرأة فى المجتمع المملوكى والدور الذى كانت تقوم به فى لعبة السياسة !

وهو عندما يصف القاهرة جعلها تنافس بغداد ، قرطبة « يوم كانت بغداد أو قرطبة تتنافسان فى أسباب الترف وتزعم كل منهما أنها حاضرة الدنيا »(٢) وكأن ازدهار مدينة يتم بمعزل عن الجو الحضارى العام .

كما أنه نسى أن الصدام الذى تم هو فى جانب منه صدام حضارى . نظام آخذ فى الانهيار ، ونظام جديد بدأ يأخذ دوره . وهذه هى المأساة ، مأساة مجتمع لم يدرك ضرورة مسايرة ما طرأ على مظاهر الحياة من تغير ، فالمجتمع افتقد التعامل مع لغة العصر .

ومن نماذج الشخصيات الثابتة فى الرواية ، شخصية الصوفى «أبو الحسن الحارحى » . ولو قارنا بينها وبين شخصية « عز الدين ابن عبد السلام » ، من حيث ماطرأ على الفكرة الدينية من تطور ، لوجدنا ماطرأ عليها من تغير يعكس — فى التحليل الأخير — موقفين حضاريين مختلفين :

الأول فيها يرمز للفكرة الدينية عندما تقرن القول بالعمل .

والثانية — فى عصور التدهور — عندما ينفصل القول عن العمل ، وينأى عن المشاركة الفعالة فى تغيير الواقع .

---

(٢) راجع للمؤلف « نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث فى مصر » دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٧ .

(٣) الرواية ، ص ٧٠ .

واللغة فى هذه الرواية أكثر اقترابا لروح الفن القصصى ، من حيث الاعتماد على التصوير والابتعاد عن التقرير ، إذا ما قورنت بآثاره الروائية الأخرى .

وأحيانا كان « العريان » يقوم بتطعيم السرد القصصى بكلمات شائعة فى العامية وهى فصيحة ، مثل « زيطة » و « عظعطة »(١) . وهذا النزوع نحو تطويع اللغة للاقتراب من مشاكلة الشخصية الروائية ، والحدث الروائى ، للواقع ، يمثل جهدا من الجهود التى يبذلها الروائيون فى محاولة للاقتراب من حلول لمشكلة « اللغة الفنية » فى العمل الروائى . وإن كان « العريان » لم يستطع أن يتخلص من الاعتماد على شوارد اللغة مثال ذلك وصفه لشخصية « خاير » بأنه شاب أيد(٢) .

ومما يكن من ملاحظات حول هذه الرواية(٣) ، فهى بلا ريب تمثل

---

(١) الرواية ، ص ٧٨ .

جاء فى « تاج العروس » :

« مادة عاط » : العيط « الجلبة والصياح أو صياح الأشر » و« التعيط » و« السيلان » . و« عيط بالكسر مبنية صوت الفتيان النزقين إذا تصايحوا » فى اللعب (أو) هى على ما قاله الليث (كلمة ينادى بها عند السكر) أو يلهج بها (عند الغلبة) ولا يفعله إلا النزق . يقول عيط عيط (وقد عيط) الرجل (تعييطاً إذا قاله فى السكر) مرة ولم يزد على واحدة (فإن كرر) (فقل عطعط) عطعطه .

(٢) الرواية ، ص ٣٥ .

ذكر الزبيدى فى تاج العروس مادة (أيد) :

« ... وفى خطبة على كرم الله وجهه وأمسكها من أن تمور بأيده أى بقوته » . وقوله عز وجل « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » أى ذا القوة . قال الزجاج كان قوته على العباد أتم قوة كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وذلك أشد الصوم وكان يصلى نصف الليل وقيل أيده قوته على إلانة الحديد بإذن الله تعالى وتقويته إياه ... » .

(٣) فى محاولة لتوثيق المادة التاريخية للرواية أبدى الدكتور قاسم ملاحظات قيمة ترتبط بالنظرية السياسية التى سادت حكم المماليك (راجع الخلفية التاريخية) . ورغم إدراك محمد سعيد العريان لحقيقة النظرية السياسية للعصر ، إلا أنه تورط فى أخطاء تاريخية فلم يكن الحكم وراثياً فى عهد سلطان الجراكسة (الرواية ص ٤٠) . وجاء تصويره للجلبان يكشف

جهداً طيبا فى تصوير عصر مضى(٤) ومحاولة لإحياء الإحساس بالماضى فى نفوسنا وتبصرة لواقعنا ورؤية لمستقبلنا . وهى ، أخيرا ، جهد إبداعى يضاف إلى تراث الرواية المصرية .

عن عدم فهمه لحقيقتهم (الرواية ص ١١٧) كما أنه استخدم بعض الألقاب دون أن يفطن إلى أنها لم تكن مستخدمة فى ذلك العصر مثل لقب « سلطانة » (الرواية ص ٥٧) ولقب كبير الأمناء .

(٤) نجح العريان فى تصويره الحى لمظاهر الحياة الاجتماعية (الرواية صفحات ١٧٦ ، ٢١٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٣٢٠) والمقارنة بين تصوير الروائى للحياة آنذاك وماجاء فى دراسة الدكتور قاسم عن الخلفية التاريخية تؤكد وعى « العريان » بالخطوط العريضة للحياة الاجتماعية آنذاك .

الملاحق

روايات تاريخ الإسلام

حضرة الفاضل منشىء الهلال الأغر(١)

لايخفى على حضرتكم أن من واجبات المؤرخ التى تكسبه شهرة وتزيد تاريخه رفعة تمحيصه الحقائق التاريخية وإيراده الأخبار الصحيحة مؤيدة بالأسانيد الثابتة والأساليب القويمة مجردة عن شوائب المزج بين الغث والسمين والواهى والمتين .إلا ما جاء من ذلك فى معرض التمحيص والانتقاد فى غضون الأخبار وتضاعيف التاريخ . وكلما تحرى المؤرخ إيراد الحقائق كلما زادت الثقة بكلامه والإقبال على تاريخه . ومما لاريب فيه أن حضرتكم ممن اشتهروا بفن التاريخ وسبق لكم فيه ما دل على طول باعكم وسعة اطلاعكم . فإذا أضفنا هذا إلى علمكم بما يجب على المؤرخ من هذا القبيل لما وسعنا إلا الاستغراب من التزامكم تدوين التاريخ الإسلامى فى قالب قصصى مهما بالغتم فيه بتتبع الحقائق وتمحيص الأخبار لا يمكنكم إلا مزج الحقيقة بالوهم فكانت سلسلة تاريخكم هذه عرضة لانتقاد المنتقدين واعتراض المعترضين : ومن ذلك ما جاء فى الجزء الحادى عشر من مجلة الموسوعات الغراء ورددتم عليه فى الجزء الماضى من هلالكم المنير وأما الاعتراض والرد فإنهما أمن الجهة التاريخية التى لايسعنى تأييد أحد الرأيين فيها الآن .

وإنما أستميح حضرتكم بقبول انتقادى عليكم من حيث كونكم أوجبتم على نفسكم الانتقاد بالتزامكم تدوين تاريخ الإسلام بأسلوب قصصى مع علمكم باعتبارات التاريخ المنوه بها والتى لابد منها للمؤرخ حتى يسمى كتابه تاريخاً . فربما كان الأجدر بحضرتكم أن لا تسموا تلك السلسلة بسمه التاريخ الإسلامى منذ أول قصة أخذتم بنشرها فى الهلال الأغر على أن هناك أعتبارات أخرى أنا أعلم الناس بحرصكم عليها ومراعاتكم جانبها وهى المحافظة

---

(١) الهلال ، الجزء السادس عشر ، ٢٥ مايو ١٨٩٩ .

على الشعائر والإحساسات فى سائر مناحيكم الكتابية فكيف فاتكم هذا الأمر فى تأليف هذه القصص فضلا عما فى التزامكم سبك التاريخ الإسلامى فى قالب قصصى من ركوب متن التكلف واستغراق الوقت الطويل فى استنباط أساليب الوضع القصصى وتصوير قالب الرواية الوهمية .

وربما تقولون إن الغربيين كثيراً ما اشتغلوا فى تمثيل الحوادث التاريخية فى قوالب قصصية استلذها الغربيون — والشرقيون أيضاً — وأحلوها محل النظر والاعتبار فما علينا إذا حذونا حذوهم وتلوناتلوهم فى شيء استحسنه الشرقيون أيضاً . فالجواب عن ذلك أن بعض القصاص الغربيين وأشهرهم اسكندر دوماس إنما سبكوا بعض الحوادث التاريخية فى قالب قصصى لالكون التاريخ هو المطلوب من قصصهم بالذات بل لجعلهم التاريخ وسيلة لترويج قصصهم بامتزاجها بشيء من الحقائق . وإن أرادوا فى بعض الأحيان التاريخ لذاته فإنما يريدونه فى تمثيل حادث مهم طرأ فى غضون تاريخ أمة من الأمم وأثر فى الوجود أثراً ربما يكون فى تمثيله شيء من الاعتبار . وإما أنهم اشتغلوا بوضع تاريخ أى أمة من الأمم برمته فى قالب قصصى فهذا لم يسمع عنهم ولم يرد منهم . لاسيما وأن الغربيين ينعتون أسكندر دوماس بمشوه وجه التاريخ لسبكه بعض الحوادث التاريخية بقالب قصصى فيه كثير من الحشو واللغو المشين برجال التاريخ .

فما أخا لكم والحالة هذه ألا تسلمون معى بوعورة هذا المسلك الذى سلكتموه فى وضع التاريخ الإسلامى على النمط المذكور . فالأنفع للوطن والأمة اشتغالكم بوضع تاريخ جامع للإسلام على نمط التواريخ الجديدة منه قراء العربية ويرجع إليه فى تتبع الحقائق وقد باشرتم بذلك كما سبقت إشارتكم إليه فى الهلال الماضى فعساكم أن توفقوا إلى إتمامه على الوجه المطلوب والله الموفق وعليه قصد السبيل .

(مصر القاهرة)

(رفيق العظم)

(الهلال) لا مشاحة فى أن عناية أهل الفضل فى انتقاد كتاب تدل على رفعة منزلته فى أنفسهم فلا يسعنا والحالة هـذه إلا تكرار الشكر لحضرات الأفاضل الذين تكبدوا المشقة فى انتقاد ما ظهر من رواياتنا فى تاريخ الإسلام. على أن معظم ما آخذونا به حتى الآن لم يخرج عن الملاحظات الاعتبارية كما بينا ذلك فى ردنا بالهلال الماضى. وأما انتقاد سعاد تلو رفيق بك العظم صاحب رسالة اليوم فإنه يتناول البحث فى أساس المشروع. فهو يرى أننا أخطأنا باختيارنا أسلوب الروايات لنشر التاريخ الإسلامى ويفضل أن تكون عنايتنا موجهـة إلى تأليف كتاب جامع لتاريخ الإسلام على نمط التواريخ الحديثة إلى آخر ما قاله.

فنحن متفقان فى وجوب نشر التاريخ الإسلامى ولكننا مختلفان فى طريقة النشر فقد رأينا نشره فى روايات تلذ مطالعتها ورأى هو حصره فى تاريخ مجرد عن الفكاهة ولا ننكر على حضرته أن التاريخ المجرد أقرب إلى الثقة وأسهل للمراجعة وقد تقدم أننا أخذنا فى تأليفه. ولكنه لا يفى بالغرض الذى أنشأنا الهلال لأجله وهو «تعميم العلم بين الناس على اختلاف مداركهم وتفاوت معارفهم» وتاريخ الإسلام أهم ما يجب علينا نشره لعلاقته ببلادنا وحكامنا ولغتنا فضلا عما رافقه من دواعى العبرة والحكمة.

ولكن الناس قلما يميلون إلى مطالعة التاريخ مجرداً عن الفكاهة إلا فئة قليلة من طلاب العلم. فلو ألفنا تاريخاً لدول الإسلام لما رجونا أن ينتفع به إلا القليلون لأن العامة مع رغبتهم الشديدة فى مطالعة التاريخ والقصص قلما ترى فيهم من يصبر على قراءة تاريخ ضخم من أوله إلى آخره ولا يمل. أما إذا سبكنا ذلك التاريخ فى قالب الرواية فإنه يقرأه بشوق ولذة فلا يلبث وهو يظن نفسه يطالع قصة فكاهية أن يتناول شيئاً من حوادث الإسلام يزيده رغبة فى مطالعة تاريخهم. فنحن بهذا الاعتبار نهيء أذهان الناس لمطالعة التاريخ. ولا نزيدكم علماً أن جمهور العامة حتى المسلمين منهم قلما يعرفون شيئاً عن تاريخ الإسلام فإذا طالعوا شذرات منه فى سياق الرواية نشأ فيهم

الميل إلى مطالعته فى تاريخ مجرد عن الفكاهة . ولا نظن أحداً ينكر علينا ذلك وشاهدنا ما نراه من إقبال الناس على مطالعة ما ننشره من هذا القبيل فى الهلال . ولا ريب عندنا أن جمهوراً كبيراً منهم لم يكونوا يهتمون للتاريخ قبل مطالعتهم رواياتنا فأصبحوا بعد مطالعتها ميالين إليه راغبين فى تفهمه .

فبالروايات التاريخية نهيىء الناس لمطالعة التواريخ وإن يكن فى تأليف الرواية من المشقة أضعاف ما فى تأليف التاريخ مع ظهور فضل مؤلف التاريخ أكثر من ظهور فضل مؤلف الرواية . ولكن غرضنا الفائدة العامة وأقرب الطرق إليها من حيث التاريخ الطريقة القصصية التى نحن سائرون فيها .

وزد على ذلك أن لهذه الطريقة فى نشر التاريخ مزية لا تتأتى لنا فى التواريخ المحضة نعنى بها تمثيل الوقائع التاريخية تمثيلا يشخص تلك الوقائع تشخصياً يقرب من الحقيقة تتأثر منه النفس فيبقى أثره فى الحافظة فضلا عما يتخلل ذلك من بسط عادات الناس وأخلاقهم وآدابهم مما لا يتأتى بغير أسلوب الرواية إلا تكلفاً .

على أننا لا ننكر ما قد يلتبس القارىء فيه بين الحقيقة و المجاز وخصوصاً إذا لم يكن ملماً بمبادىء التاريخ فتتشابه بعض الحوادث عليه . فالجواب على ذلك أننا لا نريد بالرواية التاريخية أن تكون حجة ثقة يرجع إليها فى تحقيق الحوادث أو تمحيص الحقائق ولكننا نريد أنها تمثل التاريخ تمثيلا إجمالياً بما يتخلله من أحوال الهيئة الاجتماعية على أسلوب لا يستطيعه التاريخ المجرد إذا صبر الناس على مطالعته . وهب مع ذلك أنهم صبروا حتى أتوا على آخره بلا ملل ولا تعب فهل يبقى فى أذهانهم منه أكثر مما يبقى بعد مطالعته فى رواية ؟

ولا ننكر من الجهة الثانية أن الأسلوب الذى اتخذه المرحوم اسكندر دوماس وغيره من مؤلفى الأفرنج فى رواياتهم مضر بالتاريخ مخل بنظامه ولا غرو إذا لقبوا أحدهم بمشوه وجه التاريخ لما قدم وأخر وزاد ونقص من حوادثه وأشخاصه لأسباب اقتضاها غرضه من تأليف روايات وهو تأليف الروايات لا تأليف التاريخ فأدخل فى بعض رواياته ما اشتهر من حوادث

التاريخ أو من ورجاله ليلبسها لباس الحقيقة فضحى بالتاريخ لأجل الرواية ، وأما نحن فقد جعلنا حوادث الرواية وسيلة لإلباس التاريخ لباس الطلاوة والفكاهة . فإذا جردت رواياتنا من عبارات الحب ونحوه كانت تاريخاً مدققاً يصح الاعتماد عليه والوثوق به والرجوع إليه وإن كنا لا نتطلب الثقة بها إلى هذا الحد وإنما نعرف لها مزية هي تشويق العامة لمطالعة التواريخ باطلاعهم على بعضها على سبيل الفكاهة .

هذا من حيث ما أوجب تعريض كتابتنا للانتقاد أما ما نوهتم به من المحافظة على الشعائر والإحساسات واعترافكم بأننا أول من حافظ عليها فلكم منا الشكر على حسن ظنكم ولا نخالنا أتينا ما يغير اعتقادكم بنا من هذا القبيل كما بينا ذلك فى ردنا على مجلة الموسوعات فى الهلال الماضى .

وأما كونكم لم تسمعوا بأحد اشتغل بوضع تاريخ أمة من الأمم برمته فى قالب قصصى فلا يمنع أن نكون أول واضع له . فإذا استلذه القراء واستحسنه الكتاب نسجوا على منواله وانتفع الناس به وإلا فإنهم يتناسونه بمرور الأيام . ولا يبقى إلا الأنسب عملا بناموس الارتقاء العام .

فتح الحيرة ووفاة ابى بكر

و « والهلال »*

إ أترى أبو العز

حضرة الفاضل مدير مجلة الموسوعات الغراء :

بينما كنت أقلب صفحات العدد الحادى عشر من مجلتكم الغراء إذ عثرت على انتقاد بإمضاء « مؤرخ » فند فيه صاحبه ما نسبه حضرة الفاضل مدير مجلة الهلال الغراء إلى بعض خيار الصحابة من العشق والأخلاق التى كانت لا تلائم حالتهم لوجهتين « الأولى » لقربهم من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانتهم وسيرتهم « والثانية » لاشتغالهم فى ذلك الوقت بأمر الخلافة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه كما بين ذلك المنتقد الفاضل .

ولست آتياً هنا لأبحث فى هذا الموضوع ثانية ولا لأوضح لحضرات القراء ما يجب على كل مؤرخ وما يلزم اتباعه فقد سبقنى إلى ذلك حضرة رصيفى الفاضل وإنما نبه ذلك فى عامل الشوق للعودة إلى موضوع أظن تقادم العهد جعله منسياً من حضرات قراء الهلال الأفاضل ألا وهو ما كتبته بإمضاءات ت . ع . فى العدد الرابع عشر من السنة السادسة صحيفة ٥٢٩ عن فتح الحيرة ووفاة أبى بكر رضى الله عنه وما كان من رد الهلال على إذ ذاك مرتكناً على ابن الأثير وابن خلدون وقد ظن حضراتهم أنه وفى الموضـــوع حقه فاكتفيت والحقيقة أننى كنت رددت عليه رداً فندت فيه ما نقله عن هذين المؤرخين من نفس أقوالهما وكنت أظن أن يصدر العدد الخامس عشر وفيه هذا الرد والإجابة عليه بحجة أقوى ليقتنع الإنسان بالحقيقة إذ هى أولى أن تتبع . ولكن مضت الشهور وانتهت السنة السادسة ودخل الهلال فى سنته السابعة ولم يكتب عن ذلك شيئاً . وأنى لأعجب كيف أغفل(١) الهلال البحث

(*) الموسوعات ، ٢٣ يونيو ١٨٩٩ ، صفحة ١٠٢

فى هذا الموضوع حالة كونه قال فى خاتمة رده على ما نصه «ونرجو أن يقتدى بكم كل كاتب أديب وأن يكتب إلينا بما يشكل عليه أو يرتاب فى صحته فإن الحقيقة بنت البحث وما العصمة إلا لله سبحانه وتعالى» فها قد أشكل علينا الأمر وارتبنا فى صحته وكان بودنا معرفة الحقيقة لو مكننا الهلال أن نقتبس من نوره شيئاً ! . . . .

ولعمرى بماذا تترقى الأفكار ويتسع اطلاع المرء أليس بمباحثات كهذه تنمو ملكة الفكر فيتعلم المرء حقائق كانت غامضة عليه ربما ما كان يلتفت إليها إلا بعد كثرة المطالعة والاختبار .

بعد ما علمه حضرات القراء وما يعلمونه من واجبات الجرائد التى يجب أن تؤديها خدمة لقرائها إن لم نقل للآداب : علينا الآن أن نبحث فى موضوع الاختلاف فنبسط المسألة لحضراتهم ولهم الحكم إن أرادوا .

وهاك ما كتبته إذ ذاك لمجلة الهلال .

(لا يختلف إثنان فى أن روايتكم فتاة غسان من خيرة الروايات التى ألفت فى هذا الفن لما توخيتموه فيها من صدق الرواية ودقة البحث ولكن ظهر لى بعض الملاحظات على ما ورد فيها فى العدد الأخير من مجلتكم الغراء عند التكلم عن فتوح العرب استسمحكم إيضاحها . فقد قلتم إن خالد بن الوليد ومن معه ساروا إلى فتح الحيرة وعليها أياس بن قبيصة إلخ . . . مع أن أياساً هذا توفى سنة ٦١٢ م أى قبل الهجرة بنحو عشر سنين ومعلوم أن الفتح كان فى خلافة سيدنا أبى بكر سنة ١٢ فالصواب أنه بعد أياس تولى زادويه وقيل زازويه بن ماهان الهمذانى ثم الأسود بن المنذر ثم المنذر الخامس بن النعمان وهو الذى كان فى مدته فتح الحيرة و « موضع آخر » عند التكلم على وقعة اليرموك ذكرتم فى أثناء الحرب وصول البريد بخبر بموت أبى بكر وتولية عمر بن الخطاب مكانه والذى نعلمه أيضاً أنه توفى وهم فى حصار دمشق

ولكن لعلمى أنكم لا تثبتون أمراً إلا بعد تحقق صدق روايته فأرجو إفادتنا عن المصدر الذى أخذتم ذلك عنه) .

فكان رده علينا أنه ابتدأ فتكلم عن المؤرخين وتباين رواياتهم واختلافهم فى تعيين أزمنة الفتوح وتعاقبها وانتقى من بينهم ثلاثة اعتمد عليهم فى كتابته وهم ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء وقد ارتكن فى رده على الأولين . والآن علينا أن نأتى بما استشهد به فى كل نقطة من هاتين النقطتين ثم بما يظهر لنا من الملاحظات عليه فنقول

أولاً « فتح الحيرة » أستشهد فيه بما قاله ابن الأثير عنـــد كلامه عن حوادث سنه ١٢ هجرية ومسير خالد بن الوليد إلى العراق وصلح الحيرة وهو « ثم سار حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع أياس بن قبيصة الطائى وكان أميراً عليها بعد النعمان بن المنذر فدعاهم خالد إلى الإسلام » وبما قاله عن فتح الحيرة بعد ما كان من حروب خالد بوقعة الثنى والولجة واليس « ثم سار خالد من أمفيشيا إلى الحيرة وحمل الرجال والأثقال فى السفن فخرج مرزبان الحيرة وهو الأزاذبه فعسكر عند الغربيين . . . . ونزل المسلمون عند الغربيين وتحصن أهل الحيرة فحصرهم فى قصورهم وكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه أياس ابن قبيصة إلخ » وبما قاله ابن خلدون وهو « ثم خرج إلى الحيرة وخرج إليه أشرافها مع أياس بن قبيصه الطائى الأمير عليها بعد النعمان ابن المنذر » وبما قاله أيضاً عن فتح الحيرة « ونزل خالد منزله بالغربيين وحاصر قصور الحيرة . .... . وخرج ابن قبيصـــة من القصر الأبيض إلخ » واستشهد بما قاله أيضاً عند كلامه عن ملوك الحيرة من آل المنذر « وأقام أياس فى ولاية الحيرة مكان النعمان ومعه المهرجان من مرازبة فارس تسع سنين وفى الثامنة منها كانت البعثة وولى بعده على الحيرة آخر من المرازبة زادويه ابن ماهان الهمذانى سنة ١٧ إلى أيام بوران بنت كسرى ثم ولى المنذر بن النعمان ابن المنذر وتسميه العرب

المغرور الذى قتل بالبحرين يوم أجداث لما زحف المسلمون إلى العراق ونزل خالد بن الوليد الحيرة فحاصرهم فلما أشرفوا على الهلكة خرج إليهم أياس بن قبيصة فى أشراف أهل الحيرة » .

إن من يطلع على قول ابن الأثير يحكم من أول وهلة أن الحق بجانب الهلال ولكن لو تصفح تاريخه لوجده يقول عند تكلمه على ملوك الحيرة بعد ذكر النعمان بن المنذر الملقب بأبى قابوس ما نصه « ثم ولى أياس بن قبيصة الطائى ومعه النخير خان فى زمن كسرى بن هرمز ١٤ سنة وثمانية أشهر من ولاية أياس بعث النبى صلى الله عليه وسلم ثم ولى أزاذبه بن مابيان الهمذانى ١٧ سنة من ذلك فى زمن كسرى بن هرمز ١٤ سنة وثمانية أشهر وفى زمن شيرويه ابن كسرى ثمانية أشهر وفى زمن أزدشير بن شيرويه سنة وسبعة أشهر وفى زمن بوران دخت ابنة كسرى شهراً ثم ولى المنذر بن النعمان بن المنذر وهو الذى يسميه العرب المغرور الذى قتل بالبحرين يوم جواثاء وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد الحيرة ثمانية أشهر وكان آخر من بقى من آل نصر(١) » ولو تأملنا ما قاله أيضاً ونقله عنه الهلال من خروج الإزاذبة مرزبان الحيرة لمقابلة خالد ثم ذكره بعد ذلك خروج أياس نرى تبايناً عظيماً فى قوله مما يجعلنا أن لا نثق بروايته فى هذا الموضع إذ كيف يتسنى لنا أن نتبعه وقد نراه بعد ما أدرك فى سلسلة تولى أمراء الحيرة جمع بين اثنين تولياً بالتعاقب فجعلهما متنازعين إمارة الحيرة مدة الفتح حالة أنه كان بينهما عدد ليس بقليل من السنين . ؟

وقد وقع ابن خلدون فى نفس هذا الخطأ ويكفينا إثبات ذلك آخر استشهاد نقله عنه الهلال فإنه بعد أن أورد أن آخر ملوك الحيرة كان المنذر المغرور رجع لذكر خروج أياس بن قبيصة بأشراف الحيرة لملاقاة خالد . فمن ذلك يظهر لنا جلياً تضارب أقوال ابن خلدون أيضاً . هذا ولو فرض وسلمنا بوجود

---

(١) الكامل ، الجزء الأول ، صحيفة ٢٥٨ ، طبع ليدن سنة ١٨٦٦ .

أياس بن قبيصة مدة الفتح بالحيرة كما أورده ابن الأثير وابن خلدون فإننا لا نقر أبداً بأنه كان ملكاً أو أميراً عليها إذ ذاك بل كان أحد غيره وهو المنذر كما هو مشهور ، ومع كل لو تصفحنا الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون لوجدناه يقول فى صحيفة ٢٦٥ نقلا عن هشام بن محمد الكلبي الرواية المشهورة عند تكلمه عن النعمان بن المنذر الملقب بأبى قابوس ما نصه « وفى أيام النعمان هذا اضمحل ملك آل نصر بالجزيرة وعليه انقرض وهو الذى قتله كسرى أبرويز وأبدل منه فى الولاية على الحيرة والعرب أياس بن قبيصة الطائى ثم رد رئاسة الحيرة لمرازبة فارس إلى أن جاء الإسلام وذهب ملك فارس » .

وقال فى موضع آخر نقلا عن صاحب كتاب تواريخ الأمم(١) ما نصه « وولى الحيرة أياس بن قبيصة فلم تستقم له طاعة العرب وغضبوا لقتل النعمان وكان لهم على الفرس يوم ذى قار سنة ٣ من البعثة ومات أياس وصاروا يولون على الحيرة منهم إلى أن ملكها المسلمون » . فيؤخذ من ذلك أن ابن خلدون نفسه أقر على أن أياساً لم يستمر أميراً على الحيرة حتى زمن الفتح بل كان غيره « وهو المشهور أنه المنذر كما بينا ذلك » وعليه أكثر المؤرخين والرواة كالطبرى وأبى الفداء (أحد من اعتمد عليهم الهلال فى كتابته) وابن الوردى وابن الكلبى والبيهقى والمسعودى واليعقوبى (وابن الأثير وابن خلدون أيضاً) وقد خالفهم كلهم الجرجانى فلم يذكر أياساً ضمن ملوك الحيرة إنما أقر على أن آخرهم كان يدعى النعمان بن المنذر (ولعله المنذر بن النعمان) . أبعد هذا نحكم بولاية أياس مدة الفتح ونقول أن عليه أكثر المؤرخين ؟ . . .

---

(١) هكذا ذكر ابن خلدون فلم يأت باسم المؤلف ولم أجد فى فهرست الكتبخانة الخديوية كتاب بهذا الإسم غير تاريخ الطبرى واسمه تاريخ الأمم والملوك وهناك كتاب آخر يدعى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، لإبن الجوزى (التعليق بقلم أترنى أبو العز) .

ثانياً « وفاة أبى بكر » استشهد فيها الهلال بما قاله ابن الأثير عند ذكره وقعة اليرموك وهو أن خالد أمر عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا فإذ هم على ذلك قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وإمداد وإنما جاء بموت أبى بكر وتأمير أبى عبيدة فبلغوه خالداً فأخبره خبر أبى بكر سراً » وبما قاله ابن خلدون أثناء كلامه عن بعوث الشام ووقعة اليرموك وهو « وبينما الناس فى القتال قدم البريد من المدينة بموت أبى بكر وولاية عمر فأسره إلى خالد وكتمة عن الناس » إلى أن قال فى آخر مقاله « فكانت وقعة اليرموك كما قد قدمنا فى رجب بعد أجنادين وبلغت المسلمين وفاة أبى بكر وأنها كانت لثمان بقين من جمادى الآخرة » .

نعم لا ننكر تضارب أقوال المؤرخين فى تعين أزمنة الفتوحات وتعاقبها ولكن بماذا يمتاز الثقة عن غيره أليس بصدق روايته وقربها من الصواب ووجود ما يكفى من الأدلة لرجحانها . فيجب علينا والحالة هذه إذا وقعنا فى اختلاف كهذا أن نقارن بين أقوال المؤرخين وننظر بعين البصير إلى ما يوجد عندنا من الأدلة فمن كانت أدلته أقوى رجحناه وإلا فنبذناه ظهرياً .

وموضوع الاختلاف هنا ناشىء عما إذا كانت وقعة اليرموك قبل حصار دمشق أو بعده ؟ هنا تشعبت أقوال المؤرخين فمنهم من ذكر أولا وقعة اليرموك ومنهم من أخرها ولكن بالمقارنة بين القولين نرى أن الحق مع القسم الثانى . وهاك بيانا لأدلة :

(أولا) أن معظم المؤرخين متفقون على أن أول مدينة فتحت بالشام مدة عمر بن الخطاب هى مدينة دمشق وأنها كانت محاصرة مدة أبى بكر بدليل ما ذكره الواقدى وما أورده اليعقوبى فى تاريخه المطبوع بايدن الجزء الثانى صحيفة ١٥٨ حيث قال « وحاصروا مدينة دمشق قبل وفاة أبى بكر بأربعة

أيام » وقال أبو العباس البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان المطبوع بمدينة ليدن أيضاً سنة ١٨٦٦ م صحيفة ١١٥ ما نصه « وهم يقولون أن ولاية أبى عبيده الشام أتته والناس محاصرون دمشق فكتمها خالداً أياماً لأن خالد كان أمير الناس فى الحرب فقال له خالد ما دعاك رحمك الله إلى ما فعلت قال كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو » وقال أيضاً صحيفة ١١٤ « فأتى المسلمين نعيه (أى أبى بكر) وهم بالياقوصة ، وقيل الفاقوصة والواقوصة وهى موقعة حصلت بعد أجنادين ويعضده فى ذلك الطبرى .

« ثانياً » أن وفاة أبى بكر رضى الله عنه كانت ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ (وقيل فى ٧ منه كما أورده الإسحاقى وقيل فى ١٥ كما رواه الطبرى) وعلى قول ابن خلدون أن وقعة اليرموك كانت فى رجب وقد كان من اللازم أن يصل المسـلمين البريد قبل انقضاء شهر جمادى الثانيـة إذ المسافة التى بين المدينة واليرموك لا تستغرق كل هذه المدة سيراً ولو قلنا وبما كان تأخير وصول البريد مسبباً من المدينة فذاك قول منقوض لاهتمام المسلمين فى ذلك الوقت بمواصلة أخبارهم أولا فأول من الجهتين .

« ثالثاً » قال ابن خلدون صحيفة ٨٦ من ملحق الجزء الثانى المطبوع ببولاق ما نصه « ولما فرغ أمر اليرموك وسار منه إلى فحل وبلغ عمر خبر اليرموك فكتب فعزل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حتى يصير إلى فلسطين فيتولاها عمرو » وهو ما يثبت أن البريد لم يأتى المسلمين وقت موقعة اليرموك إذ المعلوم أن البريد الذى أتاهم كان بوفاة أبى بكر وتولية عمرو وعزل خالد دفعة واحدة فكيف يقول ابن خلدون ذلك ؟ أليس هذا دليلا على ورود الخبر لهم بعد اليرموك ؟ وما الذى كان بعد اليرموك ؟ هو فتح فحل (أو وقعة جنادين) ثم دمشق على رأى ابن خلدون أو ابن الأثير .

« رابعاً » يؤخذ من الادلة المتقدمة أن وفاة أبي بكر جاءهم وهم فى حصار دمشق كما هو المشهور وهناك ما يثبت ذلك أيضاً وهو ما ذكره اليعقوبى والبلاذرى والواقدى من أن وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ هـ وعضدهم أيضاً ابن الأثير نفسه إذ رجع فذكر وقعة أجنادين (التى جعلها عقب اليرموك) ضمن حوادث سنة ١٥ هـ .

إن من ينعم النظر فى كل ما تقدم يظهر له جلياً أن الواقدى ليس بكثير المبالغة قلما يوثق بأقواله كما وصفه الهلال وإنما هو عندى بالعكس لتقدمه على باقى مؤرخى الإسلام ويمكننا أن نفضله عن ابن خلدون فى هذا الموضع .

ولست أقول ذلك لأضع من مقام هذين المؤرخين بل كلنا نعلم مقدار درجتهما فهما من مشاهير مؤرخى الإسلام الذين يعتمد عليهم ولكن ليس فى كل المواضع فإن ابن الأثير لم يشتهر إلا بكتابة تاريخ الإسلام من ابتداء القرن الثانى للهجرة أما القرن الأول فقد اقتصر فيه عن نقل ما رواه أسلافه فلم يدقق البحث كعادته .

أما من جهة ابن خلدون فإنه لم يشتهر إلا بكتابته عن بلاد المغرب والأندلس . وإنى لأعجب كيف رجع الهلال فاعتمد ابن خلدون فى النقل بعد ما قاله فى ترجمة حياته من أن تاريخه مملوء من الخطأ وبذلك قلما يعتمد عليه ! أما الواقدى فاننا لو سلمنا بأنه كثير المبالغة فلايكون ذلك فى تعيين أزمنة الفتوحات وتعاقبها بل يكون فى وصف الموقع وتفصيل الحوادث ليس إلا وهو مالا نبحث فيه هنا .

وفى الختام نرجو من حضرة الفاضل منشىء الهلال الأغر أن يفيدنا عن رأيه فى ذلك لنرى أى الأمرين تتبع بعد ما علمناه من أقوال هؤلاء المؤرخين .

والسلام « أترى أبو العز »

الكسندر ديماس وجورجي زيدان

* م . ط . ر

ليس ديماس الكبير بالمؤلف الروائي وإني لأعجب لمن يحسبه كذلك ! أنا لا أنكر مواهبه العظيمة وحذقه ولياقته في القصص وتضلعه وإلمامه بالتاريخ ولا سيما تاريخ فرنسا ولكني أنكر عليه تلك الهبة التي تشرق على نفوس ملوك الرواية ! أنكر عليه تلك الملكة الدقيقة التي تشعر بها بين كل سطر من أسطر زولا ودوديه وتلك الروح السرية التي نحس بها عبقرية بلزاك ! وعلى الجملة أنكر عليه موهبة الفن ولا أقول صنعة الفن إن كان هذا لا يرضيك :

أنظر إلى كل قصص ديماس أقول ذلك(١) باب من القياس فأنا لم أقرأها كلها ! تراها مجموعة تاريخية أراد أن يضم أشتاتها فنجح في ذلك نجاحاً باهراً من حيث أن جعل التاريخ حلواً سائغاً جذاباً لنفس القارىء وجعل حوادثه للذيذة شائقة لما أضفى عليها من الروح الروائية ولما صبغها به من الصبغة القصصية . ولقد بلغ ديماس الغاية القصوى في إتقان محاورات أفراد القصة وأجاد كل الإجادة في تصوير معيشة الملوك الخاصة وأحاديثهم وبرع جد البراعة في وصف دسائس النبلاء ومغامرات الأبطال والشجعان وأرجع فأقول أنه فاق الكثيرين في أمر واحد هو محافظته على أسلوب أبطال الرواية في كل موقف(٢) من مواقفهم وفي كل أزمة تعترضهم .

(*) الفجر ، ١٧ يناير ١٩٢٦ وصاحب المقال هو محمد طاهر راشد .

كما ذكرت صحيفة « الفجر » في صفحتها الأولى تحت عنوان جهودنا المسرحية — التجديد في الأدب (:) .. ولا ننسى أننا بسطنا قواعد الأقصوصة وأوضحنا أركانها في مقالات صديقنا الأستاذ الفاضل محمد طاهر راشد (بك) وكيل النيابة الذي كان يمضي مقالاته بالحروف الآتية (م. ط. ر.) . أنظر « الفجر » ٢٨ أكتوبر ١٩٢٦ ، ص عمود ٣ .

(١) ص ١ عمود ١ . (٢)ص ١ عمود ٢ .

ولكن هل يكفى هذا لأن نعد ديماس روائياً ؟ إنى لفى ريب من أن ديماس لو لم يكن متضلعاً من تاريخ فرنسا لاستطاع أن يمسك قلمـــا ! لقد قرأ ديماس كثيراً من التاريخ وتشبع بحوادثه ولايعدم القارىء فى كتب التاريخ المطولة ولا سيا الكتب الغربية المشهورة بحلاوة قصصها أن يجد فيها فيضاً للروائيات إنما هو وجه الصعوبة فى أن ينقل الإنسان حوادث التاريخ القصصية إلى شكل روائى ؟ .

واين هو وجه الصعوبة فى أن يشتهر ذكره إذا كان ذا مواهب كبيره فى اللياقة وخفة الروح وصفاء الذوق والقريحة كديماس ؟ ولكن هل يكفى هذا بأن يكون ديماس روائياً ؟

أنظر إلى ما صنع ديماس فى أغلب رواياته التاريخية ترى المؤامرة التى تقوم عليها وقائع الرواية تافهة ضئيلة وكلما أوغل القارىء فى القصة خفى أثر هذه المؤامرة وقلت قيمتها ولكن القارىء المأخوذ بحلاوة القصص لا يشعر بهذا النقص وتسهوية طلاوة الحادثة التاريخية وسيرة رجالها فكان ديماس يجعل التاريخ نصب عينيه قبل فكرة الرواية التى لم يتخذها إلا لمجرد سرد الحادثة التاريخية فتراه ينسى فى أحيان كثيرة أنه روائى يقص القصص ويلبس برود المؤرخ ! ولا أريد أن يفهم من هذا القول إن ديماس مؤلف تاريخى أو من العلماء بالتاريخ بالمعنى الصحيح كلا ! ولكنه ظفر فى أثناء مطالعاته التاريخية بحادثة لها لذة روائية فنسج منها قصته واضطر إلى أن يشبع حق التاريخ مع أنه كان ينوى أن يقتصر على سياق الحادثة التى استهوته فتورط فى كلا الأمرين حق التاريخ وحق الرواية وأتى بها قصة مضطربة متفككة لا تستقيم فيها فكرة ولا مؤامرة ولعل أكبر هذا العيب راجع إلى ما هو معروف عن ديماس من أنه كان يستعين فى وضع رواياته وكتابة فصول الحادثة التى يختارها بعدد عديد من الكتاب الناشئين يختص كل منهم بكتابة فصل من فصولها أو بحث تاريخى من أبحاثها .

* * * *

وأما زيدان فأراد أن يقتفى أثر ديماس ولكنه أخفق إخفاقاً شنيعاً وسقط سقوطاً مخجلا ! إذ ليس زيدان إلا إنسيكلو بيدياً وهل علمت أن الأنسيكلوبيديا أصبحت فى يوم من الأيام كتاب علم أو فن يدرس فيه ؟ أراد زيدان أن ينشئ مجلة فطالع وأحاط بأشتات من المعلومات التاريخية العلمية اللائقة بمجلة ثم أنه تقدم قليلا فبهرته بعض النظريات والأفكار المبعثرة فى كتب الغربيين والمستشرقين صادفته أثناء مطالعاته المختلطة لتكوين مادة المجلة ! ثم ازدهاه الأمر وأخذ يفكر فظن نفسه قادراً على أن يكون مؤلفاً بعد أن رأى رأسه مكتظاً بالمعلومات المختلفة وغاب عنه أشتات مبعثرة أو أشلاء لاحياة فيها لا تنفع لغير المجلة السيارة فمضى مع ذلك يجمعها إلى بعضها بعضاً وينقل كل ما يجده من آراء الغربيين والشرقيين فى كتبه ولم يعلم أن أول شرط لمهنة « التأليف أن تكون روح المؤلف متشبعة بالموضـــوع الذى يكتب فيه لا أن يعمد إلى كل كتاب فينزع منه ماهو خاص بالموضوع ويضمه إلى نظره . كلا إن هذه الطريقة تؤدى إلى ما وصـــل زيدان من مؤلفات مرقعة مختلفة وأفكار مبعثرة مبتورة وأبحاث مشوهة ناقصة تفكك وإبهام واقتضاب ولا يزال القارىء بينها يتعثر بين منحدر وعال وينتقل من جو إلى جو أو كأنه يلمس جثة ميتة لاحياة فيها ولاحرارة ! ! وما أحق أن يقال إن أى موضوع من موضوعات زيدان وزعت فصوله أو آراءه كما توزع الصور على أوراق الشكولاتة حتى تكمل المجموعة للباحث الدائب وراءها فى مختلف المراجع وكتب البحث الصحيح وهو دون ذلك يقلب الصور بين يديه غير متأثر ولا مأخوذ لانفصام عراها وتفكك أوصالها وضعف شخصيتها .

أتدرى ماذا يقول ما كولى لو أنه أتيحت له مطالعة كتب زيدان والكتابة عنه ؟ أن أول ما كان يبدأ أن يقول : « إن الكتاب إذا تناهى فى الانحطاط حار الإنسان كيف يصف انحطاطه وقد يجره ذلك إلى ندم

الاكترات بهذا الكتاب وربما كل انحطاطه فى نظره (١) فالكتاب محتقر إلى حد أنه لايثير العاطفة أو الحقارة إذا وصلت إلى الحد الذى تقتل فيه الغضب لم يجد الإنسان فى نفسه حرارة ولاحمية لأن يقذف من قلمه جوارح مذماته وانتقاداته ؟ فالكتاب الذى بين أيدينا تناهى فى السقوط للدرجة تكاد تعجزنا عن شرح عيوبه وتلمس مثالبه ! الكتاب منحط أفظع انحطاط لدرجة أن لا نبصر فى أى ناحية من نواحيه شعاعاً أو بصيصاً من الحسن نستطيع به أن نميز عيوبه ! ! الكتاب هو العيب بنفسه ! وهل يكلف إنسان أن يذكر ما فى العيب من العيوب ! مهمة شاقة وعمل يكاد يكون مستحيلا ! إنى إذا ما نظرت إلى الكتاب من بعيد هشه (٢) احتقاراً من حقارته فإذا غامرت بنفسى فيه لأبسط لكم معانيه ألفيتنى كالتائه الحائر الذى يقذفون به إلى الظلمات ويقول له أبصر الآن طريقك ! الآن خرجت من الظلمات ولكنى لا استطيع أن أحدثكم ألم يبق إلا أن ندخل جميعا وسط الظلمات والمعايب لتشاهدوا بأنفسكم ما أنا عاجز من أن أصفه لكم !

هذا ما كان يقوله ماكولى لو أنه كتب عن زيدان ولكن ليس هذا ما كنت أقوله أنا إذ لا برهان لدى أعزز به قولى :

* * * *

زيدان وحده

يقول المازنى عن زيدان : « وليست مؤلفاته من الإبداع والحسن بحيث تصبح عندنا فى مرتبة آبائنا وأحبابنا وتجاربنا لما يتجلى فيها من سعة الروح التى تكاد تلتهم الدنيا وتساوى العالم الذى تصوره كلا ليست كتب زيدان من هذا الصنف وليس زيدان فى الحق إلا رجلا من الأوساط لم يرفعه الذكاء

---

(١) غير واضحة فى النص الأصلى .
(٢) هكذا فى الأصل .

وقوة الذهن وسعة الروح إلى مرتبة العظماء والفحول ولم يهبط به الغباء والبلادة إلى درجة العوام والغوغاء «ويقول أيضاً» «وكذلك ليست رواياته بأرفع مرتبة من سائر تصانيفه وتواليفه فكثيراً ما نجد القصة فيها مشوشة مضطربة لأنه لم يتولها بروية ولم يتعهدها بنظر وتدبير وذلك شأنه في كل شيء ولو كان زيدان ذا تؤدة وأناة لما استطاع أن يخرج لقرائه هذا العدد الكبير من الكتب والروايات . على أن ولتر سكوت كان سريعاً وكانت كتابة بعض رواياته لاتستغرق أكثر من أسبوعين ولكنه كان ذا سليقة وزيدان ليس له طبع يحور إليه ولا سليقه تخدعه ولذلك تراه لا يحلل أخلاق أبطاله ولايشرح لك شخصياتهم فعل كبار الروائيين ومجيديهم ولست أرى فرقاً بين كثير من أبطاله لأنه لم يعن بتميزهم كما لم يعن بالقصة وكما لم يعن باللغة » ! .

أعجبت بهذه الكلمة للمازني ورأيت فيها كثيراً من الصواب وإن كنت أرى أن المازني لم يلتزم الصراحة المطلقة في أحكامه لأنه نشرها عقب وفاته ولو أن المازني أعاد اليوم الكرة وطرق الموضوع لكان منه شأن آخر .

ليس في روايات زيدان عن العصور العربية القديمة ما نشعر معه بأي شئ من روح العصر الذي تطالعك حوادثه ولا تحس شيئاً من وجوهه ولا تبصر شيئاً من مظاهره حتى اللغة التي يجريها على ألسنة أبطاله والتي كان يستطيع أن يظفر بها من كتب السير والقصص وتساعده قليلا في نشر الروح العربية عليها لم يوفق إلى بسطها في رواياته . أما المؤامرة أو الفكرة التي تقوم عليها الرواية فمن العبث البحث عنها وهي إذا وجدت كانت خالية من الفن تافهة المغزى قليلة الجدوى كما أن الأشخاص متناقضة صور الواحد منهم تمر بك دون أن تشعر بوجوده . وعلى الجملة فقدت رواياته كل ما يشوق إلى قراءتها حتى الحادثة التاريخية التي تنسج بردتها والتي كانت عزاء زيدان الوحيد إن فقد كل شيء آخر غيره . ليكاد القارىء يفضل أن يطالعها في كتاب من التاريخ الخالص أو التراجم عن أن يقرأها في القالب الروائي الذي وضعها فيه زيدان .

وإليك رواية الانقلاب العثمانى مثلا تر زيدان يصف أعمال الجواسيس وخواطر السلطان وخوفه على حياته وأسلوب معيشته بما لا يخرج عن المشهور الذى نعرفه العامة من الناس ويتناقلون أخباره . كل ما فيها لم يتعد النبذ التى تكتب فى المجلات السيارة . كذلك يصف يلديز « غيباً » أى أنه يصف حديقه يتصورها كيف شاء ويظن أنه تمتلك لب القارىء إذ ينطلق يتحدث عن القصور التاريخية يرجع إلى المعاينة أو إلى كتب الرحلات المسهبة . وهو لا يشرح شيئاً من العادات أو الأخلاق التركية بل حسبه أن يحشر بألفاظ منفردة كواحة الصحراء ليتها لم تلك غير مبتذلة مشوهة يظن أن فى ذكرها ما يشيع الجو التركى فى القصة من أمثال « شاهنشاه » أفندم . بالمشاة السر عسكر » بينما أن جو القصة الحقيقى جو مصرى خالص . فإذا ظفرت فى خلال الرواية بتأثير أو انتقال إلى جو تركى فأغرك إلى اقتباس من أصل تاريخى لا فضل له هو فى الإتيان به .

نكر إذن على زيدان أن يكون مؤرخا أو روائياً و نعترف له بالفضل الذى لا يمكن أن نجحده وهو أنه صاحب مجلة ناجح فى عمله دؤوب (مجتهدة)(١) فى الإحاطة بكثير من المعلومات المتفرقة .

---

(١) هكذا فى الأصل .

العصر والبيئة

في الأدب والتاريخ

محمد سعيد العريان

من القواعد التي لا تكاد تقبل الجدل، أن الأديب وعصره هما صورتان تعبر كل منهما عن الأخرى تعبيراً ما، فبينهما من التشابه ما بين الأثر والمؤثر، وبينهما من التفاعل ما بين مادتين من مواد الكيمياء ينتج من تشابك عناصرهما مادة ثالثة تمتزج فيها خصائص المادتين كلتيهما.

بلى، وإن القاعدة لأعم من ذلك، فليس هو الأديب وحده، ولكن كل ذي فن في فنه، وكل ذي رأي في رأيه، وكل مبرز في ناحية من نواحي النشاط — هو صورة من عصره، وتعبير عن حياته، ولون من ألوان بيئته.

ومن هنا كان فرضاً على كل من يحاول أن يدرس أديباً من الأدباء أو حادثة من التاريخ، أن يعرف العصر الذي نشأ فيه الأديب أو حدثت الحادثة؛ وإن ذلك ليدعونا إلى السؤال عن معنى «العصر»: أهو التاريخ «العام» الذي تناول حياة الأمة كلها، أم هو المؤثرات «الخاصة» التي أدبت الأديب وأحدثت الحادثة؟ ...

وسؤال آخر عن معنى «التاريخ»: أهو الحادثة أم هو الناس؟ ..

لقد غبر مؤرخو العرب زماناً لا يعرفون التاريخ إلا أنه تأريخ وفيات الأعيان، أو تاريخ ولاية الأمراء وعزلهم؛ فصرفوا همهم إلى ذلك واتخذوه غرضاً. أما ما سوى ذلك من أحداث الحياة ووقائع التاريخ فهو تتبع واستطراد. ثم نجمت طائفة أخرى فرتبوا التاريخ فصولاً على الحوادث

(*) الثقافة، ٢٣ ديسمبر ١٩٤١، ص ٧

لاعلى الرجال ولا السنين ؛ وسلكوا سبيلا ما نزال نسلكه ، على تفاوت بيننا وبينهم بتفاوت ما بين زمان وزمان :

ولست أرى رأىَ أولئك ولا رأى هؤلاء ؛ فليس التاريخ عندى هو حادثة حدثتْ ، ولا هو ولاية أمير وعزل أمير ؛ لا ، ولا هو وفيات الأعيان ومواليدهم ؛ ولكنه هو الناس .

لأهل التاريخ ما يرون فى معنى التاريخ ، فليس لى أن أقتحم عليهم ؛ وإنما لى من التاريخ معناه الأدبى وحسب ؛ والتاريخ عندى — بهذا المعنى — هو الناس ؛ هو الأفراد الذين ينتظمهم معنى الجيل ، فهو السوقىّ كيف يبيع ويشترى ، والنادل فى القهوة والمطعم كيف يسمع ويجيب ، وبيّاع النصيب فى محاط الترام وعلى أبواب المساجد . وهو شرطى المرور ، وبواب العمارة ، وخادم الدار ، وهو زوجى وولدى ، وزملائى فى الديوان ، وسُمارى فى القهوة ، ثم هو طعامى وشرابى ، ورياضتى وعملى ، وفراشى الذى يؤديني ، ووسائل لهوى فى فراغى . . إلى أشياء وأشياء هى منا وإن بعدت عنا ، وهى ذات الأثر كلّ الأثر فى حياتنا ، وهى العصر والتاريخ والبيئة : تعبر تعبيرها الصادق عن حياتنا ، وتؤثر أثرها المنتج فى فنوننا ، وتبنى وتهدم فى نظام حياتنا أكثر مما تبنى وتهدم أحداث السياسة ووقائع التاريخ العام .

هأنذا أضرب مثلا لثلاثة من شعراء هذا الجيل : شوقى ، حافظ ، ومطران .

لقد نشئوا وعاشوا فى عصر واحد ، ومرّ بهم من أحداث التاريخ العام ما مرّ بكل « كائن حى » فى هذه الأمة ، فشاهدوا عصر الخديوية ، وعهد الاحتلال ، ثم رأوا بواكير الاستقلال ، وأدركوا عصر الجمهورية التركية . وكان كل منهم بالمنزلة التى تجعله فصلا فى تاريخ هذه الحقبة السياسى ، فهل

ترى أثر ذلك فى إفنهم متشابها ، وهل يغنى عن دراستهم دراسة التاريخ العام ، فيزعم زاعم أن ذلك التاريخ هو تاريخهم ؟

ألا إن ذلك ليس شيئاً فى تاريخ شوقى وحافظ ومطران ، فإن لكل منهم تاريخاً غيره فيا يلى وجده من ثيابه ، وفيا طاب وخبث من طعامه ، وفيمن خلع وليس من خلانه ، وفى لياليهم العابسة والضاحكة ، وفى أسمارهم الرزينه والعابثة ، وفى مراكبهم الوطيئة والخشنة ، بالجملة فتاريخ كل منهم هو « الناس » الذين عاش لهم وبهم ، وتقلب على عيونهم واستمع إلى أحاديثهم ، واستمتع أو استاء منهم ولهم ، فمن هؤلاء « الناس » لنعرف بهم ذلك « التاريخ » ؟

* * *

« الناس » بمعنى التاريخ فن لا وجود له فى أدب هذا الجيل ، وليس لنا به عناية ولا احتفال . ولعلى لا أكون غالياً إن زعمت أنه فن لا يلتفت إليه أحد من أدبائنا اليوم على شدة حاجتنا إليه فى كثير من دراستنا فى الأدب والتاريخ .

ولست أعنى بما أسميه « فن الناس » أدب التراجم العامة ، وإنما هو لون منه : اللون الذى ينقل إلينا صورة من ناس العصر الذين نعاشرهم ونبايعهم ونشاريهم على اختلاف مراتبهم فى الاجتماع وتأثيرهم فى الحياة .

واللون الذى يصور لنا « الناس » الذين منهم الزبال والشيال ومنهم الأمير والوزير ،

هو الفن الذى يسجل للأجيال صورة كاملة من ناس هذا الجيل الذين برزت أسماؤهم لمعنى بارز فيها ، بروزاً سامياً ، أو بروزاً سافلا ، أو بروزاً شاذاً .

ليس وفاء بحق التاريخ أن نقتصر فى التراجم السياسية على أسماء : سعد ، ورشدى ، وعدلى ، ولا نذكر معها أسماء : السمالوطى ، وبلتنز الننين ، وسليم زكى ، والطرابلسى ، وكوين بويد .

وهل نستطيع أن نؤرخ الثورة المصرية تأريخاً حقاً من غير أن تذكر القاياتى ، وأبا شادى ، وبشير الشندى ، وعبد الحميد النحاس ، وبولص غبريال ، وملطى سرجيوس ؟

وليس وفاء بحق الأدب أن نقتصر من أدباء الجيل على أسماء فلان وفلان ، إذا لم يكن معهم حمام ، وعرام ، والحماحمى ، وعبدالحميد الديب .

وماذا يعرف المؤرخ من حياتنا الاجتماعية فى غد إذا لم يعرف « الفيشاوى » ونادى العلم ، وقهوة الحلمية ؟

وأين من تراجم الأعيان : أبو ظريفة ، والحلوجى ، والدهان ، والعجاتى ، والعاصى : إلى أسماء أخر لها شهرتها وأثرها ، وما منهم لا له ناد يغص كل يوم بناس وناس من مختلف الطبقات لا يلتقون ، فى مكان ؟

* * *

وما هى القاهرة اليوم ، وماذا كانت قبل سنوات ثلاث ، ما لياليها وما أسمارها ؟

ماذا يعرف التاريخ عن صالة ببا ، وكازينو بديعة ، ومسرح الكسار ، وليالى منيرة ، وسهرات يوسف وهبى ، ومرقص أخوان رشدى . . . وما أثر أولئك فى تلوين حياة القاهرة وتكوين نفوس شباب الجيل .

وما نطالع اليوم من وجوه فى نوادى : الشبان المسلمين ، والشبان المسيحيين ، والأهلى ، والترسانة ، والمعلمين ، ودار العلوم ، والبعكوكة ، وبيت الأمة ، ودار السياسة ، وندوة الرسالة ، ولجنة التأليف والترجمة . إلى نواد يقصر عنها الاحصاء .

وماذا يأثر التاريخ فى غد عن محجوب ثابت ، وحسن شافعى الجيزاوى ، وغلوش ، وعن أبى الوفا الشرقاوى ، والدجوى ،

والزنكلونى ، والدسوقى والعربى ، ثم عن البابلى ، ونعمان الأعسر ، وعبد العزيز البشرى ، وحسن عبد القادر ، ولويس فانوس .

هؤلاء وأولئك وغيرهم ممن أعرف ومن لا أعرف ، سافلين عن ذلك وعالين ، هم تاريخنا وصورتنا ، ومجموع ما ينبغى أن يؤثر إعنا . وهم العصر والجيل والبيئة والزمان والمكان .

ليس التاريخ هو السياسة وأطوارها وما تُجِد من حوادث ، ولكنه هو هؤلاء الناس .

إن الحادثة ليست شيئاً فى التاريخ إلا إذا كان معها ناسها ، فهى بهم تاريخ وهم بها ، فإذا تجردت الحادثة من مُحدثها ، فما هى بشىء فيها عظة ولا معتَبَر .

* * *

هل لى أن أقول بعد ما قدمت : إننا لم نشرع بعدُ فى تدوين تاريخنا وإن الباحث فى آثارنا غداً لن يجد بين يديه من مقدمات الحكم ما يهيِّئ له أن يحكم فيصيب .

لقد دعوت أدباءنا فى بعض ما سبق من حديثى — إلى أن تكون لهم عناية بأدب التراجم ؛ لست أعنى بذلك « تراجم السادة » والكبراء منا فحسب ؛ فليس أولئك بكل شىء فى هذا الباب ؛ ولقد تكون ترجمة صعلوك بارز الشخصية والأثر أجدى على التاريخ والأدب من ترجمات ؛ فإن ترجمة السيد العظيم قد تكون منفعتها له وحده وأثرها عائد عليه وظاهر فيه ؛ وترجمة « هؤلاء » هى صورة التاريخ وأدب الجيل ؛ لأنهم المؤثر العام الذى ينفعل به الزمان والمكان والحادثة ، وبهم يتأريخ التاريخ .

إنما أدعو إلى أن تكون لنا عناية عامة بالتعبير عن كل ما يحيـــط بنا من صور الحياة فى هذا الجيل ، بتدوين تاريخ البارزين من أهله وحوادثهم

وأيامهم ، أعياناً وسوقة ، وأمراء وصعاليك ؛ لا يعنينا فى ذلك مكانة المترجم الاجتماعية ، بل أثره فى الجماعة ، وخصائصه فى الحياة ، وصلته بالناس ، وانفعال البيئة به ، لنترك لمن بعدنا ديواناً يجمع تاريخ أعيان الجيل ، وتاريخ الجيل فى أعيانه على اختلاف منازلهم الاجتماعية فى ظاهر الحياة .

لست أريد كتاباً واحداً ينشئه كاتب واحد ، ولست أريدها تراجم كما تكتب لوحات الرخام على قبور الموتى ؛ فليس يتم تمام هذا الفن بكاتب وكتاب على ما تعود الواصفون أن يصفوا ، وماذا تستطيع العينان أن تريا إلا ما أمامهما دون سائر الجهات الأربع ... أرأيت إلى السائحين فى مصر يحمل كل منهم مصورته فى يده يختزن فيها ذكريات رحلته ، ويحبس التاريخ أن يفر ، ويقيد الزمن أن يفلت . . . أرأيت صورة مما يرسم أحدهم تغنى عن صورة؟. . . كذلك نريد أن يكون تاريخنا تحت أعيننا .

ترى أكان القدماء أبصر منا بالحقيقة الأدبية العالية ، وأعمق غوراً فى فهم الأدب والتاريخ حين جمعوا فى كتبهم من أخبار الصعاليك والنوكى والشطار والمجانين ما يقرؤه القارئ من سواد الناس اليوم فيتعجب ويسخر ، ولا يملك إلا أن يضحك ، ويقرؤه الأديب والمؤرخ والعالم السلوكى ، فيستخرج الجد من هزله والحق من باطله ؟

أكان ذلك منهم للهو والترفيه والمراوحة بين الجد والهزل ؛ أم كان ذلك عندهم علماً من العلم وتاريخاً من التاريخ وفناً من فنون الأدب ؟

وحتى لو كان القصد كل القصد منه إلى الهزل والترفيه لكان فناً حقيقاً بالتدوين ؛ فكيف به وهو وسيله من وسائل الحكم فى التاريخ العام وفى أدب كل أديب وشعر كل شاعر ؟

١٨٠

كتب إلى صديق شاكيا ، يقول إنه معنى بكتاب يؤلفه من عن فكاهة حافظ ؛ وقد كان حافظ رحمه الله ضحكةً مصوَّرة إنساناً ، فإن مزاحه وفكاهته لحديثٌ مشهور ، وخبر مأثور ، ونادرة على كل لسان ؛ ولـــكن الصديق لم يظفر — على طول ما تتبع واستقصى — بشيءٍ يخف في الميزان أو يثقل ؛ ذلك وحافظ ما يزال رطب الثرى ؛ وما يزال كثير من خلطائه ، وصفوة أصحابه في الأحياء ، وما زال حديثه عطراً يأرج في كل مجلس ؛ فكيف لو انقضى هذا الجيل ؟ وأين منزلته من التاريخ مهما كانت منزلته في الحياة ؟ .

الروايات التاريخية

علي أدهم *

الروايات التاريخية ليست تاريخاً خالصاً محققاً يرجع إليه ، ويوثق به ، ويعقد عليه ، ولكنها مع ذلك تستمد مادتها من التاريخ ، وتؤثر بدورها فى فهمنا له ، وطريقتنا فى عرض حوادثه ، وسرد أخباره ، وتصوير شخصياته . وأعظم الروايات التاريخية وأدلها على قوة الخيال وإجادة البحث والاستقصاء لا تغنى غناء التاريخ ، ولا تقوم مقامه ، وقد لا تتناول حوادثه المأثورة إلا عرضاً ، وقد تحاول أن تصف مواقف معينة تشبه ما ورد فى التاريخ ، ولكنها ليست المواقف التاريخية بنصها وفصها وخيرها وشرها ، وقد تعرضها عرضاً بلاغياً وتفسرها تفسيراً فنياً يلائم أهداف الرواية التاريخية ويوافق وضعها وجوها .

والروايات التاريخية كان لها أثر محمود فى ترويج التاريخ وتقريب حوادثه إلى الأفهام ، وأكثر الناس يملون قراءة كتب التاريخ الجافة المملوءة بالحوادث المملة والأخبار المتشابهة الرتيبة ، وبخاصة لأن الكثيرين من المؤرخين قد يجيدون البحث والتحرى ويبذلون جهداً جباراً فى جمع الأخبار ، وحشد المعلومات ، ولكنهم يعرضونها عرضاً مملا يغرى الناس بالزهادة فى قراءة التاريخ والوقوف على حوادثه وأخباره ؛ وقد لحظ ذلك فى الشرق المؤرخ المعروف جورجى زيدان ، فقد وجد أن الكثيرين لا يصبرون على فهم أسلوب أمثال الطبرى والمسعودى واليعقوبى وابن خلدون وغيرهم من مؤرخى الإسلام الأعلام ، فحفزه ذلك على كتابة رواياته التاريخية ، وقد وفق فيها إلى استمالة القراء لمعرفة الحوادث البارزة المشهورة فى تاريخ الإسلام ، وقد سار فى آثاره بعض المؤلفين ، وربما كان فيهم من هو أبلغ منه أسلوباً ،

(*) الثقافة ، ١٨ أكتوبر ١٩٥١ ، ص ٦ .

وأقوى عرضاً للحوادث ، وأقدر على وصف المشاعر وتحليل العواطف ، ولكن لزيدان فضل السبق وتمهيد السبيل .

وأستاذ الكتاب جميعاً فى هذا اللون من ألوان الأدب التاريخى ورائدهم الأول غير منازع هو الكاتب الأسكتلندى الكبير الذائع الصيت السير ولتر سكوت ، فهو واضع أساس الرواية التاريخية الفنية ، ومعظم من جاءوا بعده اهتدوا بهديه ، وضربوا على قالبه ، وكانوا من تلامذته وأتباعه ، سواء أدركوا ذلك أو لم يدركوه ، وقد كان السير ولتر سكوت شاعراً مفلقاً قبل أن يكون كاتباً روائياً ؛ ويروى أنه ظل ينظم الشعر مجيداً فيه سباقاً للأقران حائزاً للإعجاب والتقدير حتى لمع نجم الشاعر الكبير بيرون وعلت شهرته ووجد فيه منافساً قوياً فتخلى له عن الميدان ، وأقبل على كتابة الروايات التاريخية ، وأدهش معاصريه بالإسراع فى الإخراج ووفرة الإنتاج ، واتسع رزقه وكثرت أرباحه وعاش عيشة الأعيان المياسير والأمراء الوارثين ، حتى أصيب بكارثة مالية واجهها بعزم لا يلين ، وجاهد جهاد الأبطال فى استصلاح أحواله المالية ، وتفريج أزمته ، وقد اقتضاه ذلك تحميل نفسه ما لا يطاق من الجهد المبذول ، والعناء الشديد ، حتى اعتلت صحته ، واستنفدت حيويته .

وقد ولد السير ولتر سكوت فى القرن الثامن عشر ونشأ فيه ، وفى هذا القرن بدأت بوادر العناية بكتابة التاريخ وفلسفته ، وظهر فيه فولتير وهو مؤرخ من طراز ممتاز ، وكتابه عن عهد لويز الرابع عشر يعد من طرائف الكتابات التاريخية ؛ وظهر جيبون مؤلف كتاب تدهور الدولة الرومانية وسقوطها ، وهو من كتب التاريخ العظيمة الخالدة ، وغيرهما من المؤرخين المجيدين المقتدرين ؛ وكانت كتابة التاريخ فى ذلك القرن تقوم على البحث الدقيق ، وغربلة الأخبار وعرضها على محك النقد ؛ ولكن كتاب التاريخ فى القرن الثامن عشر برغم إجادتهم وتجديدهم فى كتابة التاريخ كان ينقصهم شيء هام ، وهو فهم نفسية العصور التى يصفونها ؛ ومن أقوال تين فى

نقدهم : « فى كتب فولتير وجيبون وروبرتسن لا نجد المعرفة الواسعة والأحكام الناقدة وحدهما ، بل نجد كذلك وصف النظم والقوانين وصفاً دقيقاً صحيحاً ، وموجز القول أننا نرى كل شيء إلا « أرواح الرجال » . . ، وهبة الخيال العاطف التى تمكن الكاتب من الامتزاج بمشاعر الغير قد حرم منها مؤرخو القرن الثامن عشر » وهى هبة لازمة للمؤرخ ، وبدون هذا الخيال ، العاطف لا يستطيع المؤرخ أن يتغلغل إلى روح الغصر الذى يتصدى للكتابة عنه ولا أن يشارك الشخص الذى يحاول أن يؤرخ أعماله ومشاعره ووجهات نظره ؛ ومن أقوال النقادة الفرنسى إميل فاجيه فى نقد فولتير : « النقص الرئيسى فى فولتير هو عجزه الأصيل وعدم قدرته على الخروج من حدود نفسه ، وهـذا النقص يتخلل أخلاقه ويسيطر على سلوكه وتصرفاته ، ويكون آراءه فى السياسة والتاريخ والفلسفة ، وانحصار رأى فولتير فى أهل عصره يجعله يخطىء الحكم على بنى الإنسان » .

وأهم ما يؤخذ على مؤرخى القرن الثامن عشر بوجه عام هو نقص الحاسة التاريخية الذى جعلهم يعتقدون أن الإنسان فى كل العصور مثل إنسان القرن الثامن عشر . وغض النظر عما يعرض له من التغيرات ، ويطرأ عليه من الأحوال المختلفة ؛ وجيبون وهو من أقدر مؤرخى ذلك القرن يأخذ عليه النقاد أن عقله المتشكك الناقد لم يستطع فهم المعارك الدينية والخلافات المذهبية التى كانت تعصف بالناس عصفاً وتؤثر فى نفوسهم وحياتهم تأثيراً عميقاً خلال العصور التى وصفها فى تاريخه ؛ وقد ذكر جيبون قصة هذه الخلافات الشديدة المثيرة ، ولكن القارىء يشعر أنه كان يشرف على القوم الغارقين فى هذه الخلافات وترتسم على وجهه ابتسامات الاحتقار أو الإشفاق لأنه لم يستطع فهم جوهر هذه الخلافات ، ولذا عجز عن تفسيرها لغيره .

وعدم التفات مؤرخى القرن الثامن عشر لألوان التغيرات التى استهدف لها تاريخ العالم جعل كتابة التاريخ رتيبة مملة تكاد تكون أخباراً مكررة وحوادث معادة وصوراً متماثلة ؛ وقد أخل ذلك بالعنصر الفنى والمنهج الأدبى

فى كتابة التاريخ وعرض حوادثه وأشخاصه ، وأتاح الفرصة لظهور السير ولتر سكوت والرواية التاريخية . والظاهر أن العنصر الأدبى لازم فى كتابة التاريخ ، فإذا أبعد من ناحية احتال على الدخول من منفذ آخر ، والشعور بالحاجة إلى هذا العنصر الأدبى هو الذى ساعد على ميلاد الرواية التاريخية ، وكان من عوامل ترويج روايات أمثال ولتر سكوت فى بريطانيا ومانزونى فى إيطاليا وسائر الكتاب الذين ترسموا خطواتهم واقتدوا بهم .

وقد أظهر سكوت فى رواياته أن التغيرات التى تعتور حياة البشر لا تقتصر على الثياب ومعدات الدفاع عن النفس وأشكال المبانى والطرق ووسائل المواصلات ، بل تشمل كذلك العقائد والأفكار والأخلاق والآداب والطبائع والعادات ؛ وقد استطاع بخياله القوى وعطفه الشامل أن يعرض على قرائه صوراً تاريخية نابضة بالحياة ملونة باللون المحلى ، حتى ساد الاعتقاد بأن التاريخ الذى يتعلمه الناس من روايات السير ولتر سكوت أصدق تصويراً ، وأصح تحقيقاً ، وأقوى أثراً من التاريخ الذى تحتويه الكتب الجافة المملة التى يخرجها المؤرخون المتخصصون بعد الإمعان فى التحقيق والتحذلق فى عرض الموضوع ، وادعاء العلم الواسع والبحث العميق . وفى روايات سكوت نرى النورمانديين والإنجلوساكسون والأسكتلنديين والإنجليز والصليبيين والبيوريتان وقد انتفضوا من قبورهم ، واستردوا حياتهم القوية العارمة ، وعواطفهم الجائشة الطاغية ؛ وقد استرعى ذلك نظر المؤرخين ، وجعلهم يعيدون النظر فى كتابتهم للتاريخ ، فقد استبعدوا فى كتابتهم العناية باللون المحلى ، وأهملوا العناية بإبراز خصائص العصور المختلفة ؛ وكان من أثر ذلك أن أصبحت كتابتهم غثة مملة جدباء خالية من الحياة ؛ فلماذا لا ينتفعون بهذا العنصر الذى أدرك أهميته الروائيون وفى طليعتهم السير ولتر سكوت؟

ففى أوائل القرن التاسع عشر تناول هذه المشكلة المؤرخ الفرنسى أوجستين تيرى . وقد كان فى ذلك الوقت حزيناً موجع القلب لما أصاب فرنسا من اكتساح الجيوش الأجنبية لأراضيها ، وبحث عن موضوع تاريخى

يبث فيه آلامه ويعبر خلاله عن آرائه السياسية ، وظن أن هذا الموضوع الملائم هو غزو النورمانديين لإنجلترا ، وهو يقول فى ذلك : « فأقبلت على تناول هذا الموضوع باهتمام شديد ، ولكن بعد محاولات استبان لى أننى أزيف التاريخ ، وذلك لأننى كنت أستعمل نفس القواعد لعصور مختلفة ، ولما كانت أفكارى السياسية قد غلبتنى على أمرى وسيطرت على ، لذلك كنت أحاول كتابة التاريخ على طريقة فلاسفة القرن الثامن عشر ، ومعنى ذلك أننى كنت أستخلص من الحوادث التى أرويها صفوفاً منظمة من البراهين تثبت معتقداتى بدلا من أن أقدم تقارير مسهبة فضفاضة » . وبعثت فيه البحوث التى أجراها فى موضوعه المختار حماسة واهتماماً حتى أصبح لا يقنع باتباع الأسلوب القديم فى تناول التاريخ ، وحار حيناً من الزمن فى التماس الأسلوب المناسب ، وفى ذلك الوقت وقعت فى يده روايات السير ولتر سكوت فأخرجته من حيرته ، وكانت له بمثابة الكشف والإلهام ، فقد وجد فيها سرد الحوادث النابض بالحياة المعبر فى أجلى بيان عن الفروق بين مختلف الشعوب ومتباين العصور ؛ وتراءى له أن خيال ولتر سكوت القوى قد استطاع أن يبعث الناس من القبور ، ويجعلهم يستردون الحياة ويتحركون إزاء عين القارئ ؛ وقد عبر تيرى عن هذا الشعور بقوله : « وارتفع إعجابى العظيم بهذا الكاتب إلى درجة أسمى حينما وازنت بين معرفته الواسعة الغزيرة للعصور القديمة وبين اطلاع أشهر مؤرخينا المحدثين العديم اللون ؛ ومن ثم رحبت بظهور طرفته الفنية المسماه « إيفانهو » بحماسة قوية ، ففى هذا الكتاب استطاع سكوت بعينه النسرية أن يلقى ضوءاً على العصر الذى شغلت به ثلاث سنوات ، وقد أرانا بجرأة العبقرية كيف أن النورمانديين والسكسون غزاة ومنهزمين قد وقفا وجهاً لوجه على الثرى الإنجليزى ، وذلك بعد الغزو بمائة وعشرين سنة ، وقد رسم بألوان شعرية فترة من فترات هذه الدراما الطويلة التى كنت أحاول أن أكتب عنها بقلم المؤرخ

الكادح » ، وقد شد ذلك من عزم تيرى وجعله يعلن الحرب على المؤرخين العاطلين من الخيال الذين لا يستطيعون أن يصوروا الماضى ويعيدوا بناءه :

وهذا الطريق الذى اتبعه تيرى فى كتابه عن الفتح النورماندى مسترشداً بطريقة السير ولتر سكوت فى رواياته التاريخية هو نفسه الطريق الذى سار فيه المؤرخون الذين نبغوا فى أوائل القرن التاسع عشر مثل سيسموندى وبرسكوت وماكولى وفون رانك وكارلايل وغيرهم .

ونرى من ذلك أن نقص العنصر الفنى فى كتابه التاريخ أدى إلى ظهور الرواية التاريخية ؛ ولذا كان من الطبيعى وقد عاد هذا العنصر إلى كتابة التاريخ على يد أعلام المؤرخين فى القرن التاسع عشر أن يقل بعد ذلك الإقبال على الروايات التاريخية ، فقد استطاع المؤرخون أن يسدوا هذا العجز ويستوفوا هـــذا النقص ، وينفخوا من روحهم حياة فى كتابة التاريخ ، ويظهروا العصور فى جوها الملائم ، ولونها المناسب ، وأخذ الشك يتسرب إلى نفوس الناس من ناحية صدق الروايات التاريخية .

والروائى المؤرخ تلزمه صفتان ، عقلية تاريخية تستطيع أن تستخلص الصور من سجلات الماضى وتكون الأفكار عن حقيقته ، وقوة الخيال الخالق الذى يستطيع استحضار الأحاسيس والمشاعر التى ألمت بنفوس أهل تلك العصور الغابرة ، وكثير من كتاب الرواية التاريخية قد أفادوا من كتب المؤرخين وسلطوا خيالهم على المعلومات المستمدة من المراجع التاريخية ؛ والمعروف عن دكنز مثلا أنه أطال النظر فى كتاب كارلايل الممتع عن الثورة الفرنسية قبل أن يشرع فى كتابة قصة المدينتين التى تتناول عصر الثورة . والروائى التاريخى الناجح يوفق فى استحضار الألوان الزاهية الحية لتفصيلات العصر الذى يتناوله الاجتماعية والسياسية والأدبية ؛ ومن الخطأ أن يجعل بواعث أشخاصه ودوافعهم عصرية ، وإن كان بعض المؤرخين الروائيين يضطر إلى ذلك بسبب نقص المادة التاريخية عن العصر الذى يحاول إحياءه وتمثيل حوادثه وأشخاصه ؛ ولا نزاع فى أن الطبيعة البشرية واحدة فى كل العصور ،

ولكنها برغم ذلك ليست متشابهة التشابه كله ؛ ورواية الحرب والسلم التى كتبها الكاتب العظيم تولستوى تعد أعظم الروايات التاريخية ، لأن تولستوى عرف تاريخ الأسرتين اللتين تناولت تاريخهما الرواية معرفة صميمة ودرس غزو نابليون لروسيا دراسة مستوفاة ، وكان له من تجاربه فى ميادين القتال وقوة خيالة وإحساسه ما مكنه من خلق هذه الطرفة الفنية النادرة .

والروايات التاريخية تستعين بالبحث التاريخى وقوة الخيال ، ولكن هناك روايات تاريخية من نوع آخر ، وهى ما يصح أن نسميها روايات تاريخية معاصرة ؛ وهذا اللون من الروايات يصف العادات المعاصرة والمشكلات الراهنة ، وهى تكتسب أهمية وقيمة تاريخية بمرور الزمن ، وأمثال هذه الروايات لا تصف حوادث معينة ، وإنما تصف العادات والأفكار والتقاليد السائدة .

وللروايات التاريخية ناحية امتياز على الكتب التاريخية ، وذلك أن التاريخ معظمه يدور حول الحوادث البارزة الكبرى والشخصيات الممتازة المنيفة ؛ أما الروايات التاريخية فقد تتناول حياة ما يسمى فى عرف الباحثين المعاصرين » الرجل الصغير « والمقصود به الرجل من عمار الشعب ، وحياة مثل هذا الرجل الصغير قد يهملها التاريخ الذى لا يكاد يبصره أو يسمع صوته ، ولكن الروائى بخياله الصادق وشعوره العاطف يستطيع أن يصف لنا حياة هذا الإنسان الصغير بآماله وأحلامه ومسراته وهمومه ، ويطلعنا بذلك على جوانب هامة من حياة الناس العاديين فى عصره ، وهم الكثرة الكاثرة .

وقد عاب المؤرخ النقادة تين على السير ولتر سكوت إسراعه فى الإخراج ، وعد ذلك دليلا على قلة تحريه للحقائق ، وقال فى نقده : » كل هذه الصور من الماضى البعيد التى يعرضها صور زائفة ، وليس فيها صحيح سوى الملابس والمناظر والمظاهر الخارجية ، والأعمال والأقوال والمشاعر وما إلى ذلك كله منمق متحضر مصبوب فى القوالب المحدثة ، وحينما نتأمل أخلاق

المؤلف وحياته يساورنا الشك ؛ فماذا يريد ؟ وماذا يطلب ضيوفه ؟ وهل هو من طلاب الحق كما هو سواء كان قبيحاً أو متوحشاً قاسياً ؟ وهل هو باحث منقب لا يبالى بالثناء ولا يعبأ إلا بالبحث عما يطرأ على الطبيعة الحية من تغيرات ؟ كلا ، إنه لا يعبأ بذلك كله . . . وليس عنده وقت ليصل إلى أغوار النفوس التى يصفها ، فهو يحصر اهتمامه فى المظهر الخارجى ، ويرى الصور والخارجيات ، ويصفها ويطيل فى ذلك أكثر مما يصف المشاعر الداخلية . . . » وعلى هذا النمط يسترسل تين فى نقد السير ولتر سكوت . وواضح أنه يأخذ عليه قلة توفره على بحث العصور التى تصدى لوصفها فى رواياته وإسراعه فى الإخراج الذى حال بينه وبين الإجادة فى رأى تين . ؛ وقد أفاد كتاب الرواية التاريخية من نقد تين الشديد لروايات السير ولتر سكوت ، فتحروا الدقة وبالغوا فى الاستقصاء وجاءت بعض طرفهم الأدبية آيات فنية عظيمة تجمع بين دقة البحث وقوة الخيال وبراعة العرض ، ويتجلى ذلك فى روايات أمثال فلوبير الفرنسي ومرزكوفسكى الروسى ، وبخاصة روايتيه العظيمتين عن(١) موت الآلهة والرائدين(٢)

Death of the Gods. (١)

the Foreiunners. (٢)

« مشاهد من لقاء طومانباى بالسلطان سليم العثمانى » (*)

فلما أصبح الله تعالى بالصباح أمر السلطان أن يعمل الديوان ، وأظهر ما عنده من الزينة الملوكية ، ورتبوا له أحسن ترتيب ، وحضر جميع العساكر ، ووقفوا بين يديه على حسب مراتبهم ، وأوكب موكباً عظيماً ، ووقف اليكنجرية صفوفا على أحسن ترتيب ، وكذلك المدافع فى ناحية العسكر صفوفاً ، وجهزوا النار ، وهم منتظرون أمر السلطان أن يطلقوا عليهم وعلى البنادق ناراً وتندق الكاسات والطبلخانات التى للسلطان والتى للوزراء والباشات والأمراء .

ثم أمر باحضار السلطان طومانباى والأمير حسن بن مرعى .

فلما حضر السلطان طومانباى أدخلوه من بين هذه العساكر ، ورأى نظام العثمانية فى أحسن ما يكون : ونظر هذه العساكر وهذا الترتيب الذى لاعين رأت ولا أذن سمعت .

ولما دخلوا به على السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك .

فرد عليه السلطان سليم كما يجب ، ولم ينقص مقامه فى سلامه .

ثم وقف طومانباى ، فأمره بالجلوس ، فجلس وهو فى غاية الندم ، وقال :

— إنى كنت طيراً طائراً ، وكانت الأرض واسعة أذهب إلى حيث أريد وأختار : فسلمت روحى لعدوى بيدى ، بئس ماكانت فعلة فعلتها أوجبت لى الهم والذلة ، كل ذلك خطر فى نفسه . وهو جالس لا يتكلم ولا أحد يتكلم ، ولا يرفع صوته ولا رأسه .

(*) من كتاب « ابن زنبل » ، آخرة المماليك ، تحقيق عبد المنعم عامر ، كتب ثقافية ، العدد ١٥٣ ، مارس ١٩٦٢ ، الصفحات من ١٣٣ إلى ١٤٥ .

فنظره السلطان سليم ، وتأمله بعين الفراسة ، فوجد فيه كل شيء يشهد له بالشجاعة والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه .

فتعجب السلطان سليم فيه ، كيف يسلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شيء فيه يشهد بأنه جبان أبداً ، بل إنه إذا رآه من لا يعرفه يشهد له بأنه شجاع بطل .

ثم إن السلطان سليما قال فى نفسه ، إنما هذا أمر سماوى أصابه بوطالع نحس غريب غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم نفسه ، مع أنه قاتل قتال الجبابرة ، وإلا لو هرب كانت الدنيا واسعة بين يديه أينما شاء ذهب ، وحيث طلب هرب .

ثم التفت إليه وقال له : ياطومانباى ، كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين ، أولا إنى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى ، وأنت مقيم على ملك مصر . وأنا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك الأرض ، فأبيت ذلك وقتلت رسلى ، والرسول لا يقتل . فسرنا بعساكرنا لقتالك ، ورفعنا الأعلام ونشرنا العساكر على خراب ديارك ، فأول مقابلتك فى الريدانية هزمناك إلى الصعيد ، وأرسلت إليك رسلا إلى الصعيد ، ومعهم قضاة بلادكم ، فلم تقبل الصلح وقتلت القضاة ، وتعديت شيم الكرام بقتل الرسل أولا وثانياً .

ثم عاتبه عتاباً كثيراً .

فقال له طومانباى ، والله أنه لم يكن شيء مما جرى بخاطرى ولا بأمرى أبداً ولا برأيى ، وأنى لما أرسلت إلى من الشام الرسل أكرمتهم ، وأمرت بنزولهم فى دار الضيافة ، وفى نيتى أن أفعل ما جاءوا به ، وأرد الجواب كما أمرتنى ، فلاقاهم الأمير علان وهم سائرون إلى بيت الضيافة فقتلهم .

فلما بلغنى عسر ذلك على ، وكذلك الرسل الذين أرسلتهم جرى فى حقهم ما جرى فى حق غيرهم من غير رضاى ، وكل هذا ليس بأمرى ولا بإرادتى ،

وإنما جرت بهم المقادير من الرب القدير ، وحتى تجرى الأمور على ذلك على ما كانت من قديم الزمان ، بأن دولتنا قد زالت وأدبرت ودولتكم جاءت وأقبلت ، وهذا شيء كتبه الله تعالى فى القدم ، وأجرى به القلم ، ودارت به الأفلاك وسارت به الكواكب ، وما أراده الله فلامرد له ، ولا يغلب الله غالب ، تبارك وتعالى رب الأفلاك والكواكب ، ولولا ذلك ما قدرت أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا ، فإنه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم أقوى منا ولا أشجع ، وها أنتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكركم ، وكسرتهم كذا مرة .

وأما قولكم أنكم كنتم تريدون السكة والخطبة بأسمكم وأن تكونوا رءوس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين فأنا والله ما أخذت السلطنة برغبتى وأنما قومى وعسكرى اختارونى ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم لما علموا من زهدى فى ذلك المآل .

فلما تقلدت ذلك وجب على أن أرد عنهم وأدافع عن أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحريمهم ، وأما أنت فانمــا قيامك فى لحظ نفسك لاغير ، خصوصاً ونحن مسلمون ، فكيف تستحل قتل المسلمين وترمى عليهم بالمدافع والنيران ، كيف بك إذا وقفت بين يدى رب العالمين ؟ فما جوابك ؟ وكل ملك وإن تعاظم ملكه فهو لله عبد أصغر ، فما أنت وأنا إلا بجملة العبيد .

فتعجب السلطان سليم ثم قال له . أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة والفجار ، فلما بغى أميركم الغورى وجاء بالعساكر إلى حلب ، واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى إلى مملكتى التى هى مورث آبائى وأجدادى .

فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه ، ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم ، وبعد حضورى إلى الشام سمعت أنك عملت سلطانا على الكبشة الأجلاف وأنت لست لها أهلا ، والسلطنة لاتكون ولا تليق إلا برجل

يكون آباؤه وأجداده سلاطين ، وأنت وقايتباى الذى هو أعظمكم و الغورى ما أسماء آباؤكم ؟ ومن أين لكم السلطنة ؟ و من أين لكم الإمارة ، كلكم ولاد نصارى ، وأنتم مماليك بلا عتاقة حتى بقيتم من قله عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطانا ، ثم تعزلونه وتقتلونه ، أى يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا ، وتطولوا أياديكم على السلاطين ، فأنت وقومك كم قتلت من عسكرى ، كل مسلم وابن مسلم ، فما جوابك عنه عند الله تعالى .

فقال له مسرعاً : إن الله تعالى قد أجاز لى ذلك ، قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، اللهم أن المرحوم الملك الأشرفى قانصوه الغورى وقع بينك وبينه التنافس ، ودخلت الشياطين بينكم ، ورمت الأعادى بينك وبينه ، وختم الله تعالى له بالشهادة . وستقف أنت وهو بين يدى رب العالمين وأحكم الحاكمين ، وأما أنا فليس بينى وبينك عداوة ولا أحد من عسكرك ولا غيرهم .

فقال له السلطان سليم : والله ما كان قصدى أذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك .

فقال له طومانباى : الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل ؛ وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لا أنتم أفرس منا ، ولا أشجع منا وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان ، ونحن قوم قد خصنا الله سبحانه وتعالى بذلك ، ولكن أنا أعرف أن ما عليك أضر من هذين الشيطانين الخائنين ، فإنه لو كان فيهما خير لكان لنا .

فقال السلطان سليم للحاضرين : والله مثل هذا الرجل لايقتل ولكن أخروه فى الترسيم حتى ننظر فى أمره .

فأخذه اياس أغا ، وذهب إليه إلى خيمته وأجلسه بها .

وأخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين فى شأنه ، وإذا بالبشارة قد جاءت من عند الأمير أحمد بن بقر بأنه قبض على شاربك الأعور ، وأنتم ترسلون من يأخذه .

فازداد فرح السلطان سليم بذلك ، وقال : من يذهب اليه ويأتى به .

فقال الغزالى : على ذلك .

فقال له : أنت لها يا أبا منصور .

فقام الغزالى من وقته وخرج وأخذ معه مائتين من نقاوة العسكر ، فما تم النهار إلا وهم فى منية غمر ، فوجدو الأمير أحمد بن بقر واقفا لهم فى الانتظار .

فلما اجتمع به قانبردى الغزالى وسلم عليه قال له أحمد بن بقر :

— انزل فى الضيافة .

قال : لا يمكن ذلك ، فإن السلطان سليما ، نصره الله تعالى . أمرنى أن أرجع اليه فى يومى هذا ، فأسرع لنا بشاربك . وسر معنا إلى السلطان ليكافئك على فعلك ، ولا تخبرنى كيف مسكته إلا ونحن سائرون .

فعند ذلك أحضروه ، وهو مقيد مزند .

ووقع بصره على أحمد بن بقر وقانبردى الغزالى فقال لهم : الله يخون الخائن .

فلم يردا له جوابا .

وركبوه على بغل ، وقيدوه من تحت بطنه وطاروا به كما يطير الغراب إذا أخذ البيضة .

ثم أخذ أحمد بن بقر يحكى لقانبردى كيف قبض عليه .

فإن الأمير شاربك لما خرج من الغابة بعد أن أيس من السلطان طومانباى وقصد صديقه وحبيبه الأمير أحمد بن بقر . فلما وصل اليه أكرمه وزاد فى إكرامه ، وقال له ، لا تخف ولا تحزن حيثما وصلت إلى .

فحكى له الأمير شاربك على ما حصل من السلطان طومانباى، وكيف سلم نفسه لعدوه ورمى سلاحه فى البحر المالح، وأن ذلك كان سببا لانقضاء الدولة .

ثم دخل الليل فنام الأمير شاربك ليأخذ لنفسه الراحة ، وكان له عدة أيام وليال لم ينم ، ولا طرق النوم عينه ، فنام واطمأن على نفسه .

فقال أحمد بن بقر لأصحابه : خطر عندى شىء أذكره لكم :

قالوا : وما هو ؟

قال : إن هؤلاء القوم قد زالت دولتهم حيث أن سلطانهم قد سلم نفسه ، وإنى أريد أن أفعل كما فعل حسن بن مرعى ، وأجعل لى يدا عند السلطان سليم ، وآخذ الشكرانية على غيرى .

فقالوا له : هذا هو الصواب .

قال : فقمت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ، ومعى نحو عشرة أو عشرين نفسا ، فضربته بالنبوت على رأسه بعد أن نبهته بسرعة ؛

فلما رفع رأسه وهو مدهى من الضربة التى فى رأسه وقد بطحته أمرت بقية الحاضرين ، فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه ، وزندنته ، وأرسلت لكم على الفور أعلمكم بذلك .

فشكره على ذلك قانبردى الغزالى ، وقال له : الآن قد اشتفى قلبى من هذا الأعور الخبيث .

ولازالوا مجدين السير به حتى أوقفوه بين يدى السلطان سليم ، فتأمله ، ونظره ، فوجده من أكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه ، وشجاعته لابسته ، ذو استكانة رهيبة . ووقار وضخامة وحشمة .

فأراد السلطان سليم أن يختبر كلامه حتى ينظر عقله ، فقال له السلطان سليم :

— كيف تنظر الدنيا ياشاربك .

فقال : كلاشيء .

فقال له : حيث كانت كلاشيء فكيف تقاتل عليها وتحارب فيها ؟

قال : ما قتلت عليها ولا نافست أحدا فيها ، وإنما قاتلت عن مالي وعيالي وعرضي وأولادي ، وكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجاز إلى ذلك ، فأما الكتاب فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ، فمن أعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم .

وقال تعالى : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عياله فهو شهيد ، فنحن ما نقاتلكم إلا باذن من الله ورسوله ، وأنت بأى دليل استحللت دماءنا وأموالنا .

وقول السلطان سليم أولا : قد استفتت عليكم وأجازنى العلماء بذلك فانه قد بلغنى أنكم تقتلون ملوككم ، وتأخذون الأمر بالسيف ، ولا تقفون على الحدود الشرعية ؟

فقال شاربك : أما قتلنا الملوك فهو كلام باطل ، فقد أقام المرحوم السلطان الأشرف قايتباى نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر إلى أن مات رحمه الله تعالى : وأما ابنه محمد فقد تعدى الحدود ، ولم يقف على حدود الشرع ولهذا قتلناه ، وأما الذين تولوا بعده فانا لم نر فيهم قابلية للملك ، فلهذا أقمناهم ، فنهم من حبسناه ، ومنهم من قتلناه اتقاء لشره ، وقد اخترنا المرحوم الأمير قانصوه الغورى . وجعلناه سلطانا ، فأقام إلى أن خرج إليك لأمر أراده الله تعالى فى الأزل إلى أن حصل ما حصل ، وآخر الحياة الموت وما نحن باقون من الموت ، فقد قال الله تعالى : إنك ميت وأنهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ؟

فلما سمع السلطان سليم ذلك الـكلام من شارنك ، أشار بيده أن أخرجوه .

فأخرجوه فى الترسيم ، وأقعدوه

قال الراوى ، فى اليوم الذى جاءوا بالسلطان طومانباى بعد سؤاله وجوابه قبلما يعطيه الترسيم أشار إليه بيده ، أن أطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق ، ودقت النوبة السلطانية ، ودقت الكاسات والنقاريات ، وأطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق ، وكبروا تكبيرات ثلاثة أيام حتى تزلزلت الأرض ، وضربوا النوبة من الوزير الأعظم ، وسائر الوزراء والباشات والأمراء ، وبعد آخرها أشار على ترسيم السلطان طومانباى ،

ثم أمر أن ينادى فى جميع مصر بالزينة ، فزين الناس جميع مصر والقاهرة ، وجميع البيوت والدكاكين ، وأمعن الناس فى ذلك وأشيع فى سائر إقليم مصر بأن السلطان طومانباى مسكوه بدلالة حسن بن مرعى .

وصار الناس منهم من يصدق ، ومنهم من الأطراف والفـلاحين من يكذب .

ولما كان فى ليلة الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول ، وكان السلطان طومانباى قد صلى العشاء ، وجلس وهو كثير التفكير زائد التضجر وزائد الحسرات متتابع العبرات أخذته سنة من النوم وهو جالس ، فإذاهو بشخص واقف قدامه .

وقال له : ياطومانباى ، قدم نفسك للرحيل ؛ فقد مضى الكثيروالقليل وجاء الوقت المعلوم ، فانتبه من نومك فقد حصـل فراقك من أهلك وقومك .

فانتبه مرعوبا فزعا ، وتعوذ بالله من الشيطان ، وقرأ ماتيسر من القرآن فنزل عليه النوم شىء ثقيل ، فاضطجع كأنه ميت أو قتيل .

وقال : ولم ينزل عليه من النوم طول عمره أثقل من تلك الساعة ؛

والسبب فى ذلك أن الروح تعلم بفراقها للبـــدن : فتودعه بطيب الوسن .

ثم أفاق بعد ذلك فوجد نفسه كأنه صب عليه ماء من كثرة العرق ، وكان هو الذى أخبر بذلك عن نفسه للقاضى أصيل الطويل ، فانه لم يأته أحد من أهل مصر غيره ، وأوصاه آن يغسله ويكفنه بيده .

وقد فعل ذلك كما أوصاه .

قال الناقل : ومازال السلطان طومانباى على سهرته إلى الصباح ، فلما تباينت الوجوه وإذا بالجاويشية قد جاءوا إليه ، والقابوجية (١) وهم مسرعون .

وقالوا له : قم ، فان السلطان يطلبك .

فقام معهم وساروا به إلى أن قرب من خيمة السلطان سليم وأوقفوه ، وإذا بقابوجى أغاسى قد خرج من عند السلطان ، وقال :

— قد برز أمر السلطان بأن تسيروا به إلى باب زويلة وتصـــلبوه هناك .

وجاءوا له بالبغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت البغلة ، ودارت حوله اليكنجرية والعساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من أوطاق السلطان إلى انبابه ، ونزلوه فى مركب ، وعدوا به إلى بولاق ، ودخلوا به من مرجوش(٢) إلى بين القصرين(٣) ، وقد انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء والصياح .

---

(١) القابوجية هم الحجاب ، كلمة تركية مفردها « قابوجى » . « المحقق »

(٢) مرجوش اسم شارع يبتدىء من شارع الكلباق وينتهى عند أول شارع الشعرانى ، وقد كان بهذا الشارع عمارة كبيرة يجتمع فيها تجار مصر .

(٣) بين القصرين ، مكان معروف بقسم الجمالية ، وقد أطلق على شارع يبتدىء من قرب مسجد الحسين رضى الله عنه . « المحقق »

وكان الواحد من عسكر الروم يجيء إلى الرجل من أهل مصر ، ويقول له : هذا الرجل الذى على البغلة هو السلطان طومانباى ، أم غيره ؟

فيقول المصرى : بل هو هو .

وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام ، وبكت عليه الأرامل والأيتام .

ذكر

صلب السلطان طومانباى على باب زويله

قال الراوى : فلما وصلوا به إلى باب زويله وجدوا الحبل مرخيا ؛ فأسرعوا به ونزلوه من على البغلة ، وصلبوه على غير مهلة . ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به فى نعش إلى قبة السلطان الغورى ؛ فغسله القاضى أصيل الطويل ، وكفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم من خاص الموصلى الرفيع ، ثم صلى عليه القاضى أيضا كما أوصاه ، ودفنوه فى فسقية القبة المذكورة .

وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه .

قال الراوى : إنه حضر الصلاة على السلطان طومانباى ، ثم أن الذى فرق الأكياس على الناس فرقها من غير عدد بالنصيب أعطاه ثلاث حفنات فضة (١) ، وأعطى القاضى أصيلا مثل ذلك ، وفرق الباقى على الناس من غير عدد بالنصيب .

قال : ثم إن السلطان سليما فى الساعة التى أمر فيها بصلب السلطان طومانباى أحضر الأمير شاربك الأعور ، وأمر بضرب عنقه ، فقطعوا رأسه .

وجاءت عياله وغلامه الحاج فارس فاستأذنوا فى أخذه ، فأذن لهم فأخذوه ؛ وجاءوا به إلى المدرسة البيبرسية (٢) ، وغسلوه . وصلوا عليه.

---

(١) الفضة ربع المليم ، وكانت أصغر وحدة فى العملة مثل البارة ، وتصنع عادة من الفضة ، وأحياناً من النحاس وكانت المبالغ الكبيرة تقدر بالأكياس ، والكيس يطلق على مبلغ ٢٥,٠٠٠ فضة أى خمسة جنيهات .

(٢) المدرسة البيبرسية ، وكانت ملتحقة بجامع بيبرس الموجود بحارة الجودرية — شارع المؤيد .

ودفنوه في مسجد من داخل الخوخة التي عند القرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة .

وكان هذا آخر مــدة بالجراكسة ، وهو يوم الأحد ، الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة .

قال المؤلف : الذى وصل إلى علمى من لفظ سيدى محمد بن السلطان الغورى أن السلطان سليما لم يكن فى نيته قتل السلطان طومانباى ؛ وإنما كان السبب فى ذلك خاير بك نائب حلب وقانبردى الغزالى ، فإنهما لما رأيا السلطان سليما لم يسهل عليه قتله وصرح لهم فى المجلس العام بأن مثل هذا لا يقتل ؛ لأنه لما رأى كلامه مسدودا وهو حق وصدق ، وثبت عنده صدقه وظهر له حاله ؛ ورأى من شجاعته ما يفوق الوصــف لم يسهل عليه قتله .

وكان يريد أن يأخذه معه إلى بلاد الروم ويبقيه عنده ذخيرة بعد أن استحلفه الأيمان المغلظة ، وقد ثبت عنده دينه وصلاحه .

وكان رحمة الله عليه محبوبا لكل من يراه ، فلا يراه غريب ولا قريب إلا أحبه ، وشهد له بالصلاح .

فخشى خاير بك على نفسه ؛ وكذلك قانبردى أن السلطان سليما إن أخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقى عليهما ، فاخــذوا يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله ، وأنه متى أبقى عليه لا يقوم له نظام أبدا ، وربما يفسد عليه عسكره ؛ فإنه رجل شجاع وكريم ، الدنيا عنده لا قيمة لها أبداً ، وخصوصا للأجناد والعساكر .

فعند ذلك اقتضى رأى خاير بك والغزالى بأن يكتبوا للسلطان ورقة ويرسلوها من غير أن يشعر بها أحد من الوزراء ولا من غيرهم .

ومن جملة ما كتبوا فيها ، فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين شتتوا من الجراكسة لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه . وكذلك أهل الأقاليم والعربان ، وأيضا فيعلم مولانا الخنكار ، أنك متى أبقيت عليه فقد ضيعت لقبك وسفرك وهلاك عسكرك وأموالك ، فانه بمجرد ما تسافر من هذه البلاد لو كان تحت الأرض خرج منها ، وأفسد عسكرك بالعطاء ، وتندم حيث لاينفع الندم ، فان أردت أن تطيعك الممالك والبلاد وتحتوى على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولامدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه ، وأرسل اصلبه على باب زويلة لبراه الخاص والعام ، ويشاع ذلك فى سائر البلاد وتيأس الناس من بقائه ، وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هـــذا الإقليم العظيم الذى ليس له نظير تحت سمـــاء الدنيا .

ولقد قال بعض الحكماء ، عدوك لاتصافيه ، وصديقك لاتجافيه .

وقال آخر : من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب .

فعند ذلك أمر السلطان سليم بصلب طومانباى ، ورمى عنق شاربك ، كما تقدم .

ذكر

صفة السلطان طومانباى ، رحمة الله تعالى عليه

كان رحمه الله عليه على ما حكاه عنه سيدى محمد بن المرحوم الغورى والقاضى أصيل الطويل ، والأمير رزملك الناشف وغيرهم ممن رآه وعاشره وعرفه ظاهراً وباطنا ، فاتفق الجميع على أنه كان مقداما خبيرا بالحرب ومواقع الطعن والضرب ، والدخول فى الميدان والخروج منه ، لايرهب الأقيال ، ولايخطر الموت له على بال ، وقد ذكرنا ذلك فى حروبه ووقائعه ، وكان متوسط الطول ، ذهبى اللون ؛ واسع الجبين ؛ أسود العين والحاجبين واللحية . وكان ديناصالحا خبراً فاضلا . زائد الأدب والسكون . والخشوع

والخضوع ؛ ملازما لزيارة المشايخ ، الأحياء منهم والأموات ، حتى أنه لما غسله الغاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا على بدنه جبة صوف حمراء ، وأوصى أن يدفنوه بها ، ولم يظهر عنه في حياته شيء من الأفعال الردية أبداً ، لا شرب الخمر ولا زنا ، ولا فواحش أبداً . وكان قليل الشهامة لا يظهر شيئاً مما يفعله أهل التجبر والعنف ، وكان الغالب على حاله السكينة والوقار ، وكان غالباً على نفسه ، رزينا في أحواله ، ليّن الكلمة . ذا انخفاض كثير الرحمة والشفقة على كل أحد ؛ حتى أنه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة في قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية العجب ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة ، وكان الذى عمره ما رآه إذا رآه لا يشك في أنه عبد صالح فإن الصلاح والأنس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه .

وقد تقدم في التاريخ أن السلطان سليما ماهان عليه قتله لما رآه وسمع كلامه ، وقال له : ياطومانباى ، لو كنت أطعتني على مرادى بأن تجعل السكة والخطة باسمي مادخلت لك أرضا ولا بلادا ، ولا وقع بيني وبينك حرب أبداً ، ولكل لكل شيء سبب حتى جرى القضاء والقدر ، وقتل من قتل ، وسلم من سلم .

وكانت زوجته خوند بنت قانبردى الغزالى دويدار كبير (١) وتزوجت بعده برجل يقال له ، ابن الشيخ ابراهيم الكلشني . وبقيت بمصر إلى أن ماتت ؛ ولم يخلف السلطان طومانباى أولاداً لا ذكوراً ولا إناثا .

وأكثرت فيه الشعراء من المراثى والقصائد ؛ ومضى كأن لم يكن .

وكان القاضى أصيل الطويل دائما يحكى عنه الحكايات الغريبة والأمور العجيبة التى تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين ، ومات القاضى أصيل في سنة سبعين وتسعمائة .

---

(١) دويدار كبير ، كذا في الأصل ، وقد ذكره ابن إياس دويدار كبير ، وهو لقب يطلق بالتركية على حامل الدواة والمقصود به صاحب ديوان الإنشاء . ويقابل هذه الوظيفة في النظام المعروف حالياً سكرتير الحاكم .

وقال الراوى قد قدمنا فى هذا التاريخ أن السلطان طومانباى توفى فى يوم الأحـد الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة تسعمائة واثنتين وعشرين(١) وانقطع اسمه من الخطبة على منابر مصر فى أول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة ؛ وكان من حين ضربت له السكة وأقيمت له الخطبة [ ] [ثلاثة أشهر وخمسة أيام .

قال المؤرخ : وفى الساعة التى أمر السلطان سليم فيها بصلب طومانباى وقتل الأمير شاربك أحضر فيها شيخ العرب حسن بن مرعى وابن عمه شكر ، وشيخ العرب أحمد بن بقر ، وخلع عليهم خلعا عظاما من أجل خلع الملوك وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده إقطاعا له . لا يحمل من مالها لديوان السلطان شيئاً ولا درهما واحدا ماداموا فى قيد الحياة

وأرسلهم إلى بلادهم بعد أن أحسن إليهم إحسانا جزيلا وأكرمهم إكراما عظيما ».

(١) جاء التاريخ فى الأصل يوم الأحد الخامس عشر شهر رمضان سنة تسعمائة وإحدى وعشرين . وهو تاريخ لم يقدمه الراوى كما ذكر ، وإنما التاريخ الذى سبق ذكره هو الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة تسعمائة وإثنين وعشرين . (المحقق)

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع التاريخية .

ثانيا : المصادر والمراجع الأدبية والنقدية .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع التاريخية :

١ ــ ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، ت ٩٣٠هـ) :

ــ « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » .

(طبعة بولاق سنة ١٣١١هـ . ثم الأجزاء من الثالث إلى الخامس من تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، ونشر جمعية المستشرقين الألمانية . الطبعة الثانية ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣) .

ــ « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » .

(نشره L. Langlé . باريس سنة ١٨٠٧) .

ــ « نزهة الأمم فى العجائب والحكم » ،

(مخطوط مصور بجامعة القاهرة . رقم ٢٢٩٦٣) .

٢ ــ ابن بطريق (أفيتشيوس المكنى سعيد بن بطريق ، ت ٣٢٨هـ) :

ــ « التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق » (بيروت ١٩٠٩م)

٣ ــ ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى . ت ٨٧٤هـ)

ــ « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ،

(١٦ جزءاً طبعة دار الكتب المصرية) .

ــ « منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » .

(نشره وليام بوبر Popper فى أربعة أجزاء، كاليفورنيا ١٩٣٠).

— «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى».
(مخطوط فى خمسة أجزاء بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور).

٤ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت سنة ٨٠٨هـ):
— «المقدمة» (بولاق ١٣٢١هـ)

٥ — ابن خلكان
— «وفيات الأعيان».

٦ — ابن زنبل الرمال.
— «آخرة المماليك»: تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، كتب ثقافية، العدد، رقم ٢١٥٣.

٧ — ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ):
(نشرة تشارلز تورى Charles C. Torrey ليدن ١٩٣٠، ونشر الأستاذ عبد المنعم عامر جزءاً منه تحت عنوان «فتوح مصر والمغرب». لجنة البيان العربى ١٩٦١).

٨ — البلاذرى (أحمد بن جهجا بن جابر ت ٢٧٩هـ):
— «فتوح البلدان».
(نشره M. j. Goeje سنة ١٨٦٦).

٩ — حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة وبكاتب جلبى ت ١٠٦٧هـ):

– « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » المجلد الأول (استبول ١٩٤١) .

١٠ – السخاوى (شمس الدين محمد بن الرحمن بن أبى بكر بن عثمان السخاوى ت ٩٠٣هـ) :

– « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » . (القاهرة ١٣٤٩هـ) ؛

– « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » : (بولاق ١٣١٥هـ) ؛

١١ – سعيد عاشور (دكتور) :

– العصر المماليكى فى مصر والشام » : (القاهرة ١٩٦٥) .

– « المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك » . (القاهرة ١٩٦٢هـ) ؛

– « الحركة الصليبية » . (ط . ثانية القاهرة ١٩٧١) ؛

١٢ – عفت محمد الشرقاوى (دكتور) :

– « أدب التاريخ عند العرب » حـ١ (مكتبة الشباب)

١٣ – عبد العزيز الدورى (دكتور)

– « بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب » . (بيروت ١٩٦٠) .

١٤ – عمر رضا كحاله :

– « معجم المؤلفين » حـ ٨ : (دمشق ١٩٥٩) .

١٥ – القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٢١هـ) :

– « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » حـ ٤ (طبعة دار الكتب المصرية)

١٦ – محمد مصطفى زيادة (دكتور) .

– « المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى » (ط . ثانية القاهرة ١٩٥٤) .

— « حملة لويس التاسع على مصر » (القاهرة ١٩٦١)٠

١٧ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ﻫ) :

— « السلوك لمعرفة دول الملوك » ٠

(نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزئين ١ ، ٢ فى ستة أقسام ، ونشر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور الجزئين ٣ ، ٤ فى ستة أقسام أخرى صدر آخرها عن دار الكتب المصرية ١٩٧٣ م) ٠

— « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » جزءان (بولاق ١٢٧٠ﻫ).

— إغاثة الأمة بكشف الغمة » (تحقيق زيادة والشيال القاهرة ١٣٥٩ﻫ) .

— (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » .

(نشره دكتور محمد جمال الدين الشيال) .

— « الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام »

— « شذور العقود فى أخبار النقود » (استنبول ١٢٩٨ﻫ)

١٨ — لويس شيخو :

— المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » .

١٩ — « مجموعة من الأساتذة :

— « دراسات عن ابن عبد الحكم » . (القاهرة ١٩٧٥)

— « ابن أياس : دراسات وبحوث » (القاهرة١٩٧٣)

— « دراسات عن المقريزى » . (القاهرة ١٩٧١)

— « المؤرخ ابن تغرى بردى » . (القاهرة ١٩٧٤)

صدرت جميع هذه الدراسات عن (الهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة المكتبة العربية) .

٢٠- Butcher (L. E.) :
-« The Story of the church of Egypt » (2 vols.).

٢١- Joinville and Villehardouin :
-"Chronicles of the Crusades" (Penguin Colssics 1973).

٢٢- Norman F. Cantor:
-"Medieval History" (2 nd ed. New York 1969).

٢٣- Encylopaedia of Islam.

ثانياً : المصادر والمراجع الأدبية والنقدية :

المصادر :

أ – الروايات :

جورجى زيدان : أرمانوسة المصرية ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٤ .

على أحمد باكثير : وا إسلاماه ، الطبعة الثانية الكتاب الذهبى ، العدد الرابع ، سبتمبر ١٩٥٧ .

محمد سعيد العريان : شجرة الدر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة أقرأ ، العدد رقم (٦٠) .

على باب زويلة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تاريخ .

نجيب الكيلانى : اليوم الموعود ، القاهرة ، طبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٦١

ب – مقدمات الروايات :

جورجى زيدان : استبداد المماليك ، الهلال ، أول سبتمبر ١٨٩٢ .

أرمانوسة المصرية ، الهلال ، أول سبتمبر ١٨٩٥ .

فتاة غسان ، الهلال ، أول سبتمبر ١٨٩٦ .

١٧ ، رمضان ، الهلال ، ١٨٩٩ – ١٩٠٠ (ملحقة بالهلال) .

غادة كربلاء ، الهلال ، ١٩٠١ (ملحقة بالهلال) .

الحجاج بن يوسف ، الهلال ، ١٩٠٢ (ملحقة بالهلال) .

العباسة أخت الرشيد ، الهلال ، ١٩٠٦ (ملحقة بالهلال)

عروس فرغانة ، الهلال ، ١٩٠٨ (ملحقة بالهلال) .

أحمد بن طولون ، الهلال ١٩٠٩ (ملحقة بالهلال) .

عبد الرحمن الناصر ، الهلال ، ١٩١٠ (ملحقة بالهلال) .

فتاة القيروان ، الهلال ، أول أكتوبر ١٩١١ (ملحقة بالهلال ١٩١٢) .

صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، الهلال ، أول أكتوبر ١٩١٢ (ملحقة بالهلال سنة ١٩١٣) .

المراجع العربية :

أحمد ابراهيم الهوارى : البطل المعاصر فى الرواية ، بغداد ، وزارة الإعلام ، دار الحرية للطباعة ١٩٧٦ .

شكرى محمد عياد : البطل فى الأدب والأساطير ، القاهرة ، دار المعرفة ، فبراير ١٩٥٩ م .

عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٢٩ .

بين الكتب والناس ، القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٢ .

شعراء مصر وبيئاتهم فى القرن الماضى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٥ .

عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٣ .

فؤاد زكريا : الإنسان والحضارة في المجتمع الصناعي ، القاهرة مركز كتب الشرق الأوسط ، ١٩٥٧ ؛

محمد عبد الغني حسن : جورجي زيدان، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧٠ ؛

محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، مصر ١٩٥٢ ؛

محمود حامد شوكت : الفن القصصي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٦ ؛

المراجع المترجمة :

جب (هاملتون) : دراسات في حضارة الإسلام ترجمة : د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم ، د. محمود أبو زيد ، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٦٤

كولنجوود : فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكر خليل ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ ؛

الدوريات :

الأدب ، فبراير ١٩٥٩ ؛

الثقافة العدد ١٤٩ ، ١٩٤١ ، ٢٥ نوفمبر ١٩٤١ ، ٢٣ ديسمبر ١٩٤١ ، ٨ أكتوبر ١٩٥١

ديوجين ، نوفبر ١٩٧٥ .

الفجر ، ١٧ يناير ١٩٢٦ ؛

المؤيد ، ١٣ أبريل ١٨٩٩ ؛

الموسوعات ، ١١ مايو ١٨٩٩ ؛

الهلال ، أول سبتمبر ١٨٩٢ ؛

أول أكتوبر ١٨٩٦ ؛

١٥ مايو ١٨٩٩ ؛

المراجع الأفرنجية :

Allot, miriam, novelist on the novel, London; Routledge and Kegan paul 1938.

Cawdwell, cristopher, Studies in a dying culture, London; john Lane the bodley head, 1951.

Gisfford, Henry, The hero of his time, Atheme in Russian Literature, London, Edword arnold 8 Co; 1950.

Luckac's, Georg, the historical novel, Penguin Books published in petegrine Books, 1969.

O. Faolain, Sean, The vanishing hero. Studies in novelists of twnties, 1957.

Plekhanov, Georg, The role of the individual in history, international publishers Co. in C.U.S.A. 1965.

René wellek, Austin warren, Theory of Literature, penguin university Books, 1975.

Trollope. Anthony, Views on the Art of the novel, By Angale B. Samaan, The Anglo-Egyptian Bookshop, 1965.

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٢٧ لسنة ١٩٧٩

مطابع سجل العرب
شارع عماد الدين - ت: ٩٣٢٧٠٦

١٣٥ قرشاً